الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 39 - April 2002

مجلة شهرية . العدد التاسع والثلاثون . السنة الرابعة . أبريل ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

محمد
حسنين
هيكل

ثورة يوليو / خمسون عاماً

٤ فبراير ١٩٤٢
المسرح الخلفى لثورة يوليو

الانقلاب العسكرى الأول فى السياسة المصرية !

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد التاسع والثلاثون
أبريل ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم





محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إيان بوروما .. باحث أمريكى.
- بروس إكرمان .. كاتب فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس.
- حسام الدين زكريا .. باحث فى العلوم اللغوية والموسيقا.
- زينب الميلى.. صحفية جزائرية.
- ستيفن واينبرج .. أستاذ فى جامعة تكساس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صنع الله إبراهيم .. روائى.
- عفاف عبد المعطى .. باحثة فى الأدب العربى.
- محمد أبو الغار .. أستاذ طب القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- وديع فلسطين .. صحفى عضو مجمعى اللغة العربية فى سوريا والأردن.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

خلفيـــــة موضـــــوع!

لقد ظننت أننى أستطيع استعارة هذه الصفحة من رئيس تحرير هذه المجلة، وهو المسئول - بالأساس - عنها، ومن مدير تحريرها، وهى صفحته يعرض فيها لخلفيات يراها لازمة لتقديم مواد كل عدد - كل شهر.

وهدفى من استعارة الصفحة قريب مما هو مطلوب منها، ولكنه فى هذه الحالة تقديم لخلفية موضوع واحد أكتب فيه اليوم عن ثورة ٢٣ يوليو فى مناسبة ذكرى خمسين سنة على مرورها - وقد خطر ببالى أننى أستطيع المشاركة فى محاولة للإجابة على مجموعة من الأسئلة أراها - ويراها غيرى - ضرورية وأساسية للمحافظة على السلامة النفسية للأمة وعلى ضميرها، وحقها فى فهم ما جرى ويجرى، وذلك أمر مطلوب وحيوى للغد وما بعده، وهذا الغد وما بعده - وليس بقايا الماضى - هو الداعى الأهم والأنفع.

وبين الأسئلة:

- هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية ؟

- ومن هو جمال عبد الناصر - الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة - وهو أهم شخصية عربية فى القرن العشرين - حتى إن وقع الاختلاف على تقييم دوره بين مؤيد ومعارض، محب وكاره؟

- وما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه، وما الذى بقى منها - أو ضاع - بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟

وربما طرأت على مسار هذا الحديث أسئلة أخرى تتفرع منه أو تظهر مع سياقه.

وعندما خطر لى أننى أستطيع المشاركة فى حديث أو حوار عن ذلك كله، فقد كانت فى ذهنى خلفيات - هى فى نفس الوقت مقدمات:

- بينها أننى عشت تجربة مباشرة مع الحياة السياسية المصرية، وقد أخذتنى هذه التجربة إلى دخائلها منذ عملت ما بين ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥١ مراسلا مسئولا عن الشرق الأوسط بأوسع خرائطه، من «أثينا» إلى «أديس أبابا»، ومن «دلهى» إلى «الدار البيضاء».



وأثناء هذه التجربة وبعدها وفى أجواء حرب - (وخصوصا فيما يتصل بشئون العالم العربى وبالذات حرب فلسطين ١٩٤٨)، فقد وجدت نفسى فى صميم اهتمامات السياسة المصرية طالبا ومطلوبا فى آن واحد.

- وبينها أن تلك الأجواء والظروف أتاحت لى فرصا نادرة منها علاقة صداقة عميقة سادها حوار حميم مع «جمال عبد الناصر» وهو حوار لم ينقطع من يوليو ١٩٥٢، حين ظهر على الساحة حتى سبتمبر ١٩٧٠ حين غاب عنها. وتلت ذلك علاقة وثيقة - علاقة حوار أيضا - مع خلفه «أنور السادات»، ومع أن الحوار لم يعد حميما بعد سنة ١٩٧٤ كما كان قبل أن نختلف حول فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل - فإنه ظل حوارا متواصلا وإن تباعد أطرافه واختلفت لهجته حتى غاب «أنور السادات» هو الآخر فى أكتوبر ١٩٨١.

- وبينها أننى بعد «جمال عبد الناصر» و«أنور السادات» - ظللت مهتما بما يجرى فى مصر وحولها قريبا - وواسعا، مع أنى حرصت على الابتعاد مسافة تكفل أن أتابع - وليس أكثر - باعتقاد أنه ليس أسوأ من رجل يهتم بالشأن العام - يرضى أن يكون «رجلا لكل العصور»!

- ومن الظاهر فى كل الأحوال أن طبيعة المرحلة السياسية فى بلدان العالم الثالث التى قامت (على امتداد القرن العشرين) تطالب بالخروج من السيطرة الاستعمارية، وتتطلع إلى مستقبلها فى عالم يتغير بسرعة - مرحلة لا تسمح - إلا بمقدار - لصحفى وطنى أن يكون محايدا (هذا إذا كان الحياد أو أى درجة منه ممكنا فى كل الأحوال، ولعل أقصى الممكن فى مجال استقلال الصحفى أن يكون انحيازه لمستقبل، ولرؤية، ولمشروع، ولفكرة، وبالتالى لا يكون انحيازه لرجل أو أسرة أو قبيلة أو سلطة حكم) - وذلك ما حاولته قبل سنة ١٩٥٢ وبعدها - وحتى الآن، شاهدا على القرار وهو يُصنع وسط النار أو مراقبا له من مسافة تسمح برؤية «الوهج» بعيدا عن لهب الحريق!

وخلال ذلك كله كثرت وتراكمت ملفاتى، وظننت أن مجموعة أوراقى الخاصة قبل الثورة وأثناءها وبعدها، فيها ما يكفينى من المراجع والأسانيد - لكن الطموح إلى استكمال الصورة، دعانى إلى الأفق الأرحب، وكذلك أضفت إلى مجموعة أوراقى الخاصة - كثيرا من الوثائق والشهادات، والمصادر المفتوحة والمغلقة حتى الآن - بما يجعلنى أكتب ما أكتب بنوع من الاطمئنان أرضى معه بسلامة القول ومسئوليته.

والحاصل أننى حين جلست لأكتب هذا الحديث فى مناسبة مرور خمسين سنة على ثورة ٢٣ يوليو - قضيت أكثر من سنة مخصصا نصف وقتى، وشهورا أخيرة مخصصا كل الوقت - راغبا أن أضع نفسى فى وضع الاستعداد لقراءة التاريخ وهكذا:

١ - راجعت مجموعة أوراقى الخاصة - تلالا من الملفات - فيها ما سجلته بخط يدى وفيها ما هو بخط غيرى، وضمنهم «محمد نجيب» و«جمال عبد الناصر» و«أنور السادات».

٢ - راجعت مذكرات وتسجيلات عن عشرات المقابلات مع عدد من رؤساء الوزارة فى مصر قبل الثورة، وفيهم «على ماهر» و«نجيب الهلالى» و«حسين سرى» و«محمود فهمى النقراشى»، إلى جانب عدد من الساسة بينهم «محمد حسين هيكل» و«على الشمسى» و«مكرم عبيد» و«فؤاد سراج الدين» و«محمد صلاح الدين» و«عبد الرزاق السنهورى» و«سليمان حافظ» و«أحمد عبود» و«محمد أحمد فرغلى»، وبعض من أتاحت لى الظروف لقاءهم من أفراد من الأسرة المالكة السابقة وبينهم الملكة «نازلى» والدة «فاروق»، والملكة «فريدة» أول زوجة له، واثنان من أخواته هما «فايزة» و«فتحية»، و«النبيل» «عباس حليم»، ثم بعض الظاهرين من حاشية الملك وفيهم «كريم ثابت» والدكتور «يوسف رشاد» وقرينته «ناهد رشاد».

وبالنسبة لفؤاد سراج الدين فقد رجعت إلى وقائع مقابلات مستفيضة معه جرى بعضها فى بيت كريمته السيدة «نائلة سراج الدين» مع صور أوراق بخط يده فيها خطابات كتبها لجمال عبد الناصر.

٣ ـ وكذلك عدت مرة أخرى لحوار مطول ـ أكثر من ثلاثين ساعة ـ مع «حسن يوسف» (باشا)، وهو رجل قضى مدة خدمته العامة فى القصر منذ كان مستشارا منتدبا من وزارة الخارجية حتى أصبح رئيسا للديوان الملكى، وكان الرجل على قناعة كاملة (لم يشاركه فيها كثيرون) بأن القصر قابل للإصلاح من داخله، بحيث يتحول إلى مرجعية شرعية تؤدى دورها الدستورى وتلتزم به.

وكان الرجل على درجة عالية من النزاهة، ولعله الوحيد الذى خرج من خدمة «السراى» (كما كانت تسمى وقتها) ـ لا يملك غير معاشه يعتمد عليه هو وقرينته السيدة «سعدية» ـ وبنوع من الاكتفاء المترفع والصارم، (ولم يكن لهما أولاد).

وقد أضيف فى الشهادة بنزاهة الرجل، أننى عندما عرضت عليه الانضمام إلى مركز الدراسات التاريخية بالأهرام سنة ١٩٥٩ ـ سألنى بوضوح وكنا نتمشى فى نادى الجزيرة «هل تعرض علىَّ عملا حقيقيا، أم أنك تقصد مساعدتى»؟

وكان السؤال مفاجئا ـ لكنه كان صدى «ضمير حى». وقلت للرجل «إننى أتحدث عن عمل حقيقى لدىّ بشأنه تصور»:

أضفت أنه مع اهتمامى بتاريخ مصر الحديث كله ـ فالمركز الجديد فى الأهرام لا يستطيع أن يتحمل منه إلا بمقدار، وذلك معناه التركيز على الفترة ما بين سنة ١٩١٩ وثورة سنة ١٩٥٢، فتلك هى المرحلة التى انتهى إليها ما قبلها ـ من زمن «محمد على» ـ ومشى منها ما بعدها (حتى سقوط الملكية فى مصر)، وبالتالى فإن هذه الفترة من تاريخ مصر الحديث هى المساحة التى تستحق الأولوية ـ من وجهة نظر مركز تنشئه دار صحفية، لأن علاقة هذه الفترة بالسياسة الجارية علاقة امتداد منطقى وطبيعى.



يلى ذلك ظنى بأن الحياة السياسية فى تلك الفترة جرت على مستويين بالتوازى وبالتفاعل فى نفس الوقت: مستوى رسمى أو شبه رسمى دار فى مواقع السلطة، ومستوى شعبى جرى فى الشارع السياسى، وجرى بعضه تحت الأرض وبالعنف أحيانا، وكلا المستويين على علاقة جدلية ببعضهما.

وكذلك فقد تصورت أن يكون العمل فى مركز الدراسات التاريخية مسئولية موزعة بين رجلين: «حسن يوسف» (باشا) مسئولا عن التأريخ للجانب الرسمى أو شبه الرسمى ـ تساعده تجربته فى القصر. والدكتور «محمد أنيس» (أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة القاهرة) مسئولا عن التأريخ للجانب الشعبى ما هو ظاهر منه وما هو خفى.

[أضفت أن متابعة وتوثيق ما وقع وتدفق ـ ومازال ـ بعد الثورة مسألة أخرى تحتاج إلى تصور مختلف.] واستمع إلىَّ «حسن يوسف» (باشا) واتفقنا على موعد جاء فيه إلى مكتبى ومعه سؤال جديد: «هل يمكن أن يكون عرضى عليه رغبة فى الحصول على معلومات أو أسرار يحتفظ بها ويمكن استعمالها ضد عهد سقط؟»

وطمأنته أن ذلك ليس فى خواطرى (وفصّلت أمامه وجهة نظرى).

وبدأ الرجل عمله وأدى فيه جهدا يستحق الاحترام.

ومرت سنوات، وتدفقت أحداث وكان سنة ١٩٧٤ أننى تركت موقعى فى الأهرام بعد الخلاف مع الرئيس «السادات». ولم ينقطع «حسن يوسف» (باشا) عن التردد زائرا على المكتب الذى واصلت عملى منه بعيدا عن الأهرام. وذات يوم جمعة فى ديسمبر سنة ١٩٧٥، وكان «حسن يوسف» (باشا) يزورنى ـ (فى بيتى الريفى فى قرية «برقاش» على الطرف الغربى لدلتا النيل) ـ ومعه صديقه الذى أصبح صديقى أيضا وهو «عبد الفتاح عمرو» (باشا) وكان سفير القصر الملكى لسنوات فى لندن مضت بنا الذكريات بعيدا عن كل الحدود والقيود، وسألته أليس خسارة أن تضيع هذه الوقائع؟ والسنوات تمر والنسيان وارد، ولم يمانع، واتفقنا وكانت له تحفظات قَبِلْتَها (ووفيت فيما أتمنى):

أولها: أن لا أكتب ولا أنشر شيئا مما يقوله قبل «خمس عشرة» أو عشرين سنة بعد رحيله (وذلك ينطبق أيضا على قرينته).

والثانى: أن يحاط ما سجلته معه بكل الضمانات التى أحيط بها أوراقى الخاصة «لأنه عهدة شخصية».

والثالث: رجاؤه إذا استعملت ما سمعت منه فى يوم من الأيام ـ أن يكون ذلك فى معرض «شرح» الملك «فاروق» وليس فى معرض «تشريحه».

وعلى نفس هذه الشروط سجلنا بعد ذلك ثلاث ساعات ونصف الساعة مع «عبد الفتاح عمرو» (باشا)، وكانت فى الواقع حوارا بين «حسن يوسف» و«عبد الفتاح عمرو»، وكلاهما يحاول تذكير الآخر ويقابل ويضاهى بما يسمح بتدقيق الوقائع وتثبيت صورتها.

٤ ـ وبالإضافة إلى ذلك فقد عدت إلى قراءة ومراجعة جبال وليس مجرد تلال من الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية (والإسرائيلية)، مما هو محفوظ فى سجلات رئاسة الوزارة ـ وزارات الخارجية والدفاع (ومخابرات هذه الدول فى بعض الأحيان). وربما قلت إننى راجعت قبل أن أكتب هذا الحديث أكثر من ستين ألف ورقة، ركزت بالتفصيل على حوالى الأربعة آلاف منها.

٥ ـ وأخيرا ـ فقد أعدت قراءة ملفات الأوراق الخاصة لساسة كبار كان لهم اهتمام بالشأن المصرى ودبلوماسيين مقتدرين مثلوا بلادهم فيها، ولعل أهم هذه المجموعات الخاصة وفيها مجموعة أوراق السير «أنتونى إيدن» (وكان وزير خارجية بريطانيا زمن الحرب العالمية الثانية)، ومجموعة أوراق السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن)، السفير البريطانى الأشهر فى مصر من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٦، وهى فترة شملت كل سنوات الحرب العالمية الثانية بمقدماتها وعواقبها، وكذلك أوراق السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة فى سنوات التحول الكبير، إلى جانب مجموعة أوراق السير «رونالد كامبل»، والسير «رالف ستيفنسون»، وكلها موجودة (أو صور منها) فى مكتبة كلية «سان أنتونى» إحدى كليات أوكسفورد، وهى كلية متخصصة فى دراسات الشرق الأوسط ـ وفعلت نفس الشىء مع مجموعة أوراق «جيفرسون كافرى» الذى كان سفيرا للولايات المتحدة ما بين سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٥، ومجموعة أوراق «كيرميت روزفلت» وكان مسئولا عن المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٤١ وحتى سنة ١٩٥٥.

وفى النهاية أمسكت بالقلم وجلست لأكتب، حريصا على أن يكون وراء كل كلمة سند!

محمد حسنين هيكل

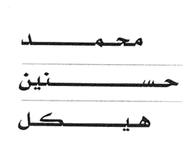

من أين
تبدأ قصة
يوليو ١٩٥٢
؟
السؤال الأول :
هل كانت
ضرورية ؟

السفير البريطانى
«مايلز لامبسون»
أو جاموس باشا
«حسب وصف الملك فاروق»
مع النحاس باشا



الانقلاب العسكرى الأول فى السياسة المصرية





لقد رجح عندى أن أبتعد لبعض الوقت عما يجرى لنا، ويجرى حولنا، وهى مهمة سهلة، وصعبة، فى آن واحد!

● سهلة لأن ما يجرى يغرى بفراقه - دون أسف عليه - فهو واقع بارد، مجرد من دفء حلم، أو كرامة مشروع، أو إلهام فكرة!

● وصعبة لأن ما يجرى يحض على البقاء قريبا منه - فهو صراع مصائر، ومطالب مستقبل، وأزمة أمة تحاول أن تستجمع بقايا طموح وإرادة، وبقايا آمال ورؤى - تذكرها بأن لها حقا ودورا وموقعا فى زمن عالمى جديد!



ولقد رجح عندى ما رجح لأن العاطفة تدخلت فى حركة الميزان وأنهت التردد بين «السهل» و«الصعب» فبعد ثلاثة شهور وثلاثة أسابيع تحل الذكرى الخمسون لثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك يوم بالغ الخطر فى التاريخ العربى الحديث، لا يكاد يختلف أحد على أن حياة الأمة فى النصف الثانى من القرن العشرين، وحتى مطالع القرن الحادى والعشرين كانت - وظلت - موصولة به على نحو أو آخر!

وكان فى خطة عملى منذ أكثر من سنة أن أعود إلى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ - قارئا للتاريخ مرة أخرى، وليس كاتبا له، فتلك كما أشرت مرات، مهمة أتركها لغيرى ممن هم أقرب اختصاصا، أو أبعد جرأة - وربما أوسع خيالا!

ومن الأكيد أن هناك دراسات جادة وموضوعية عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (خصوصا فى إنجلترا وفرنسا حيث توافر كثيرون على دراسة السقوط الإمبراطورى البريطانى والفرنسى فى حرب السويس سنة ١٩٥٦) - لكن الأكيد فى الوقت نفسه أن العالم العربى شهد - ويشهد - خلطا تتنوع أسبابه ما بين مقصود لأهواء وأغراض إقليمية ودولية - محلية وذاتية، وما بين غير مقصود أدى إليه السهو والخطأ، خصوصا فى ظروف ترضى عن السهو وتكافئ على الخطأ!

والحقيقة أننى اطلعت على ما كتبه بعضهم واستغربت، وتابعت على الشاشات (فضائيات عربية فى كل مكان) ما يرويه بعضهم واستعجبت، وبدا لى الكثير مما يلقى على الناس مجافيا لما رأيته بعينى وسمعته بأذنى فى زمانه وفى مكانه عندما شاءت مصادفات - أن أكون فى الموقع الأقرب من بؤرة القرار، مراقبا ومتابعا بل ومشاركا فى بعض الأحيان، ومهتما فيها جميعا.

وبالإضافة إلى ما رأيته بنفسى وسمعته فى زمانه ومكانه - فقد كنت تعلمت درسا أساسيا يؤكد قيمة تسجيل الدقيقة والثانية فى وقتها وموقعها، وينهى عن اعتبار الذاكرة الإنسانية خزانة مأمونة للمعلومات، والسبب، أن هذه الذاكرة ليست صندوقا من حديد وصلب، دونه سلاح وعليه أقفال، وإنما هى وعاء مفتوح تصب فيه وتتسرب إليه ليل نهار صور ومشاهد ونزعات ومطامح وإيحاءات - وكله يتفاعل مع بعضه فى عملية شبه كيميائية وتكون النتيجة خلقا آخر يذوب فيه الأصل.

وأظن أننى مدين بالفضل فى تقليل الاعتماد على الذاكرة لنصيحة أول رئيس تحرير عملت معه، وهو «هارولد أيرل» رئيس تحرير جريدة «الإجيبشيان جازيت»، وكان ملخص نصيحته لى، ولثلاثة زملاء مصريين التحقنا دفعة واحدة للتدريب فى جريدته - قوله لنا: «أنتم سوف تذهبون إلى مهام متواصلة تغطون فيها مسارات الحوادث فى وطنكم وأوطان غيره، وعندما تأخذكم المهام التى تكلفون بها إلى أى مكان، خصوصا خارج البلاد، فلا تحاولوا أن ترسلوا بمواد إخبارية عاجلة؛ لأن وكالات الأنباء سوف تسبقكم، وأما ما تستطيعون التفوق به على غيركم فهو التركيز على خلفية الوقائع والحوادث وحركتها الداخلية، مستندين إلى المشاركين فيها وشهودها، راسمين باللون والظل وبالصوت والهمس صورا حية للأجواء والظروف والملابسات، وعليكم تسجيل ذلك وتثبيته أولا بأول حتى تستطيعوا فيما بعد وعندما تكتبون تقاريركم، أن تستعيدوه على نحو دقيق وأمين. وإذا اعتمدتم على الذاكرة وحدها ومر يوم - ثم يوم، فأخشى أن النتيجة تكون أقرب إلى فن القصص منها إلى عرض الخبر!

وعندما جلست لأكتب كان واضحا لى - بينى وبين نفسى - أن هدفى من الكتابة الآن، ليس أن أقر حقا أو أمحو باطلا، فذلك دور





قديسين وليس دور صحفيين، كما أن هدفى ليس أن أدافع عن أحد أو أدين غيره؛ لأن ذلك مطلب تأخر وقته سياسيا وإن لم ينته حقه تاريخيا: من ناحية لأن الرجال الذين كان يمكن إنصافهم أو إدانتهم لم يعودوا على قيد الحياة بحيث يلحق بأيهم ثواب أو عقاب - ومن ناحية أخرى لأن الحقيقة عليها الانتظار حتى تنجلى الغُمة عن ذاكرة الأمة، فالقوى التى تهيمن على الأرض ومواردها، وعلى الاقتصاد وآلياته، وعلى القرار وسلطته، كان لابد أن تمد سيطرتها فى نفس الوقت إلى الذاكرة: لأنها مجمع الحكمة ومستودع الضمير، وهناك - تكمن إرادة الأمة.

وعليه فإن هذه القراءة فى التاريخ - تطلب استثارة اهتمام الباحثين عن الحقيقة فى شئون أمتهم وأحوالها، وأوضاع أوطانهم وآمالها، وفى اليوم وغدا وبعد غد. وقد لا أجد بأسا من أن أعترف أن هذه القراءة للتاريخ موجهة بالدرجة الأولى إلى الشباب: شباب العمر - وشباب العقل - وشباب الوعى - وشباب الشوق إلى الحق!

وأريد أن أزيد (ولعل الزيادة لا تكون تزيدا)، أننى أتمنى أن يقرأ من يعنيهم الأمر هذا الفصل وغيره وفى ذهنهم أن التاريخ يصنعه بشر. وأن البشر خلق من لحم ودم، وليسوا - مهما تسامت أدوارهم فى صناعة - خوارق ومعجزات. بمعنى أن الطبائع الإنسانية لها أوجه ضعفها وأوجه قوتها، مواضع لينها ومواضع صلابتها. والخطر عند قراءة التاريخ أحيانا أن صناعته تضفى على أبطاله أشكالا من القداسة دخيلة على الطبع الإنسانى، وفى التاريخ الإسلامى فإن ذلك الخلط بين ولى الأمر فى سلطة الدنيا، والقوامة على الدين بسلطة الولاية - يزداد فى العادة، وهذا التباس تجاوزه كثيرون ممن كتبوا فى التاريخ العربى وعنه، وفيهم «ابن إسحاق» و«المقريزى» و«ابن أياس» و«الطبرى» و«ابن تغرى بردى»، و«عبدالرحمن الجبرتى». والشاهد أن هؤلاء الرجال سجلوا ما سجلوا وفى اعتبارهم أن الحق لا يجافى الطبع، وإنما يأخذه فى حسابه، وأن العصمة المطلقة لذات الله وحدها، وأما خلقه فإن الميزان الحقيقى لهم ما يستطيعون تقديمه من النفع لأوطانهم، حتى وإن لم تكن تصرفاتهم معصومة أو مقدسة (لأنها نسبية). والواقع أن التاريخ لا يحتمل فكرة البطولة المطلقة - لأن التاريخ إنسانى وليس إلهيا!

ومن المفارقات أن شعوب العالم المتقدم تعرف التفرقة بين الواقع والأسطورة، وبالتالى فإن المثال الكامل لم يخلق قط ولا فى حالة الأنبياء، فمنذ خروج آدم من الجنة خرج وراءه بنو البشر جميعهم، وعاشوا دنياهم بكل مواطنها، وحسابهم آخرها ليس على ما هوت إليه نفوسهم، وإنما على ما ارتقت إليه هممهم. ■

٤ فبراير ١٩٤٢

المسرح الخلفى لـ ٢٣ يوليو

■ مرة أخرى فى قراءة التاريخ يتأكد لأى قارئ أن الصراعات الكبرى حضانة للتحولات الإنسانية الأهم، وأن الحروب باعتبارها الذروة الخطرة للصراعات هى الولادة الطبيعية للتحولات المؤثرة على حياة ومستقبل الشعوب والأمم.

وعليه فإن أى قارئ للتاريخ الحديث سوف يتأكد أن الحرب العالمية الثانية كانت حضانة حركة الثورة الوطنية فى العالم الثالث على اتساعه عبر ثلاث قارات (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية).

ثم إن أى قارئ للتاريخ المصرى - فى سياق العصر الحديث - سوف يلحظ أن يوما بالتحديد فى مسار هذه الحرب العالمية الثانية - وهو يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ كان ولادة قيصرية بالجراحة - فتحت الباب - يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - لولادة قيصرية أخرى من نفس النوع، والاختلاف بين الولادتين - هوية السلاح. ففى الولادة الأولى كان المشرط إنجليزيا وفى الولادة الثانية كان المشرط مصريا!

....

....

[ولمجرد التذكرة فإن ٤ فبراير ١٩٤٢ هو اليوم الذى وجَّه فيه السفير البريطانى فى مصر السير «مايلز لامبسون» (والذى أصبح اسمه اللورد «كيلرن» فيما بعد عندما منح اللقب مكافأة على خدماته للإمبراطورية، واختار أن ينتسب إلى المقاطعة الإسكتلندية التى جاءت منها عائلته) - وكان نص إنذار السفير البريطانى إلى الملك «فاروق» بالنص: «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة من مساء اليوم أن «مصطفى النحاس» باشا دُعى إلى تأليف الوزارة، فإن الملك «فاروق» يتحمل تبعات ما يحدث».

والوقائع الكاملة لأحداث تلك الليلة كما كتبها السير «مايلز لامبسون» بخط يده فى دفتر يومياته المودع ضمن مجموعة أوراقه فى كلية «سان أنتونى» المتخصصة فى دراسات الشرق الأوسط والتابعة لجامعة أوكسفورد - تنشر الآن بنصوصها (لأول مرة كما أحسب) فى وثيقة تالية لهذا الحديث مباشرة].

....

....

وإذا كان ذلك فإن يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ يستحق أن يوضع فى سياقه وفى إطاره، وبفهم متسع ورحب لحركة التاريخ وعناصرها، لأن الأمم كثيرا ما تجد نفسها فى خضم صراعات لم تفكر فيها، ولم تطلبها، لكن الظروف المحيطة وبدون تخطيط أو مسئولية على أحد - تضعها وسط المعمعان - راضية أو كارهة والغالب أن وقائع يوم ٤ فبراير والطريق إليها كان تجربة من هذا النوع لبلد وجد نفسه وسط الصراع العالمى رغم أنفه، وحاول أن يبحث عن أمان فيه، على عجل من أمره!

● وكما هو بيِّن الآن فإن السير «مايلز لامبسون» بإنذاره للملك فاروق (رغم ما فى الإنذار من إهانة) - لم يكن يمارس كراهية شخصية، كما قالت وتقول به روايات ملكية، شاعت بعدها ولا تزال لها أصداء.

● ولم يكن «مصطفى النحاس» باشا - للدقة والإنصاف - خائنا بالتواطؤ مع الإنجليز حين قَبِلَ رئاسة الوزارة مساء يوم ٤ فبراير على أسنة الحراب البريطانية (على حد التعبير الذى استعمله أحمد ماهر (باشا) رئيس السعديين ليلتها).

● ولم يكن الملك «فاروق» شابا فقد عقله دون مقدمات، فَحَقَّ للسفير البريطانى أن يعيده إلى صوابه ولو بالدبابات!

إنما البيِّن الآن أن الحقيقة أعقد من تلك الروايات، وأبسط أيضا؛ لأن ما وقع مساء ٤ فبراير ١٩٤٢ كان فى إطار حركة تاريخ حكمها تدافع عنيف بين القوى، وتداعيات أثرت بالوعى أو باللاوعى على مسار الحوادث. وكان التعقيد والبساطة فى نفس الوقت هو الدرس المفيد الذى تكشفه قراءة التاريخ وتكشف معه أن الحقيقة لها أكثر من وجه، بمعنى أن ما جرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ كانت له وجوه عديدة:

● وجه بريطانى - حقيقى - له منطقه الذى يمكن فهمه.

● ووجه مصرى ملكى - حقيقى - له هو الآخر منطقه الذى يمكن تقديره.

● ووجه مصرى وفدى - حقيقى له بدوره منطقه الذى يمكن قبوله.

وعليه فإن ما جرى فى ذلك اليوم كان أكبر كثيرا من «زهو» السير «مايلز لامبسون» بقوته، وأكبر من «حرص» الملك «فاروق» على عرشه، وأكبر من «تلقف» «مصطفى النحاس» (باشا) لرئاسة الوزارة من وسط عاصفة، وفى الحقيقة فإن الحادث من أوله إلى آخره كان إشارة تختزل وتختصر صراع مقادير أكبر من إرادة الأفراد، وظرف عالمى أوسع بكثير من موقع قصر عابدين، ولعله كان مشهدا «مصريا» فى «حرب عالمية».

ومؤدى ذلك أن استكشاف أبعاد وحدود عملية ٤ فبراير ١٩٤٢ وما تداعى بعدها - يتطلب استعادة واسترجاع صورة الصراع الدولى كما تجلى وقتها.



كانت بداية الحرب العالمية الثانية يوم ٣ سبتمبر ١٩٣٩، وقد نشبت بين «ألمانيا النازية» من ناحية وبين «بريطانيا» و«فرنسا» من الناحية الأخرى، وسببها المباشر رغبة «هتلر» (زعيم ألمانيا النازية) فى استعادة منطقة «دانزيج» فى بولندا كى تعود إلى ألمانيا بعد أن سلخت منها نتيجة للحرب العالمية الأولى (ومعاهدة فرساى التى رتبت نتائجها).

وتمكنت القوات الألمانية من احتلال «بولندا» كلها فى سبعة عشر يوما ثم توقف القتال، وبدا أن الحرب نامت، لأن «ألمانيا» خطت الخطوة الأولى ونفذت بالسلاح ما أرادته فى «بولندا»، ثم عجزت بريطانيا وفرنسا عن نجدة «بولندا» فى الشرق، وتلا ذلك أن الجبهة الغربية (الفرنسية) مع ألمانيا بقيت خنادق متقابلة وساكنة، ومع أن السكون يتحول إلى صخب فى بعض الأوقات حين تتبادل الجبهات وراء الخنادق ضربات المدافع، إلا أن ذلك بدا قصدا سياسيا قصاراه تذكير العالم أن الحرب على الجبهة الغربية مازالت دائرة!

ومع أوائل سنة ١٩٤٠ - أى بعد أربعة شهور من نشوب القتال، وثلاثة شهور من سقوط «بولندا» - كان صوت الحرب خافتا لدرجة دعت إلى وصف هذه المرحلة بـ: «الحرب الفارغة» (the phony war) لأن جيوش بريطانيا وفرنسا وقفت على ناحية من



جبهة القتال، ووقفت القوات الألمانية على الناحية الأخرى. ثم إن الجيوش البريطانية التى عبرت بحر الشمال إلى الشواطئ الفرنسية ظلت هناك، لأن القيادة العليا الإمبراطورية رأت إبقاء قواتها فى مقاطعة نورماندى شمال فرنسا حتى تظل مواصلاتها على البحر مفتوحة قريبة وسالكة إلى قواعدها البريطانية - وفى كل ذلك فإن الحرب ليست وقوفا فى الخطوط الدفاعية سواء خط «ماجينو» الفرنسى أو خط «سيجفريد» الألمانى - ولا انتظارا على الشاطئ الآخر من بحر الشمال!

وفى الوقت نفسه فإن بقية القوى المهتمة بالحرب ظلت على مسافة تتابع وتراقب:

● الولايات المتحدة تتابع وتراقب - من وراء الأطلنطى - ومصالحها الطبيعية وراء حلفاء الغرب الرأسماليين واعتقادها (الولايات المتحدة) أنها تجسيد الرأسمالية فى عنفوانها وليست مجرد احتياطى أمريكى للرأسمالية الأوربية المتهالكة.

● وإيطاليا تتابع وتراقب - من وراء جبال الألب - ومطامعها الملهوفة مع الألمان وشغلها الشاغل أن تتشارك معهم فى الإرث الإمبراطورى لبريطانيا وفرنسا عندما يُعاد توزيعه، وقد بدت هذه العملية حتمية سواء بالقتال أو بالاتفاق.

● والاتحاد السوفيتى يتابع ويراقب - من العمق الشرقى الأوربى - ويرى الحرب صراعا بين الاستعمار القديم (البريطانى والفرنسى) المتخوم، وبين استعمار جديد يتضور جوعا فى ألمانيا ووراءها إيطاليا وقد تفتحت شهيته من جديد.

● وأخيرا لاحت اليابان مطلة من وراء بحر الصين، ترسم لنفسها مجالا حيويا فى شرق آسيا تحسبه فى متناول اليد عندما تسقط الإمبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا) بالهزيمة أو تنكسر شوكتها بالضعف.

كل ذلك وجبهات القتال غرب أوربا ساكنة.



كان منطق الحركة يفترض أن يكون الدور على بريطانيا وفرنسا؛ لأن ألمانيا بدأت بالخطوة الأولى ونالت ما طلبت، والآن جاء دور الغير بمسئولية الرد، وهذا الغير قابع فى خطوطه لا يرد. لكن «هتلر» ليس قادرا على انتظار خصومه، فقد تجلت أوربا الغربية أمام عينيه أفقا مفتوحا بلا عائق - وفضلا عن ذلك فهو لا يستطيع الاستمرار فى حالة «السكون» دون حسم، خصوصا إذا كانت الفرصة أمامه سانحة لبسط السيطرة الألمانية على غرب أوربا والاستدارة بعدها إلى الشرق حيث معاقل الخطر الشيوعى، وحسابه أنه إذا جاءت لحظة المواجهة بينه وبين الاتحاد السوفيتى، فإن بريطانيا سوف تقبل شروطه للصلح، وفى أعقابه فإن الولايات المتحدة سوف تسارع إلى صفقة عالمية معه!

وعندما جاء ربيع سنة ١٩٤١ كانت الجيوش الألمانية تنفذ من شمال أوربا الغربية، وتقطع بلدانها واحدا بعد الآخر بسهولة ما تمشى «السكين فى الزبد» على حد تعبير شاع تلك الأيام.

وسقطت دول الشمال الأوربى واحدة بعد الأخرى فى أيام: هولندا، بلجيكا، لوكسمبورج. والتفت مدرعات ألمانيا - تحت قيادة ماريشالات الرايخ الثالث مثل «رونشتد» و«جودريان» و«روميل» - تكتسح سهول «الفلاندرز»، وتتدفق منها عبر «المارن» و«الموز» وتحتل باريس، واستسلمت فرنسا، وانسحبت القوات البريطانية من «نورماندى» مهرولة عبر أى وسيلة للنقل البحرى من «دنكرك» هاربة من الشاطئ الفرنسى إلى أى مرسى بريطانى مقابل.

وفى يونيو سنة ١٩٤٠ وقفت بريطانيا فى الحرب وحدها، فى حين أن ألمانيا لم تعد وحدها لأن إيطاليا انضمت إليها حتى يلحق زعيمها «موسولينى» بحصة من المستعمرات الفرنسية قبل أن تفوت الفرصة، وساد الاعتقاد بأن الدور الآن على بريطانيا، وأن قوات «هتلر» على وشك غزوها، وأن تركيز الطيران الألمانى عليها بهذه الكثافة - تمهيد لعبور البحر (وفق عملية عُرف فيما بعد اسمها الرمزى: «سبع البحر»).

لكن بريطانيا أظهرت عزمها على المقاومة على الشواطئ والمدن والقرى والشوارع والبيوت على حد تعبير «تشرشل» فى خطابه الشهير الذى أعلن فيه أنه ليس عنده ما يقدمه غير «الألم والدم والدموع»، مضيفا «أن مصير العالم الحر سوف يتقرر على حافة الماء من سواحل هذه الجزر البريطانية».

وفى بداية سنة ١٩٤١ كان «هتلر» الراغب فى حسم الحرب قد وجد أن غزو بريطانيا يكلفه أكثر مما يستحق، وبالتالى قرر أن ينضم إلى شريكه الإيطالى الذى تعثر وتعطل فى شمال أفريقيا عندما أراد أن يستعيد زمن قياصرة روما من كبار الفاتحين - بادئا الحرب بهجوم من ليبيا على مصر - وقد تصور «هتلر» أنه بانضمامه إلى «موسولينى» يفك القبضة البريطانية عن البحر الأبيض المتوسط كله.

وكذلك اتجه إلى شواطئ ليبيا جيش ألمانى - الفيلق الأفريقى كما أُطلق عليه - وهدفه دخول مصر واجتيازها إلى قناة السويس، والتقدم من سيناء إلى سهول سوريا نحو الشمال والشرق لتكون من ذلك كماشة تطبق على الاتحاد السوفيتى من الجنوب أى من الباب القوقازى، ويتوافق ذلك مع هجوم يجرى الإعداد له من أوربا، من الباب البولندى - إلى قلب أوكرانيا، وحتى أسوار «الكرملين» فى موسكو.

وكان القائد الألمانى المختار لهذه الخطة الجسورة التى تبدأ من جنوب البحر الأبيض وتطوق شرقه، قائدا ألمانيا أصبح أسطورة وهو الماريشال «أروين روميل» الذى وصل بالطائرة إلى طرابلس مساء يوم ١٢ فبراير ١٩٤١.

وكذلك فإنه حين أصبحت كل الطرق تدور حول البحر الأبيض المتوسط، فإن مصر أصبحت الملتقى والتقاطع والموضع الأخطر!

الطريق البريطانى إلى ٤ فبراير وبعده

كانت مصر ترقب ما يجرى فى أوربا مأخوذة، وقد أدهشها احتلال «بولندا» فى سبعة عشر يوما، وعندما سقطت فرنسا ودخل «هتلر» غازيا إلى باريس يرقص تحت قوس النصر الشهير، تحولت الدهشة إلى انبهار. لأن باريس فى وعى الطبقة العليا المصرية لم تكن مجرد عاصمة أوربية، بل إنها «عاصمة النور والحضارة» من عصر نابليون ومحمد على بعده، وإلى عصر الخديو إسماعيل وحفيده الأخير على عرش مصر الملك «فاروق».

وكانت السياسة البريطانية تفهم وتدرك تأثير النفوذ الأوربى (الفرنسى بالذات)، على الحياة الثقافية والسياسية المصرية، وظنونها أن النخب الوطنية التى تقوم بممارسة السياسة - بالقدر المسموح به فى وطن محتل - فرنسية الهوى فى معظمها. وكان ذلك - بالإضافة إلى عوامل أخرى - نوعا من «العناد الخفى» إزاء بريطانيا خصوصا وهى قوة الاحتلال التى تحجب الاستقلال وتسوف وتؤجل من وعد إلى آخر، ومن اتفاق إلى معاهدة - دون نهاية ترضى بها الوطنية المصرية تحقيقا لآمالها.

وكان «العناد الخفى» محسوسا فى القصر الملكى بأكثر مما هو مرئى، ولأن القصر لم يكن على استعداد للمعارضة الصريحة، فإنه راح يماطل حتى لا تمسك به قوة الاحتلال وتضبطه متلبسا بمعارضة المجهود الحربى فى ظل تواجد بريطانى كثيف، وانتقال فى ميادين الحرب من شمال البحر الأبيض إلى جنوبه، وبه أصبحت القاهرة واحدة من القيادات الرئيسية الثلاث!



كانت الإمبراطورية البريطانية تملك من حكمة التجربة ما جعلها تدرك مع حالة حرب أوربية عامة، فاضت مضاعفاتها على بقية العالم - أن ظروف الاتصال والمواصلات (وقتئذ) لا تسمح للعاصمة «لندن» أن تمارس قيادة صراع الحرب على كل الجبهات فى كل القارات، وكذلك جرى تقسيم القيادة الإمبراطورية إلى ثلاث قيادات رئيسية:

١- قيادة عامة فى لندن يتولاها رئيس الوزراء مع هيئة أركان الحرب الإمبراطورية وهى مكلفة بوضع الاستراتيجيات العليا للحرب، بالإضافة إلى مسئوليتها المباشرة عن مسرح العمليات الأوربى.

٢- وقيادة رئيسية فى مصر مقرها القاهرة (يقودها وزير دولة بريطانى مقيم ومعه السفير البريطانى فى القاهرة والقائد العام لقوات الشرق الأوسط)، وهذه القيادة لها مسئولية التصرف (فى إطار الاستراتيجية العليا) وفق ما تقتضيه الظروف، بالإضافة إلى مسئوليتها عن البحر الأبيض والبحر الأحمر والدائرة المحيطة بهما أو الواقعة بينهما، وبدون الرجوع إلى لندن إلا فى حالة الضرورة.

٣- وقيادة رئيسية فى الهند (وهى درة التاج) ومقرها فى «دلهى» ويشرف عليها نائب الملك وحكومته فى الهند، وهى مسئولة عن آسيا من بحر العرب - إلى بحر الصين.



وحتى بعد نشوب الحرب وسقوط باريس، كانت مصر تحاذر التورط قدر ما هو ممكن، وتبدى استعدادها لتطبيق معاهدة سنة ١٩٣٦ بالنص، وإن لم يكن بالروح. وكانت فتوى قانونية من فقيه مصر الكبير «عبد الحميد بدوى» (باشا) قد ذهبت إلى أن نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ - لا تنطبق على حرب تنشب فى أوربا (وهذا هو الحال عندما كانت ألمانيا وحدها أمام الحلفاء)، وإنما تنطبق على حرب يكون فيها ما يهدد الأراضى المصرية، (وذلك ينطبق على إيطاليا إذا قررت دخولها).

وكان رأى «بدوى» (باشا) أن مصر فى حالة حرب أوربية تشارك فيها بريطانيا - غير مطالبة بأكثر من إعلان حالة الطوارئ؛ وبالفعل فإن السلطة



البريطانية أخذت ما هو مقرر لها من مزايا حالة الطوارئ، بما فى ذلك فرض الرقابة على كل كلمة مكتوبة أو مطبوعة أو منطوقة - فى مصر.

(وبمقتضى ذلك تشكلت هيئة رقابة إنجليزية يرأسها وزير الداخلية المصرى بالاسم، فى حين أن تكوينها لا يدع مجالا لشك عن موضع الأمر فيها:

- الليوتنات كولونيل و. ويلسون مساعدا للرقيب العام.

- المستر جـ. هـ. دولامار رقيبا عاما على البريد.

- المستر ر. ب. فيرنس رقيبا عاما على المطبوعات.

إلى جانب ذلك تشكلت مكاتب فرعية للرقابة فى الموانئ والمطارات المصرية:
فى القاهرة - المستر س. جولدنج.
فى الإسكندرية - المستر ج. ف. موس.
فى بورسعيد - المستر ج. ث. ماكجوين.
فى السويس - المستر ف. شفرويت).

وبصرف النظر عن إعلان حالة الطوارئ وما يترتب عليها، فإن الملك «فاروق» ظل مترددا بسند وتشجيع من رجال أحاطوا بالقصر وقتها، وأولهم «على ماهر» (باشا) الذى كان رئيسا للوزراء عندما قامت الحرب.

وضمن هذا التردد الملكى فإن وزارة «على ماهر» (باشا) أعلنت ما سُمى وقتها، سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، ومؤدى هذه السياسة أن مصر تنفذ المطلوب منها بنصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ (وذلك تحقق بإعلان حالة الطوارئ) - لكنها تحتفظ لنفسها بمسافة من ميادين القتال.

وكان الشيخ «محمد مصطفى المراغى» (شيخ الأزهر) قد عزز ذلك بشعار أطلقه يقول بأن ذلك الصراع فى أوروبا «حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل».

ومع أن تلك بدت تعبيرات عن سياسة «تعاند الإنجليز» ولا تعارضهم، فإن لندن سكتت عليها؛ لأن هذه السياسة ساعتها كانت أكثر تحقيقا لمصالحها، فهى تتيح استعمال مرافق مصر لصالح المجهود الحربى (وفق معاهدة سنة ١٩٣٦). وفى نفس الوقت فإن عدم المشاركة فى ميادين القتال بمنطق «تجنيب مصر ويلات الحرب»، يفرض على الطليان والألمان نوعا من الحذر فى نشاطهم الحربى ضد الأراضى المصرية حتى لا تتحول المشاعر والمواقف من نصف تبعية إلى تبعية بالكامل للاستراتيجية البريطانية!

وفى هذه الأجواء بقيت الأمور فى مصر هادئة طوال السنة الأولى من الحرب العالمية - إلى درجة أن القائد العام للقوات البريطانية وهو الجنرال (الماريشال) «أرشيبالد ويفل» - كان يخرج من بيته وسط حدائق الزهرية فى الزمالك بملابس مدنية كل صباح، ويتمشى إلى نادى الجزيرة قاصدا حمام السباحة فيه (الليدو)، ويعوم نصف ساعة ثم يعود فيدخل غرفة الملابس حيث يكون الجاويش المكلف بخدمته الشخصية قد أعد له بذلته العسكرية فيرتديها، ويتجه إلى مائدة على حافة حمام السباحة يتناول إفطاره فى نظام لا ينقطع إلا إذا نزل الوحى عليه وكتب شعرا.

....
....

[وكان الماريشال - الذى فقد إحدى عينيه فى الحرب العالمية الأولى، واستعاض عنها ببديل من زجاج - شاعرا، وكان أيضا عاشقا، وقد كتب نصف ديوان من الشعر على شكل رسائل غرام لزوجة وزير مصرى له شأن فى ذلك الوقت. وكانت السيدة جميلة بالفعل، ومع أن فى مجموعة أوراقى نصوص قصيدتين مما كتب الماريشال، فلست واثقا أن السيدة المذكورة بادلته غرامه، والظن أنها تظاهرت بقبول قصائده باعتبار ذلك نوعا من «الواجب الوطنى» فى زمن الحرب.]

وبرغم أن الحكومة البريطانية تقبلت المعاندة التى لقيتها من السلطات فى مصر (القصر والحكومة) - وفيها «تجنيب مصر ويلات الحرب» وأنها «حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل» - بهدوء أعصاب، فإن أجهزة الإمبراطورية وفيها الأمن والمخابرات العسكرية كانت تشك فى بعض رجال القصر، وكذلك فى عدد من الوزراء، لكن مثل هذا الشك لزم الحذر حتى لا يثير أزمات لا داعى لها.

وفى ذلك الوقت فإن الشك حاول أن يتحفظ وأن يعبر بهدوء عن هواجسه، ومن ذلك مثلا أن السفارة البريطانية طلبت إخراج «فيروتشى» بك وهو إيطالى كان يعمل مديرا لـ«الجراجات الملكية» على عهد الملك «فؤاد»، ثم جاء الملك «فاروق» وعينه كبيرا لمهندسى القصر، وأبدى السير «مايلز لامبسون» السفير البريطانى، ملاحظة عنه فى إحدى مقابلاته مع الملك قائلا: «إن فيروتشى ليس فقط مهندسا فاشلا، وإيطاليا مشكوكا فى ولائه، بل إنه رجل سيئ الخلق، إلى درجة أن اختصاصه الحقيقى فى القصر، كان «متعهد تقديم إيطاليات جميلات يبعن الهوى بثمن وليس أكثر». وسأله الملك «فاروق»: لمن كان يقدم «جميلاته»؟ - وابتسم السفير البريطانى ابتسامة لها معنى وسأل الملك: «هل تريدنى أن أقول بصراحة؟» من جانبى أفضل أن لا أقول»! - لكن «فاروق» لم يسكت وإنما أضاف: «تقصد أن تقول أنه كان يقدم بغايا إيطاليات لوالدى - أليس كذلك؟». وأضاف الملك بهدوء أعصاب - أو كذلك بدا: «إن هذا غير صحيح و«سعادتك» تعرف كيف تنتشر الشائعات؟!».

وفى دفتر يومياته يسجل السير «مايلز لامبسون» أنه بعد هذا الحوار، طلب كبير الأمناء فى البلاط المصرى «سعيد ذو الفقار» (باشا) مقابلته ليبلغه «أن الملك يشعر بإهانة من الطريقة التى تحدث بها السفير بالأمس و«بالتصريح» عن «فيروتشى» (بك)، و«بالتلميح» عن الملك «فؤاد»، وكان رد السير «مايلز لامبسون» على كبير الأمناء، نصيحة منه إلى «فاروق» بأن يكبر على هذا المستوى من «لعب العيال»!

وكان السير «مايلز لامبسون» يراقب ويتابع، وتكشف الوثائق أن واحدا من مصادره فى ذلك الوقت كان الأمير «محمد على» ولى العهد.

ويكتب «مايلز لامبسون» فى أحد تقاريره: ذكر لى الأمير «محمد على» أن «على ماهر» (رئيس الوزارة) طلب من «محمد محمود خليل» (رئيس مجلس الشيوخ) - إبلاغ السفير الإيطالى الكونت «ماتزولينى»، «أن مصر لن تعلن الحرب على ألمانيا رغم أن ذلك مفروض عليها بالمعاهدة»!

وفى مرة ثانية نقل «مايلز لامبسون» عن ولى العهد: «أنه ذهب إلى القصر «ينذرهم» بأن عدم دخول الحرب ضد ألمانيا قصر نظر سياسى منهم» - وأضاف الأمير: «قلت لهم إن أخى (عباس حلمى) فقد عرشه لأنه تردد فى موقف مماثل، ثم إننى كنت الخلف الطبيعى له على العرش، ولولا أن الجنرال «ماكسويل» (القائد العام للقوات البريطانية فى مصر) فهم خطأ كلمة قلتها له، وظن أننى أتردد، لكنت أنا الآن سيد قصر عابدين وليس فاروق» - أضاف «محمد على»: «قلت لهم ذلك فى وجههم ولم يفهموا لأن فاروق لا يريد أن يتعلم شيئا»!



ثم بدأ الشك البريطانى يتخلى عن تحفظه عندما وصلت «معركة المصائر» إلى جنوب البحر الأبيض وإلى مصر، وفى المرحلة التى كانت بريطانيا تقف فيها وحدها فى ميدان القتال ضد «هتلر».

وهنا جاء الطلب البريطانى بخروج «على ماهر» (باشا) من رئاسة الوزارة فى مصر بصيغة الأمر؛ لأن الأوضاع لم تعد تحتمل، وكان خروج «على ماهر» إثر برقية بتوقيع وزير الخارجية البريطانية «أنتونى إيدن» إلى السفير البريطانى فى القاهرة السير «مايلز لامبسون»، نصها أربع كلمات «على ماهر يجب أن يذهب» (Aly Maher must go).

وقد طار السير «مايلز لامبسون» من القاهرة إلى الإسكندرية يوم ١٣ يونيو ١٩٤٠ ليقابل الملك «فاروق» وينقل إليه الأمر بنفسه موضحا (حسب نص تقريره) «أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تصبر على وجود رئيس وزراء مصرى لا تثق فيه، ولا يثق فيه الشعب المصرى نفسه لأنه لا يمثله»، وعندما حاول الملك «فاروق» أن يتذرع باستقلال مصر، رد عليه «لامبسون» بقوله: «أرجوك لا تلعب بالنار، وأن تحاول بدلا من ذلك إجراء مشاورات تجيء بحكومة تمثل الأغلبية فى مصر وربما «رأيت» - جلالتك - أن يكون «النحاس» (باشا) ضمن من تتشاور معهم»!

وكتب السير «مايلز لامبسون» تلك الليلة إلى وزارة الخارجية فى لندن ليقول: «إننى لم أطلب ما هو أكثر ولم أحاول أن أصر - مثلا - على أن تدخل مصر الحرب رسميا، لأنى لا أرى من ذلك كسبا يتحقق لنا».

ولم يقاوم الملك «فاروق» كثيرا فى إخراج «على ماهر» بل إنه - بناء على نصيحة رئيس ديوانه «أحمد حسنين» (باشا) جاء إلى رئاسة الوزراء بصديق للإنجليز هو «حسن صبرى» (باشا)، لكن الرجل لم يقض فى رئاسة الوزارة غير بضعة أشهر، ثم فاجأته نوبة قلبية قضت عليه واقفا أمام الملك «فاروق» يلقى خطاب العرش فى قاعة مجلس النواب فى البرلمان المصرى، ومرة أخرى اختار الملك لرئاسة الوزارة صديقا آخر للإنجليز هو «حسين سرى» (باشا).

....
....

[ولم يكن هؤلاء الرجال من أمثال «حسن صبرى» و«حسين سرى» عملاء للإنجليز، وإنما ساسة يعتقدون بضرورة التفاهم مع بريطانيا لبلوغ المطالب المصرية لأن ذلك أسلم من مواجهة غير متكافئة معها، فى زمن حرب

برغم أن الحكومة البريطانية تقبلت المعاندة التى لقيتها من السلطات فى مصر (القصر والحكومة) - وفيها «تجنيب مصر ويلات الحرب» وأنها «حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل» - بهدوء أعصاب، فإن أجهزة الإمبراطورية وفيها الأمن والمخابرات العسكرية كانت تشك فى بعض رجال القصر، وكذلك فى عدد من الوزراء



الملك «فاروق» و«جاكلين» قرينة السفير البريطانى ويقف خلفهما «محمد رضا بهلوى» (شاه إيران) والأميرة «فوزية» شقيقة الملك «فاروق» «إمبراطورة إيران»

لا تستطيع مصر أن تؤثر فى مجراها، وعلى فرض أنها كانت تستطيع، فقد كان رأى هؤلاء الساسة أن «الشيطان البريطانى» الذى يعرفونه أفضل من «الشيطان الإيطالى أو الألمانى» الذى يدخل بلدهم بقوة السلاح فى حرب عالمية.].



وفى بداية ١٩٤١ (يوم ٢٠ فبراير) وقع حادث لافت للنظر، فقد تم التحفظ فى فلسطين على دبلوماسى رومانى بدرجة وزير مفوض اسمه «أولجار ناناسيسكو»، وكان قادما من تركيا عبر سوريا يحمل ثلاث حقائب، والظاهر أنه كانت لدى السلطات البريطانية معلومات دعتها إلى مخالفة الأعراف الدولية، فأمرت بتوقيف الدبلوماسى الرومانى وفتح حقائبه للتفتيش، وإذا هى تحتوى على أجهزة استقبال وإرسال لاسلكية برسم التسليم إلى قنصلية رومانيا فى الإسكندرية. وكانت ضمن المضبوطات أوراق تحتوى على تعليمات بموجات اتصال يومى منظم على ترددات لاسلكية محددة، كما كان هناك كشف بعدد من الأسئلة تطلب معلومات تفصيلية عن أوضاع الأسطول البريطانى فى ميناء الإسكندرية. والأهم أن تلك المضبوطات من الأوراق كانت فيها نسخة من الخطة العسكرية للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط.

وكان ذلك نذير خطر مضاعف، فقد تبدى لهذه العملية معنى يتجاوز الواقعة وتفاصيلها، مؤداه أن الخطر على الأمن فى مصر لم يعد «ألمانيا» أو «إيطاليا» ولم يعد طرفا معينا يمكن تحديده وترصده، وإنما الخطر اتسع نطاقه بسيطرة «هتلر» على أوربا وبما نتيجته أن أى أوربى هو جاسوس محتمل متنكر - والدليل أنه فى هذه الواقعة دبلوماسى رومانى.

وتلقى السفير البريطانى فى القاهرة (وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١/ تحت رقم ٢٤٩) - تعليمات بأن يتصل برئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا)، ويطلب منه إغلاق القنصلية الرومانية فى الإسكندرية. وترحيل العاملين فيها، «مع امتنان الحكومة البريطانية إذا شمل الإجراء أيضا إبلاغ الوزير المفوض الرومانى فى القاهرة «أنه شخص غير مرغوب فيه».

وكتب السفير البريطانى فى القاهرة بتاريخ ٥ مارس (ملف وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١/ تحت رقم ٥٥٢) يقول: «تأخرت فى مقابلة رئيس الوزراء لأنه كان فى جولة يطوف خلالها ببعض المحافظات. وعندما لقيته اليوم سلمته مذكرة بطلباتكم. ونظر إلىَّ «سرى» (باشا) باستغراب وسألنى: «هل أنتم فى حرب مع رومانيا؟»، وعندما أجبته بالنفى قال لى: «إذن فأنا غير مستعد لإجابة طلباتكم»، ثم أضاف «إن مصر ليست مستعمرة وهى على غير استعداد لأن تطيع السياسة البريطانية طاعة عمياء»، وقمت بلفت نظره إلى أن لندن «لن تكون مسرورة بما سوف أنقله لها مما أسمعه منه»، ولم يغير «سرى» (باشا) موقفه وإن

حاول تلطيفه بقوله: «إنه لو كان الدبلوماسى الرومانى قبض عليه فى مصر لاختلف الأمر، لكن القبض عليه وقع فى فلسطين. «وإضافة إلى ذلك فإن الرجل ليس مستشارا للسفارة الرومانية فى القاهرة»، وفهمت أن «سرى» (باشا) كان يعرف أن «ناناسيسكو» بدأ سفره إلى مصر من تركيا، وأنه هناك قابل السفير الألمانى «فون بابن»، ومع ذلك فإن معرفته تلك لم تغير رأيه. واقتراحى إليكم أن تفوضونى إبلاغه بخيبة أملكم فى تعاونه معنا لأن دراستى لشخصية «حسين سرى» أكدت لى أنه لا يتحرك إلا بالضغط الشديد عليه».

ولم تمض أيام قليلة حتى أبرقت وزارة الحربية فى لندن إلى الملحق العسكرى البريطانى (وثيقة ٤٥/٤١٨/١٦) تلفت نظره إلى أن القنصلية اليابانية فى الإسكندرية تقوم بنشاط مشبوه فى متابعة دخول وخروج وحدات الأسطول البريطانى من ميناء الإسكندرية.

ثم كتبت وزارة الحربية (المخابرات العسكرية) (وثيقة ج.هـ/٥١٧) إلى وزارة الخارجية تقول لها: «يبدو أنه سوف يكون عليكم اتخاذ إجراءات قوية مع الحكومة المصرية حتى تفعل شيئا حاسما لوقف نشاط معاد تقوم به بعض القنصليات الأجنبية فى مصر. إننا سمعنا علاوة على ذلك من مصادرنا فى أوربا أن عددا من الممثلين المصريين يرون أن الظرف مناسب لكى تمارس بلادهم نوعا من الاستقلال «المزعوم» يجعلها نائية بمسافة معقولة عنا، وذهب بعضهم أكثر ليوحى لحكومته «بأنهم الآن يستطيعون استغلال الظرف الحرج بالنسبة لنا، حتى يحصلوا على تنازلات منا، وتقديرهم أن مأزقنا الراهن - فرصتهم المتاحة».



وتظهر فى وثائق كسر الشفرات الشهيرة - التى كان مقرها قصر «بلتشلى»، فى ريف «ووريكشير»، والتى كانت تستعمل جهاز «أولترا» الأسطورى لفتح أسرار «الأعداء»، حتى أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا كان يسميها (magic السحر) - مجموعة من الإشارات تومئ إلى ما يبدو أنها «قنوات اتصال» بين القصر الملكى فى القاهرة وبين دول المحور (ألمانيا - إيطاليا)، ثم إن بعض هذه القنوات كان «فاعلا» وبعضها الآخر خاملا.

ويظهر فى الإشارات أنه كانت هناك مبكرا قناة اتصال فى روما قام عليها الوزير المصرى المفوض «مراد سيد أحمد» (باشا)، بتوجيه من القصر كلفه بـ «أن يجس نوايا «إيطاليا» عن «تصوراتهم» فى شأن «التعامل» مع مصر». وكان الرد مقتضبا ومنسوبا إلى الكونت «شيانو» وزير الخارجية - (وهو فى نفس الوقت متزوج من «إيدا» الابنة الكبرى لزعيم إيطاليا بنيتو موسولينى) - مفهومه «أن مصر يصح لها أن تتوقع منا معاملة أفضل مما تلقاه حاليا من الإنجليز».

كانت إيطاليا على وشك دخول الحرب مع ألمانيا، وكان الإحساس العام أن مصر فى خريطة ما بعد الحرب، وفى حالة انتصار دول المحور داخل منطقة النفوذ الإيطالى، وهكذا فإن القصر الملكى فى مصر لم يكن مطمئنا إلى عبارة عامة من الكونت «تشيانو» عن مستقبل مصر من المنظور الإيطالى، وهكذا طلب من الوزير المفوض «مراد سيد أحمد» (باشا) أن يحصل على معلومات أكثر تفصيلا. ويبدو أن مسئولا فى وزارة الخارجية ألح أمامه «لماذا تصرون على تعهدات منا بمعاملة أفضل، دون أن تفعلوا شيئا يثبت استحقاقكم لذلك؟!».

وفيما يبدو فإن هذه الرسالة من روما هى ما جعل بعض «الإيطاليين» فى القصر يوحون إلى الملك «فاروق» بـ: «أن أذكى ما يستطيع أن يفعله لمستقبل بلاده أن يهرب بطائرة إلى إيطاليا فور دخولها الحرب، ثم يعود بعد ذلك إلى القاهرة مع قواتها المنتصرة الزاحفة من ليبيا».

....

[وظهرت احتمالات هرب الملك فى الشهادات المروية المصرية، وفى الوثائق البريطانية - قصة مثيرة.

ففى رواية «حسن يوسف» (باشا) أن «فيروتشى» كبير مهندسى القصر (وهو إيطالى)، كان الوسيط الذى نقل للملك «فاروق» اقتراح الهرب بطائرة عبر البحر إلى إيطاليا (مطار برنديزى العسكرى) أو إلى ليبيا (مطار طبرق العسكرى) و(ليبيا وقتها مستعمرة إيطالية).

وعاش الملك «فاروق» مع الفكرة أياما يبحث فيها ويقلب، فقد رأى أمامه ملوك الدانمرك والنرويج وهولندا ينتظرون جامدين (محسوبين على الحلفاء وإن لم يريدوا) - حتى أطبقت عليهم القوات الألمانية وحولتهم إلى أسرى فى قصورهم، أو لاجئين خارج أوطانهم. وخطر له - كما زين فيروتشى وآخرون - أنه إذا هجر معسكر المهزومين - وهم على كل حال أعداؤه باحتلالهم لوطنه - ثم قصد إلى معسكر المنتصرين، وهم فى هذه الظروف - قبل الحسم العسكرى - سوف يقدرون جميله - إذن ففى مقدوره تأمين مستقبل البلد ومستقبل العرش باتفاق مبكر يجعله شريكا فى النصر.

لكن الملك لم يكن يريد أن يهرب وحده، وإنما كان يفكر فى أسرته أيضا. ويرجح «حسن يوسف» (باشا) أن الملك لم يتشاور فى شاغله الكبير مع أحد غير والدته - وهمسا. ولم تكن الملكة «نازلى» متحمسة بمشاعرها، لكنها بعد ساعات عادت متحدثة بعقلها، ولديها عدد من الحجج، (يظن «حسن يوسف» (باشا) أن مصدرها كان «أحمد محمد حسنين» (باشا) الأمين الأول للملك، الذى انتقل أيامها إلى رئاسة الديوان). وكانت حجج الملكة «نازلى» أمام ابنها بما مؤداه أن الأفضل أن يظل «بقيمته» فى بلده وينتظر التطورات ويتعامل معها من موقعه، وكما يتبدى له فى ظروف جديدة. ورأيها أيضا أنه إذا دخل الطليان والألمان إلى مصر فإنهم سوف يكونون فى حاجة إلى تعاونه معهم أكثر من حاجته هو إلى تعاونهم معه. ثم إنه إذا خرج الآن فقد يقدم الإنجليز على إعلان خلو العرش ويجدون من أسرته، (خصوصا ولى عهده الأمير «محمد على توفيق») من يقبل الجلوس مكانه، وهو أول من يعرف «أنهم» مازالوا حتى الآن يعتقدون أن فرع الملك «فؤاد» اغتصب التاج من فرع «عباس حلمى». وإذا حدث وهرب «فاروق» ثم دخل الطليان والألمان إلى البلد، فليس هناك من يضمن أنهم لن يتعاملوا مع الرجل الذى يجلس على العرش، بدلا من الرجل الذى هرب إليهم، مع ملاحظة أن علاقته بهم سوف تسوء لأنهم لن يعطوه مسبقا - أو لاحقا - شيئا مما يطلبه للبلد، وبالتالى «لن ينوبه غير الكسوف». وكان واضحا أن هذه الحجج تتخطى الإدراك السياسى للملكة الأم، ولذلك تبدى كلامها درسا مستجدا لقنه لها «كاردينال» القصر، وصاحب النفوذ الرمادى فيه «أحمد محمد حسنين» (باشا) - وقد أضافت الملكة «نازلى» بعد ذلك وهى تشرح لابنها ملاحظة من عندها على الأرجح هى قولها «إنها لا تريد للعائلة المالكة فى مصر أن تفعل ما تفعله أى فلاحة فى الريف - ترفع جلبابها كى تغطى رأسها، وهى حين تفعل ذلك تكشف ساقيها - وربما أكثر»!

(وقد سمعت بنفسى هذا التعبير - بدون مساحيق! - ومن الملكة «نازلى» وبصوتها على التليفون فى مكالمة من فندق «هاسلر» فى روما حيث كنت - إلى فندق «فيرمون» فى سان فرانسيسكو حيث كانت الملكة «نازلى» فى شهر مايو ١٩٥٠، وتلك قصة طويلة أخرى - لها دورها فى مكانها!).

تلك هى الناحية المصرية من حكاية هرب الملك «فاروق» وسط الحرب إلى إيطاليا].

....

....

وأما على الناحية الأخرى فإن الوثائق البريطانية (الدبلوماسية والعسكرية) تحتوى على تفاصيل محددة عن قصة هرب الملك إلى إيطاليا أو إلى ليبيا. وفى اجتماع لجنة الحرب فى القاهرة (وفق تقرير لامبسون بتاريخ ٢٥ يونية ١٩٤٠)، فإن المسألة نوقشت وحدثت أثناء المناقشة شبه مشادة بين القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط الماريشال «أرشيبالد ويفل» وبين السفير البريطانى فى مصر «مايلز لامبسون»، وبدأت المناقشة وفقا لمحضر لجنة الحرب، حين طلب السير «مايلز لامبسون» تشديد كل إجراءات الرقابة على المطارات المصرية وفى الأجواء لمنع طائرة الملك من الخروج. وتدخّل الجنرال «ويفل» بقوله: «لماذا لا تتركه يهرب»، واستطرد: «أنتم لا تثقون فيه، وهو يبادلكم المشاعر، وأنتم لا تستطيعون عزله الآن على الأقل - وكذلك فإن هربه قد يكون حلا مرضيا لكل الأطراف». ورد السفير: أن «تلك تعليمات لندن!».

وواصل «ويفل»: «لماذا لا تراجعهم فى



الصورة الرسمية للسير «مايلز لامبسون» وعقيلته «جاكلين» فى صالون السفارة البريطانية بالقاهرة



لندن برأينا، فقد يغيرون تعليماتهم؟». ورد «لامبسون»: «إننى على استعداد لأن أبعث إلى الخارجية بوجهة نظرك مقابل وجهة نظرى لاقتناعى بتعليماتهم كما تلقيتها، بأنه لا ينبغى السماح لفاروق بالهرب، وإلا أعطينا المحور فرصة دعائية ضدنا وسط العرب والمسلمين، وتراجع «ويفل» قائلا بأنه: «لا داعى لأن نحتكم إلى لندن، لقد عرضت وجهة نظرى فى المناقشة، وإذا كانت تعليمات الخارجية ووجهة نظر السفارة هنا على خلاف مع وجهة نظرى، فإن الموضوع منته بالنسبة لى لأنه بالدرجة الأولى سياسى».



● ويظهر فى الإشارات بعد ذلك ما يدل على أن الوزير المفوض المصرى فى «برن» (سويسرا) عبد الفتاح عسل (بك) طُلب منه القيام باتصال مع السفارة الألمانية هناك، وكانت هذه السفارة مركزا متقدما فى عاصمة الحياد العالمى (سويسرا) تشرف على شبكات واسعة من العلاقات. وقد رأى «عبد الفتاح عسل» أن يجس النبض أولا، فاتصل بالسفير الهنجارى فى «برن» - الكونت «فون ويتين» وكان صديقا حميما للسفير الألمانى فى العاصمة السويسرية - لكن هذه الاتصالات لم تصل إلى نتيجة تعكسها الوثائق.

● وتظهر الإشارات بعد ذلك أن هناك قناة اتصال فتحت عن طريق أحد معارف الملك من أمراء آل عثمان السابقين واسمه فى هذه الإشارات الأمير «عمر»، وكانت هذه الاتصالات مباشرة فى استنبول مع السفير الألمانى فى تركيا «فون بابن».

وترد فى الوثائق برقية من السير «هيوكنتشبول» سفير بريطانيا فى تركيا، وفيها يقول: «أنه علم أن الأمير «عمر» سأل «فون بابن» (باسم ملك مصر) - عن نوايا دول المحور تجاه مصر فى حالة تقدم جيوش هذه الدول فى أراضيها واحتلالها. كما أنه عرض استعداد الملك «فاروق» لأنواع من التعاون إذا حصل على وعد بضمان استقلال مصر بعد الحرب!».

ثم اتضح أن هذه القناة توقفت بناءً على نصيحة من «فون بابن» السفير الألمانى، وتكشف فيما بعد أن «الألمان» حصلوا على كل أسرار السفير البريطانى - من قبل أن يتوصل لها خبراء كسر الشفرة - فى أنقرة، بواسطة رئيس خدم السفارة الذى كان يقدم لسيده مخدرا فى شرابه كل ليلة، ويسرق مفاتيح خزانته ويصور وثائقه، وكانت نصيحة «فون بابن» بإيحاء من برلين أن تنتقل الاتصالات إلى طهران. فعيون بريطانيا «مفتوحة أكثر من اللازم» هنا - وأما هناك فإن نشاط الإنجليز مقيد لأن «رضا خان» شاه إيران وقتها يكره الإنجليز ويشك فى نواياهم. ثم إن طهران مكان مناسب أكثر لاتصالات يجريها ملك مصر - لأن صهره (والد «محمد» زوج فوزية - أخت فاروق) يستطيع أن يصون ويحمى.

● وهنا أصبحت طهران مورد ومصدر إشارات حساسة، خصوصا وقد رتب لها الملك «فاروق» وبعث «يوسف ذو الفقار» (باشا) - والد زوجته الملكة «فريدة» - وزيرا مفوضا فى العاصمة الإيرانية.

وكان أشد ما أثار قلق المخابرات البريطانية أن «الألمان» طلبوا معلومات من ملك مصر إثباتا لحسن نيته، وضمنها سؤال عن الخطط البريطانية للدفاع عن دلتا النيل، بما فى ذلك احتمال نسف القناطر الخيرية لإغراق شمال مصر وعرقلة تقدم المدرعات وجرارات المدافع الثقيلة الألمانية وعبورها من الصحراء الغربية إلى قناة السويس.

ولم يكن هذا الطلب بالذات موجودا فى أى «إشارة» لأن «يوسف ذو الفقار» (باشا) انتهز فرصة زيارة أحد أقاربه لطهران (السيد سمير ذو الفقار وقرينته السيدة زينات ذو الفقار)، وسلمه رسالة شفوية أملى عليه نقاطها الرئيسية، وفى طريق عودة هذا «القريب» من طهران إلى القاهرة مرورا بالقدس، تمكنت المخابرات البريطانية من تفتيش أوراقه.

وكانت تلك كلها «قرائن» لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تتجاهلها، وعلق السير «ويليام سترانج» - الوكيل الدائم لوزارة الخارجية على تقرير من طهران بما نصه: «هذه أوضاع لابد أن نتصدى لها بقوة فى القاهرة».



وفجأة طرأت مضاعفات، ذلك أن القوات البريطانية التى تحارب فى الصحراء الغربية (فى أراضى مصر وأراضى ليبيا) - تمكنت من أسر ضابط إيطالى كبير يتولى قيادة فرقة ميكانيكية تقدمت داخل الحدود المصرية، واسمه الجنرال «بيسكا تورى»، وروى رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر الجنرال «ستون» فى تقرير له أنه عندما حكى للملك «فاروق» أن الجنرال «بيسكا تورى» حين وقع فى الأسر، كانت وراءه قافلة سيارات تحمل إحداها أربع جميلات إيطاليات - فإن تعليق ملك مصر لم يزد على اقتراح قاله وهو يضحك: «إن العدل بين مصر (التى تجرى المعارك على أرضها)، وبين القوات البريطانية (التى تقاتل فى هذه المعارك) يفرض تقسيم الغنيمة، «الجنرال لكم - والبنات لنا». ولم يكن الملك مدركا للجانب الأخطر فى أسر الجنرال الإيطالى، ذلك أن تفتيش سيارة «بيسكا تورى» أدى للعثور فيها على وثائق لها حساسية خاصة؛ ضمنها صورة بالنص لخطة بريطانية وضعت للدفاع عن منطقة «سيوة»، والقوس الواصل بينها وبين «طبرق»، وتلك هى النقطة الأضعف فى الدفاعات البريطانية؛ لأنها النقطة التى يمكن منها تطويق الجبهة الشمالية الساحلية، كما أنها النقطة التى يمكن منها الوصول إلى عمق الصعيد المصرى، وفصل الشمال وفيه دلتا النيل عن الجنوب - من أسوان إلى بعيد فى السودان.

وكان وضع هذه الخطة البريطانية قد اقتضى تعاونا مع «وزارة الدفاع الوطنى» المصرية بحكم استعدادات مطلوبة بين سيوة والصعيد يحتاج تنفيذها إلى تعاون السلطات المصرية المختصة. وفى ذلك الوقت كان «على ماهر» (باشا) مازال فى رئاسة الوزارة، ووزير الدفاع الوطنى معه «صالح حرب» (باشا)، ورئيس الأركان «عزيز على المصرى» (باشا)، والإنذار الأحمر بالخطر أن الثلاثة من المصنفين رجالا للقصر الملكى.

وبعد تحقيق فى القضية تولاه الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» - تبين للسلطات البريطانية أن أوراق الخطة التى عثر عليها فى سيارة الجنرال «بيسكا تورى» هى صورة تسلمها وزير الدفاع الوطنى المصرى بيده من القائد العام للقوات البريطانية فى مصر أثناء التنسيق بين الطرفين لتأكيد خطة الدفاع عن قوس سيوة - طبرق. وقد تعهد الوزير «صالح حرب» (باشا) بأن هذه الخطة سوف تحفظ فى خزينته ريثما يتم تنفيذ ما يلزمها من مهام وإجراءات، لكنه تبين من تحقيق الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» أن «صالح حرب» (باشا) - أمر بنسخ مجموعة صور للخطة: نسخة أرسلها إلى رئيس الوزراء (على ماهر)، ونسخة لرئيس الأركان (عزيز المصرى)، ثم إن نسخة رئيس الوزراء (على ماهر) أرسلت صورة منها إلى القصر الملكى لعلم الملك «فاروق» (وكان ذلك طبيعيا - وضروريا).

وكتب الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» تقريره السرى عن نتيجة التحقيق، وأشار إلى أنه لم يستطع التوصل إلى نتيجة قاطعة؛ لأن المسئولين المصريين الذين سألهم عمدوا إلى توجيه الاتهام نحو موظف محفوظات فى وزارة الحربية المصرية (قُبض عليه فعلا)، ثم عادت السلطات المصرية للتلميح باحتمال أن تكون نسخة من الخطة قد سُرقت من جهة بريطانية وصلت إليها الأوراق بحكم اختصاصها.

ولم تكن القيادة البريطانية مستعدة لقبول هذه التفسيرات وسندها اعتباران:

أولهما: أن الخطة عليها تعديل تم بناء على طلب «عزيز المصرى» (باشا)، وذلك التعديل مرصود على الخريطة التى عثر عليها ضمن أوراق الجنرال «بيسكا تورى».

وثانيهما: أن وزير الدفاع الوطنى المصرى «صالح حرب» (باشا) ذكر للجنرال «ميتلاند ويلسون» فى البداية أنه لم يرسل نسخة من الخطة إلى أى جهة خارج وزارته، لكنه عاد بعد ذلك وغير أقواله فإذا النسخ التى جرى توزيعها كثيرة ومتناثرة.

ويلفت النظر خلال التحقيق الذى أجراه الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» أن السؤال المضمر وراء كل علامة استفهام كان: «هل للملك فاروق دور فى الموضوع؟»، وكان أشد ما ضايق السلطات البريطانية فى تطور التحقيق أنه عندما طرح السؤال الحرج على استحياء - أن القصر الملكى رد بطلب إجراء تحقيق قانونى عن «تسرب خطة الدفاع عن سيوة»، عُهد به إلى النائب العام المصرى «عبد الرحمن الطوير» (باشا).

وكان ذلك آخر ما تريده السلطات البريطانية التى هالها أن يكون هناك تحقيق يجريه النائب العام المصرى وتكون تلك أسرع وسيلة لإذاعة أسرارها - (مع ملاحظة أن الخطة الأصلية تم تغييرها قبل نشوب القتال).



وزادت فى تلك الأوقات واقعة أكثر إزعاجا، ذلك أن «عزيز المصرى» (باشا) الذى خرج من منصبه مع إخراج وزارة «على ماهر» (باشا) - قام بمغامرة بالغة الغرابة، ذلك أنه بمساعدة اثنين من الطيارين (منهم حسين ذو الفقار صبرى) خطفوا طائرة عسكرية مصرية، وانطلقوا بها فجرا من مطار الماظة، لكن الطائرة سقطت بعد قليل من إقلاعها، ووجهت إلى الخاطفين الثلاثة تهمة الخيانة. وعندما بدأ التحقيق مع «عزيز المصرى» (باشا) كان دفاعه أنه «قام بما قام به بتكليف من المخابرات البريطانية، حمله إليه ضابط برتبة بريجادير (لا يتذكر اسمه

عندما تشاور الملك «فاروق» مع والدته الملكة «نازلى» فى فكرة الهرب بطائرة عبر البحر إلى إيطاليا أو إلى ليبيا التى اقترحها عليه كبير مهندسى القصر الإيطالى «فيروتشى» قالت له «إنها لا تريد للعائلة المالكة فى مصر أن تفعل ما تفعله أى فلاحة فى الريف. ترفع جلبابها كى تغطى رأسها وهى حين تفعل ذلك تكشف ساقيها.. وربما أكثر



بالكامل) أبلغه ـ وأثبت له ـ أنه مكلف من القيادة العسكرية البريطانية» برسالة مقتضاها أن يطير «عزيز» سرًا إلى بغداد ويقنع رئيس الحكومة الانقلابية التى قامت فيها وهو «رشيد عالى الكيلانى» ـ بأن الأفضل له ولضباطه أن يحتفظوا بولاء العراق التقليدى لبريطانيا، وأن لا يلتفتوا إلى محاولات ألمانية تشدهم ناحية المحور».

وحين نقل رئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا) هذه الرواية من تفاصيل التحقيق مع «عزيز المصرى» إلى السفير البريطانى «مايلز لامبسون»، فقد السفير أعصابه وخبط على المكتب يقول: «إن ذلك كلام لا يصدقه عقل، وأن صاحبه إما مجنون أو أنه يعتقد أن الآخرين مجانين»!

ومرة ثانية تساءل «مايلز لامبسون» موجها كلامه لرئيس الوزراء: «أليس من حقى الشك فى أن هذه القصة الملفقة ستار لآخرين وراءها، وأنكم تحاولون تغطية «شىء ما» بتمويه التحقيق مع «عزيز المصرى»؟!».

ويمكن القول أن شبح الدبابات البريطانية المتجهة لحصار قصر عابدين «وردع الملك فاروق» بدا فى الواقع كرد فعل على رسالة «تأنيب» تلقاها السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» من السير «ألكسندر كادوجان» الوكيل الأول بوزارة الخارجية، وهو القائم على التنسيق بين الدبلوماسية والسياسة، أى بين وزارة الخارجية ورئاسة الوزارة، وفى هذه الرسالة يقول السير «ألكسندر كادوجان» موجها كلامه للسير «مايلز لامبسون» بما نصه: «إننى مندهش أنك مسئول عن مصر من سبع سنوات، ومع ذلك نرى فى مصر ما نراه الآن، وهو ما يعنى أن قبضة بريطانيا غير محكمة فى أمر يتصل بمصالحها الحيوية وأمنها فى الشرق الأوسط ومجهودها الحربى جنوب البحر الأبيض».

ثم يضيف «كادوجان» «إن بعض ما يجرى فى مصر بلغ درجة الخيانة، ومع ذلك فإن حزمنا يبدو رخوا».

ومعنى ذلك أنه حين قدم السير «مايلز لامبسون» إنذاره إلى الملك «فاروق» يوم ٤ فبراير، فإن الرجل ـ إلى جانب أسباب موضوعية ـ كان يدافع عن كرامته وسمعته ومستقبله.

وقد اقتنع «لامبسون» ـ وشاركته لندن ـ أن هذه «الألعاب الملكية» زادت خطورتها، وأن عودة حكومة وفدية إلى السلطة زادت أهميتها كضرورة لضبط الأمور عن طريق «حزب» يمثل «شرعية الأغلبية» فى مصر على الأقل، ويكون جاهزا لحفظ المصالح البريطانية: العسكرية والسياسية.

وكان ذلك هو الطريق البريطانى إلى قصر عابدين مساء يوم ٤ فبراير ـ وبالدبابات! ■

الطريق الملكى إلى ٤ فبراير ـ وبعده

■ كان الملك «فاروق» حين اعتلى عرش مصر سنة ١٩٣٧، صبيا جميلا، مشرقا كالصباح الندى. وبعد غياب الملك «فؤاد» بملامحه العابسة، وشاربه المعقوف، وإصراره العنيد على فرض إرادته فوق الشعب وضد الدستور ـ فإن ابنه ظهر أمام الشعب المصرى شابا مهيأ لملاقاة تغييرات ضرورية جاء وقتها وطال انتظارها.

وبدا الأفق أمام الملك الجديد واسعا غير محدود:

● أولا: لأن العلاقات المصرية البريطانية (وهى مفتاح الاستقرار فى مصر أيامها)، أمكن ترتيبها على نحو معقول بمعاهدة سنة ١٩٣٦، التى وقعها «مصطفى النحاس» (باشا) زعيم الوفد، وممثل الأغلبية وقتها بغير جدال. وبمقتضى هذه المعاهدة فإن القوات العسكرية البريطانية سوف تنسحب من المدن الرئيسية وتبتعد بالذات عن العاصمة!ـ إلى قواعد فى منطقة قناة السويس، وذلك يعطى للبلد «شكل دولة مستقلة».. وكان هناك تصور عام بأن استمرار الوجود الإنجليزى فى العاصمة المصرية إهانة يومية، لأن الثكنات العسكرية البريطانية وعليها ساريات الأعلام العالية قائمة وسط القاهرة فى (ميدان الإسماعيلية (التحرير) وميدان محطة السكك الحديدية) وعلى أطرافها (من ضاحية حلوان إلى العباسية وحتى المرج)، كما أنه فى الإسكندرية كانت قوات الاحتلال البريطانى معسكرات متصلة (من رأس التين إلى مصطفى باشا إلى المعمورة).

ويبدو أن التشوق إلى الاستقلال هيأ لكثيرين أن تخبئة الوجود العسكرى البريطانى فى منطقة القناة تكفى للتظاهر والادعاء بالتحرر.

(وفيما بعد عندما نشبت الحرب العالمية قبل أن يتم إعداد منطقة القناة وطرق المعاهدة إليها، فإن الانسحاب البريطانى فى المدن الكبرى فى مصر تعطل، بل وأصبح الوجود العسكرى الأجنبى أثقل عما كان فى أى وقت).

● وثانيا: لأن علاقة القصر بالسفارة البريطانية (وهى معقل القوة الحقيقية) أصبحت قابلة للاستقرار، لأن بريطانيا بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ أصبحت مستعدة لفتح صفحة جديدة من التعاون انتظارا لجو دولى مضطرب، (أخطر ما فيه أن إيطاليا تحت زعامة «موسولينى» تفتحت شهيتها لحيازة المستعمرات، فقامت بغزو الحبشة الملاصقة للسودان (جنوب مصر)، كما عززت قبضتها على ليبيا (غرب مصر)، وكأنه بعث جديد للإمبراطورية الرومانية، وعلا صوت الدعوة إلى هذا البعث الجديد عندما راح «موسولينى» يتحدث عن «بحرنا» (يقصد البحر الأبيض المتوسط).

ومع أن السياسة البريطانية لعبت باستمرار ـ واستفادت طوال الوقت من التنافس بين قوة الوفد فى الشارع، وقوة القصر فوق الهرم الرسمى للسلطة، فإن السفارة البريطانية لم تكن متلهفة ـ فى الأوضاع الجديدة ـ على لعبة «فرق تَسُدْ» التقليدية، بسبب الصعود السريع لـ: «هتلر» فى أوربا وعلاقته الوثيقة مع الدوتشى (الزعيم الإيطالى) «بنيتو موسولينى» ـ وهو ما جعل هذه اللعبة خطرة فى ظرف مضطرب!

والواقع أن السفارة ذلك الوقت كانت على استعداد لأن تتقبل من القصر أكثر مما تتقبل من الوفد، وتقديرها، (كما هو واضح فى الوثائق) أن الوفد «أدى مهمته» ووقع معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ واختفى. وفى القصر الآن ملك جديد له حصانته الدستورية، فى حين أن الوفد قوة (شعبية!) يمكن إبعادها بسطور يوقعها الملك، الذى يظل قوة (حاضرة) لا يزيحها غير السلاح، إذا كانت بريطانيا على استعداد لاستعماله فى مصر.

ومن ناحية أخرى، فقد بدا أن الميزان فى الشارع يميل لصالح الملك الشاب الذى أسر عواطف شعبه، فيما بدا «النحاس» (باشا) فى مواجهته رجلا ينتمى إلى زمن مضى!

● وثالثا: لأن النخب المثقفة فى مصر تحلقت ملتفة حول القصر، وكانت هذه النخب منذ لحظة طلب الاستقلال الأولى ضمن صفوف الوفد ـ لكنها هاجرت منه موجة بعد موجة إزاء ما اعتبرته ديكتاتورية تهييج تعمدها الوفد لتحويل جماهير الشعب «إلى عبادة فرد بدعوى الوطنية».

فالنخب التى قادها رجال من أمثال «عدلى يكن» و«عبد الخالق ثروت» جرى وصفهم على ألسنة زعماء الوفد بأنهم «برادع الإنجليز». وعندما حاول هؤلاء أن يفاوضوا للحصول على الاستقلال ـ لاحقهم شعار أن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»، وتبعه شعار أنه «لو رشح الوفد حجرا لانتخبناه» ـ ثم بلغت «عبادة الفرد» ذروتها حين انطلق شعار «إن الاحتلال على يد سعد، خير من الاستقلال على يد عدلى». ولم تكن تلك «عبادة الفرد» فقط ـ وإنما كانت حملات تخوين سافرة دخلت إلى الميدان السياسى المصرى، وهنا فإن النخب المثقفة (هكذا رأت وتصرفت) راحت تهاجر من الوفد موجة بعد موجة، ومن هذه الموجات المهاجرة نشأ حزب الأحرار الدستوريين (بقيادة محمد محمود باشا)، ونشأ حزب السعديين (بقيادة أحمد ماهر باشا)، كما ظهرت تجمعات مختلفة من المستقلين الذى آثروا أن يمارسوا السياسة من خارج الالتزام الحزبى.

لكن مشكلة كل هؤلاء الخارجين من الوفد أن سندهم فى الشارع (إزاء شعبية الوفد) كان ضئيلا، وبالتالى فإن اعتمادهم على القصر (أو على الإنجليز أحيانا!) كان كبيرا. وذلك وضعهم بين المطرقة والسندان، والمستجد فى الظروف الطارئة أن هؤلاء جميعا راحوا يتنفسون بارتياح، لأن القصر أصبح بوجود الملك «فاروق» صورة جذابة ومحبوبة، كما أن الإنجليز تحولوا بمعاهدة سنة ١٩٣٦ من «قوة احتلال» إلى «صديق وحليف».

● ورابعا: فقد وجد الملك «فاروق» حول عرشه مجموعة من الرجال الأقوياء، أهمهم فى ذلك الوقت «على ماهر» (باشا) رئيس الديوان الملكى، ثم رئيس الوزراء ـ تحيط به مجموعة من أنصاره بينهم شخصيات لها وزنها فى مصر وخارجها مثل «عزيز المصرى» (باشا)، و«صالح حرب» (باشا)، و«محمد على علوبة» (باشا).



وكان الأزهر بالتقليد ملكيا، وزاد النفوذ الملكى فيه بشخصية رجل على رأسه مثل الشيخ «محمد مصطفى المراغى»، ومعنى ذلك أن المؤسسة الدينية الرسمية، وهى فى تلك الأيام صاحبة مرجعية رفيعة فى العالم الإسلامى ـ أعطت للملك شهادة «صلاح» استحقها فيما بدا من ذهابه إلى صلاة الجمعة كل أسبوع مؤديا فرضه وراء الإمام الأكبر العتيد.

وفى نفس الوقت فإن الرجل الأهم فى المؤسسة العلمية المصرية كان رجلا نادرا فى قيمته الثقافية، حتى لقد اعتبر المعلم الأول فى مصر وهو «لطفى السيد» (باشا)، وكان «لطفى السيد» واحدا من قادة النخب المهاجرة من الوفد، لكن قيمة الرجل علميا تجاوزت به نطاق الحزبية (مع الأحرار الدستوريين)، ووضعته على رأس الجامعة، وعلى المقدمة من تيار تنويرى متميز.

ومعنى ذلك أنه كان على القمة فى علوم الدين والدنيا فى ذلك الوقت من مطلع عصر



الملك «فاروق»، رجلان أحدهما وهو الشيخ «المراغى» نافذ على القصر، والثانى وهو «لطفى السيد» نافر من الوفد.

على أنه برغم الآفاق المفتوحة ـ فإن الفتنة كانت على وشك أن تتحرك، ولم تكن تلك خطيئة أحد، وإنما حكم حقائق تبحث لنفسها عن صيغة مختلفة فى واقع متغير ـ أو يبدو متغيرا.



كانت مصر ـ كعادتها ـ فى كل «لحظة وعد» ـ تبحث عن نفسها وهويتها ومستقبلها.

● فى لحظة حلم سابقة كان «محمد على» قد أخذ مصر إلى الشام (ضمن مشروع عثمانى يجدد شباب الخلافة فى استنبول بواحد من رجالها جاء مأمورا منها إلى مصر، وهو الآن يريد العودة إليها آمرا ووراءه مصر) ـ وضاعت «لحظة الوعد» بالنسبة لمحمد على، لأن الحلم كان أكبر من طاقة مصر التى اعتمد عليها طموحه.

● وفى لحظة خيال لاحقة كان إسماعيل (حفيد محمد على) قد أخذ مصر إلى أوربا معتبرا أنها قطعة طارت منها عبر البحر ـ لكن «أوربة مصر» كانت وهما مستحيلا بسبب الحقائق الجغرافية والتاريخية، ولم يكن كافيا للتغطية على هذه الحقائق استقدام مهندس فرنسى مثل «هوسمان» يفتح شارعا وسط القاهرة مثل شارع «محمد على» يكون بناؤه على طراز شارع «ريفولى» فى باريس ـ أو أن تقوم فى قلب العاصمة المصرية دار للأوبرا يفتتحها موسيقار إيطالى مثل «فيردى» بأوبرا كتبها خصيصا لحفل الافتتاح مثل أوبرا عايدة!

● وكان الملك «فؤاد» (ابن إسماعيل) قد شهد لحظة «وعد ثالثة» بعد الحرب العالمية الأولى ـ والداعى أن الحرب العالمية الأولى انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية فى استنبول، ودفعت إلى خيال الملك «فؤاد» بحلمين لبسا بعضهما: شعبه يطلب الاستقلال، وهو (الملك) يطمح للخلافة (وظنه أنه أجدر بها من رجلين غيره خرجا إلى طلب إرثها هما: «الشريف حسين» أمير مكة، والسلطان «عبدالعزيز آل سعود» أمير نجد).

لكن «لحظة الوعد» فى أحلام «فؤاد» ضاعت بدورها لأن قيادة الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال كانت أقرب إلى «باريس» منها إلى «استنبول»، كما أن الجيش الذى اعتمد عليه حلم «محمد على» لبلوغ قصور البوسفور ـ لم يكن جاهزا ليحمل حلم حفيده مترا واحدا وراء سيناء!

والآن ومع شباب ملك ويقظة شعب يبحث عن نفسه وهويته ومستقبله ـ عاد طيف الخلافة يطرح نفسه أمام مجموعة الرجال الأقوياء المحيطين بالقصر وهم الأقدر على الرؤية الأبعد والأوسع.

وكانت البدايات مبهمة تحس بالضرورة التاريخية ولا تجد طرحا سياسيا يعبر عنها.

● فالشيخ «محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر اقترح أن يكون تتويج الملك الشاب ببيعة إسلامية فى الأزهر.

لكن «مصطفى النحاس» (باشا) رئيس الوزراء رفض وأصر على الرفض (وله كامل الحق)، لأن بيعة ملك فى الأزهر تأخذ الدولة من الحاضر إلى الماضى، كما أنها تهدر فكرة الدستور والقانون، بادعاء يضفى على الملك سلطة أنه ظل الله على الأرض (وذلك خطأ وخطر!).

● و«على ماهر» (باشا) راح فى نفس الاتجاه ولكن على طريقة عائلة «هابسبورج» المالكة فى «فيينا» (والتى قيل أنها وسعت رقعة ملكها داخل غرف نوم الأمراء والأميرات ـ أى بالمصاهرة ـ بأكثر مما وسعت هذه الرقعة بفتوح جيوشها فى ساحات الحرب). وكذلك سعى «على ماهر» (باشا) إلى مصاهرة ملكية بين أقوى بلدين فى الشرق: مصر وإيران، وكان أن خُطبت الأميرة «فوزية» أخت «فاروق» إلى «محمد رضا بهلوى» ابن رضا خان شاه إيران.

وكانت تلك محاولات تأخذ السياسة المصرية بأسلوبين مختلفين ـ إلى ذات الاتجاه:

ـ «على ماهر» يأخذ السياسة المصرية «بالزواج» ـ إلى الشرق (عبر سيناء).

ـ و«مصطفى المراغى» يأخذ السياسة المصرية «بالبيعة» ـ إلى الشرق (ديار الإسلام).

والشاهد أن تلك كانت أشواقا مبكرة تعبر عن دواع تشد مصر خارج حدودها نحو محيطها الإنسانى والثقافى والأمنى. وفى حين أن تلك الأشواق المبكرة لم تكن محددة، فإن الدواعى المحركة لها كانت حقيقية!

ولم يكن الإنجليز سعداء بمسألة الخلافة، سواء كان التعبير عنها بتتويج ملكى إسلامى فى الأزهر، أو بأميرة مصرية على عرش الطاووس فى طهران.

وكذلك لم يكن «النحاس» (باشا) سعيدا بها، لكن أمر «النحاس» (باشا) فى تلك الفترة كان مما يمكن مواجهته، وبالفعل فإن الملك «فاروق» لم يلبث أن أقال وزارته (آخر ديسمبر ١٩٣٧)، بناء على نصيحة رئيس ديوانه «على ماهر» (باشا)، وبرغم نصيحة أمه الملكة «نازلى» وهى أيامها صاحبة تأثير طاغ عليه (كما قالت لى بنفسها، وكررت أنها حذرت ابنها من «تقليد أبيه» فى عداء الوفد، لأن ذلك سوف يضعه عاجلا أو آجلا ضد شعور الناس!).

على أن الإنجليز وجدوا وسيلة أخرى لمقاومة فكرة الخلافة، وذلك بأن تظهر المعارضة للفكرة من داخل أسرة «محمد على» ذاتها!

وتحفل الوثائق البريطانية فى تلك الفترة بمسألة الخلافة، وعلى سبيل المثال فإن الوثيقة (رقم ٤٥٩ ـ ملف ٥٨ /٦ /٣٣٨) وهى تقرير من السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزير الخارجية البريطانى ـ يقول متوجها بالخطاب إلى اللورد «هاليفاكس» وزير الخارجية:

«سيدى اللورد

بالإشارة إلى رسالة فخامتكم بشأن مسألة الخلافة أتشرف بأن أضع أمامكم هذه النقط:

ـ لا ننصح بتوجيه «لفت نظر» إلى الحكومة المصرية فى شأن هذا الموضوع.

ـ لا نحتاج إلى تأكيد صعوبة تحقيق هذا الحلم الذى يراود الملك «فاروق» والمحيطين به.

ـ سوف تقوم فى العالم الإسلامى ومن أطراف متعددة ـ معارضة للمطلب المصرى والأفضل لنا أن ننتظر.

ـ فى هذه المرحلة يمكن تنبيه بغداد وجدة واستنبول إلى الأصوات الداعية للخلافة فى القاهرة».

....

....

ولم تمض أيام حتى كان السفير البريطانى فى القاهرة ينبه لندن إلى حديث مهم أدلى به الأمير «محمد على» وهو أكبر أمراء أسرة «محمد على» سنا ـ وكان رئيسا لمجلس الوصاية على الملك «فاروق» قبل بلوغه سن الرشد ـ ثم أصبح وليا للعهد بالأمر الواقع (وبمرسوم ملكى فيما بعد).

وفى هذا الحديث أبدى الأمير «محمد على» رأيا صريحا فى موضوع الخلافة ضمن حديث مع مراسل الأهرام فى لندن، قال فيه:

«إن خلافة المسلمين عبء ضخم لا تستطيع مصر تحمله، فتلك مسئولية تكلفها ما لا تطيق، ذلك أن دولة الخلافة لابد أن تكون قادرة وجاهزة للدفاع عن ديار الإسلام على اتساع العالم الإسلامى من الصين إلى المغرب. وذلك يتخطى طاقة مصر ومواردها، ويفوق قدرتها على تحمل المسئولية. وفى نفس الوقت فإن قعودها عن هذه المسئولية ـ بمحدودية طاقتها ومواردها ـ يسىء إلى فكرة الخلافة ويسىء إلى مصر فى ظرف يحتاج فيه البلد إلى كل طاقته وموارده لحل مشكلاته الكبيرة والمتراكمة».

وفى كل الأحوال فإن مسألة الخلافة لم تلبث أن توارت لأن الحرب العالمية الثانية دهمت الجميع!



كان الملك «فاروق» «وطنيا مصريا» لا شك فى ذلك، وحتى عندما غرق ـ لاحقا ـ فى مستنقع من الفساد زاد وفاض على ما حوله ـ فإن «وطنية الملك» ـ على عكس معظم حاشيته ـ ظلت سليمة فى تعبيرها عن نفسها حتى بتلقائية العاطفة.

وطبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) ـ فإن الملك «فاروق» كان مهتما بأكثر مما يتصور الناس بمتابعة تطورات الحرب، وقد وضع فى مكتبه خريطة كبيرة لأوربا وراح يدرس معاركها ومواقعها بمساعدة قائد الحرس الملكى «عمر فتحى» (باشا)، وقد بهره سقوط بولندا السريع، وافتتن بقادة الجيش الألمانى إلى درجة أنه كان يحفظ أسماءهم، ويراقب التحركات على جبهاتهم يوما بعد يوم، وفى اهتمام الملك بشئون الحرب فإنه قدر فى عز حماسته أن النصر فيها من نصيب الألمان، وقد تضايق الجنرال «ستون» رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر: لأن «فاروق» امتدح أمامه سرعة حركة الجنرال «فون بيك» الذى قاد المدرعات الألمانية فى عملية بولندا. وسجل الجنرال «ستون» فى أوراقه «أنه نصح الملك بالتروى فى أحكامه لأن الحرب مازالت فى مشاهدها الأولى، وأن إعجابه بأداء «فون بيك» سابق لأوانه، لأن نتيجة الحرب لن تتقرر على مستوى العمليات فى ميدان قتال بالذات، وإنما تتقرر على مستوى الحرب واستراتيجياتها الكبرى» ـ وأضاف الجنرال «ستون» أن «ملك مصر» يعتبر نفسه خبيرا عسكريا لأنه قضى أقل من عامين فى مدرسة عسكرية بريطانية (وولويتش) لم يتعلم فيها شيئا ـ وتكرر سقوطه حتى تقرر فصله، ثم سُمح له ـ مراعاة لمكانته ـ أن يحضر الدروس مستمعا مرتين فى الأسبوع فترة بعد الظهر، والحاصل أن إعجاب «فاروق» بالقادة العسكريين الألمان ساقه إلى توقع انتصار جيوشهم، وبالنسبة لملك مصر فقد كانت تلك مقدمة ترتب بعدها عليه مسئوليات إزاء عرشه وتجاه بلده!

ويقول «حسن يوسف» (باشا) أنه لم ير فى أوراق القصر

كان الملك «فاروق» «وطنيا مصريا» لا شك فى ذلك، وحتى عندما غرق ـ لاحقا ـ فى مستنقع الفساد زاد وفاض على ما حوله ـ فإن «وطنية الملك» ـ على عكس معظم حاشيته ـ ظلت سليمة فى تعبيرها عن نفسها حتى بتلقائية العاطفة



ولم يسمع من الملك ما يؤكد وجود اتصالات بينه وبين الزعماء الألمان أو الطليان ـ لكنه سمع أن «فاروق» ألمح أكثر من مرة بأننا «لابد أن نشوف مستقبلنا» ـ ومع ذلك فإن الوثائق الألمانية التى قدمها مدير المخابرات الألمانى الجنرال «كاناريس» إلى قيادة الحلفاء عندما اتصل بهم ولجأ إليهم أواخر الحرب ـ كان فيها ما يشير إلى اتصالات قام بها الملك عن طريق «كونت برتغالى له مصالح فى البرازيل»، وكانت الإشارات إليه فى الأوراق بوصف «البرتغالى» دون زيادة فى التفصيل، وفى هذه الإشارات وردت تفاصيل عن اتصالات قام بها «مندوبون عن ملك مصر» فى أنقرة وفى طهران وفى جنيف، والواضح فى الإشارات أن الملك كان لديه ما يريد توصيله إلى الألمان بالذات وفيه:

- أن حكومته الحالية تتعاون مع الإنجليز ـ فى حدود الأمر الواقع المتمثل فى توقيع مصر على معاهدة سنة ١٩٣٦، وهى لا تملك خيارا آخر مع وجود قوات بريطانية كبيرة على الأرض المصرية.
- أن الملك يأمل أن تقدر القيادة الألمانية أن مصر ليست طرفا فى هذه الحرب حتى مع كون أراضيها وتسهيلاتها مسخرة للجهد الحربى البريطانى ـ ومع أنه شخصيا لا يحب ذلك إلا أنه مضطر إليه.
- وأن حكومته عندما أقرت سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، كانت فى الواقع تقصد نوعا من إعلان حياد مصر، لتأسيس حقها فى الاستقلال عندما تنتهى الحرب (بانتصار المحور).

وفى الأسابيع الأخيرة من سنة ١٩٤١، بدأ القصر يحس أن هناك تغييرا فى توجهات السياسة البريطانية فى مصر، ويتضح أنه كان هناك سببان رئيسيان قادا إلى ذلك التغيير:

السبب الأول: أن السياسة البريطانية أصبحت واثقة من النتيجة النهائية للحرب بعد أن تورط «هتلر» فى غزو الاتحاد السوفيتى و«غرز» فى ثلوج الشتاء الروسى المخيف (كما حدث لـ «نابليون» قبل «هتلر») ـ وزاد أن الولايات المتحدة دخلت الحرب (بعد الهجوم اليابانى على قواعدها البحرية فى بيرل هاربور) ـ ومعنى ذلك أن النتيجة النهائية للحرب لم تعد موضع شك بسبب تحول واضح فى موازين القوى بين المتحاربين، ومفهوم ذلك أن الحكومة البريطانية تصبح قادرة وواثقة من تحمل تبعات تغيير كبير فى القاهرة.

والسبب الثانى: أن الفيلق الألمانى الذى عبر البحر إلى مصر تحت قيادة «روميل» سوف يحاول شن هجوم حاسم وأخير على مصر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فى الشرق، ومع أن ذلك فى التقدير البريطانى لن يغير شيئا فى النتيجة النهائية للحرب ـ فإن أهمية قناة السويس تفرض على بريطانيا خوض معركة مصر بكل طاقتها ـ وأن لا تفرط فى القناة ومنشآتها حتى لو كانت متأكدة من استردادها فى يوم قادم على مسار الحرب!

وإذا كان ذلك ـ فإن تأديب الملك «فاروق» ممكن ومطلوب، سواء بإزاحته بعيدا عن العرش ـ أو تركه مكانه بعد تكسير أجنحته وتحويله شبه أسير فى قصره.

ويروى «حسن يوسف» (باشا) أن الملك «فاروق» استشعر بعد تورط الألمان فى روسيا، وبناء على إلحاح من رئيس الديوان «أحمد محمد حسنين» (باشا)، أن الانتصار الألمانى فى الحرب لم يعد مضمونا كما كان، وأن الأسلم والأفضل له إعادة حساباته، لأن الإنجليز فى حالة الضرورة سوف يعترضون طريقه، ويفرضون عليه ما لا يريد، والأسلم أن يسبقهم ويحصن موقفه إزاءهم بحكومة أغلبية وفدية يرأسها «مصطفى النحاس» (باشا). كذلك أضافت الملكة «نازلى» على طريقتها نصيحة إلى ابنها مؤداها ـ طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) ـ أن «الإنجليز أولاد ....» وسوف «يوقعون الدنيا فى بعضها»، ويفوزون فى النهاية، والأحسن تصليح العلاقة معهم».

وسواء كان الملك «فاروق» أقنعه ما أبداه رئيس ديوانه أو ما علقت به والدته، أو أنه أدرك بحسه أن مسار الحرب يتذبذب ـ على الأقل ـ فإنه وافق على إيفاد «عبد الوهاب طلعت» (باشا) وكيل الديوان الملكى وقتها إلى مقابلة سرية مع «النحاس» (باشا) الذى كان يقيم مع أسرته فى الريف بعيدا عن الغارات الجوية التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية من الطيران الألمانى والإيطالى. وكانت تعليمات «فاروق» إلى «عبد الوهاب طلعت» (باشا) قبل ذهابه لمقابلة «النحاس» (باشا) فى «كفر عشما» قرب سمنود ـ مختصرة فى عبارة «شوف عنده إيه؟!».



ويروى «حسن يوسف» (باشا) أن «أحمد حسنين» (باشا) كان لديه مشروع لتشكيل وزارة ائتلافية تحت رئاسة «النحاس» (باشا)، وكان متأكدا أن فى وسعه إقناع الملك «فاروق» بالمشروع على أساس أن أفضل وضع لمواجهة احتمال غزو (لن تتغير به نتيجة الحرب على الأرجح، لكنه سوف يكلف مصر غاليا) ـ أن يكون «البلد متماسكا». وكانت أقوى الحجج التى توصل بها «حسنين» (باشا) إلى إقناع الملك هى أنه «لو دخل الألمان والطليان، فإن الجيش الإنجليزى سوف يحمل ملك مصر معه قبل أن يرحل باعتباره ممثل الشرعية المصرية (كما حدث لملوك آخرين فى أوروبا مثل ملوك النرويج والدانمارك وهولندا) ـ ثم إنه إذا بقى الملك وحده فى البلد مع دخول الألمان والطليان، فقد يصبح رهينة فى أيديهم فى حرب لم تحسم نتائجها بعد ـ ولذلك فالحل الأمثل الآن أن تكون هناك حكومة يرأسها «النحاس» (باشا) ممثلا للأغلبية، ومعه كل زعماء أحزاب الأقلية، وتكون هذه الوزارة هى التى تتصدى للعواصف القوية القادمة».

ويروى «حسن يوسف» (باشا) «أن القصر كان يعرف أن السفارة البريطانية تجرى اتصالات مع «النحاس» (باشا) عن طريق «أمين عثمان» (باشا) (وكان من قبل وكيلا لوزارة المالية ثم سكرتيرا عاما للوفد المصرى فى مفاوضات سنة ١٩٣٦، وقد ظل مقربا من السياسة البريطانية، وزائرا دائما لقصر الدوبارة، وصديقا حميما للسير «مايلز لامبسون») ـ لكن الملك «فاروق» لم يكن يخطر له أن «أمين عثمان» (باشا) يمكن أن «يسبقه»، وإذا سبق فإن «النحاس» (باشا) لن يخاطر بسمعته السياسية بصفقة مع الإنجليز، وإذا قبل «النحاس» (باشا) فإن الإنجليز لابد أن يقنعوه هو (الملك) أولا بالتغيير، وإذا حاولوا الضغط عليه فهو يملك وضع شروطه».

وفجأة والملك منشغل فى أزمة صغيرة مع وزارة «حسين سرى» (باشا) بسبب تردد «صليب سامى» (باشا) وزير الخارجية إزاء طلب بريطانى بإبعاد الوزير المفوض الفرنسى المسيو «بوتزى»، واتجاه الوزير إلى قبول ذلك على عكس رغبة ظاهرة من الملك ـ قدم رئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا) استقالة وزارته كلها بدلا من إقالة وزير خارجيته بأمر من القصر.

وفى ظرف ساعات هبت العاصفة: الإنذار البريطانى ـ وحصار القصر بدبابات الاحتلال ـ واقتحام السير «مايلز لامبسون» لمكتب الملك يفرض عليه الخيار المر: التنازل عن العرش أو الاستسلام لمشيئة الاحتلال، وكان أن استسلم ملك مصر ودعا «النحاس» (باشا) لتأليف الوزارة.



ويروى «حسن يوسف» (باشا): أن حادث ٤ فبراير كان نقطة تحول فى حياة «فاروق» وفى شخصيته، وكان التحول على خطوات تلاحقت متسارعة:

ـ فاجأه الإنذار البريطانى وأهانته الطريقة التى تصرف بها السير «مايلز لامبسون».

ـ وأدهشه قبول «النحاس» (باشا) لرئاسة الوزارة من يد الاحتلال وعلى «أسنة» حرابه، كما سمع من «أحمد ماهر» (باشا).

ـ وأصابه الذهول لأن مظاهرات شعبية استقبلت تكليف «النحاس» (باشا) بالوزارة بفرحة غامرة.

ـ ثم كانت فجيعته الكبرى حين رأى صور هذه المظاهرات ـ التى أحاطت بمقر مجلس الوزراء مرحبة بدخول «النحاس» (باشا)، تحمل أول زائر جاء لتهنئته وهو السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» على الأعناق ـ مصفقة ومهللة.

ولم يقتنع الملك بما سمعه من رئيس ديوانه من أن جماهير الشعب لم تعرف بما جرى ليلة ٤ فبراير، لأن الرقابة (الإنجليزية) حجبت وقائعه، وبالتالى فإن الوسيلة الوحيدة المتاحة هى الروايات التى تتناقلها الشفاه، وذلك سوف يستغرق وقتا.

ولكن الملك رد على رئيس ديوانه بقوله «ولا وقت ولا زفت». ولم تكن لديه أعصاب رئيس ديوانه الذى طلب نسخة من رواية «مصرع كليوباترا» وراح يتلو منها وصف «أحمد شوقى» لدخول ملكة مصر البطلمية مع عشيقها «مارك أنطونى» إلى الإسكندرية مدعين نصرا على أسطول «أوكتافيوس» ـ وحيث تجرى أبيات شوقى بالنص:

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافا بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من ببغاء عقله فى أذنيه!

وكان «حسنين» (باشا) يحاول تعزية نفسه وتغطية ما اعتبره فشلا ذريعا كرئيس للديوان الملكى.

لكن الملك «فاروق» لم يجد عزاءً يواسيه ـ وطبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا)، فإن «فاروق» يومها كان رجلا فقد الثقة فى كل شىء، وفى كل الناس، وأولهم رئيس ديوانه

أصاب «فاروق» الذهول لأن مظاهرات شعبية استقبلت تكليف «النحاس» (باشا) بالوزارة بفرحة غامرة، ولكن فجيعته الكبرى كانت حين رأى صورة هذه المظاهرات التى أحاطت بمقر مجلس الوزراء مرحبة بدخول «النحاس» (باشا)، تحمل أول زائر جاء لتهنئته وهو السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» على الأعناق ـ مصفقة ومهللة!



الذى أقسم له «بشرفه» أنه سوف ينتقم من كل مشارك فيما حصل تلك الليلة الليلاء.



ومع ذلك فإن الملك الذى قد فقد ثقته فى رئيس ديوانه، ظل متمسكا به فى علاقة بين الاثنين شديدة الالتباس.

فقد كان فى قلب «فاروق» سر دفين يتعلق بأمه الملكة «نازلى»، وبرئيس ديوانه «أحمد حسنين» (باشا)، ذلك أن الملك لاحظ أثناء إجازة قام بها مع والدته وأخواته فى «سان موريتز» (سويسرا) قبل جلوسه على العرش رسميا أن علاقة قرب زائد تربط والدته بالأمين الأول وقتها فى بلاطه (وكان حسنين من قبل مرشدا له ومعلما بقرار من والده الملك «فؤاد») - وظن «فاروق» فى البداية أو أحب أن يظن أن «تعامل» والدته بهذا «اللطف» مع أمينه الأول مرجعه ضرورات الرحلة وأجواء السفر، لكنه عندما عاد إلى القاهرة بدا له أن القرب بين الاثنين متواصل ويزداد حتى جاء يوم أوائل سنة ١٩٤١، تصادف فيه وقوع غارة جوية على مدينة القاهرة ليلا، وأراد الملك أن يطمئن أن والدته لم تنزعج بأصوات المدافع المضادة للطائرات. ثم اكتشف أنها ليست فى مقرها الرسمى الذى اتخذته لنفسها وهو قصر والدها «عبد الرحيم صبرى» (باشا) فى الدقى، وسأل عنها فى كل مكان ولم يعثر لها على أثر. وحين ظهرت الملكة «نازلى» بعد منتصف الليل فى بيتها وعرفت بمحاولات ابنها للعثور عليها ذهبت إليه قبل الفجر، وكان بينها وبينه مشهد رواه الملك بنفسه فيما بعد.

«دخلت الأم إلى الجناح الخاص بابنها والدموع فى عينيها وفوجئ «فاروق» بها تنزل راكعة تحت قدميه تعترف له، ومؤدى اعترافها أنها أحبت «أحمد حسنين» وأنه أول رجل دخل حياتها وهى تريد من ابنها أن يسامحها بفهمه، وهو أول من يعرف أن علاقتها بأبيه لم تكن مرضية لاله ولالها (وأفاضت فى الشكوى)، ثم أقسمت أنه لولا «فاروق» وحرصها عليه لكانت تجرأت على طلب الطلاق رغم يقينها أن الملك «فؤاد» لن يمنحها هذه الفرصة - أو لأقدمت على الانتحار، ولكن الأم كتمت أحزانها فى قلبها وعاشت من أجل ابنها. ثم راحت الأم تروى لابنها ما أصابها فى القصر من ذل بسبب جبروت الملك «فؤاد»، وضمن ما روته أنها ذهبت إلى عيادة الأسنان فى القصر وفيها طبيب ألمانى اسمه «شفارتز»، وأن الطبيب بعد أن نظر فى فمها، اكتشف اهتراء لثتها، وقال لها إن تلك «لابد أن تكون عدوى» من «صاحب الجلالة» لأنه مصاب «بالبيوريا» (ولم تكن المضادات الحيوية قد ظهرت بعد لعلاجه)، ورغم علم الملك «فؤاد» بما أصابها، فقد تأكد لها من تصرفه أنه يتعمد نقل مرضه إليها، وحدث حين ترددت أمامه مرة، أن أمر بحبسها فى غرفة نومها أسبوعا كاملا عقابا لها أن تأففت من طلب له، وكانت كبيرة «كلفاوات» القصر هى المشرفة على إذلال ملكة مصر، وهى التى تولت حبسها فى غرفتها، وكانت كبيرة الكلفوات - قبل ذلك وبعده - هى المسئولة عن ترتيبات السهرات الخاصة للملك «فؤاد». ثم قالت الملكة الأم وهى فى «حالة صعبة» أنها «لم تفعل شيئا فى الحرام» وما فعلته أنها تزوجت من «أحمد حسنين» على سنة الله ورسوله، حفاظا على شرف ابنها، واحتفظت بالزواج سرا حتى تنتهز فرصة مناسبة وتحكى له، وانتهت الملكة بأن قالت لابنها، أنها اعترفت بكل الحقيقة متوسلة إليه أن لا يؤذى «أحمد حسنين» بسببها، وهى تقسم له أن «أحمد حسنين» مخلص له ولعرشه، وأنه تردد فى قبول الزواج ولكنها تعهدت له بأنها واثقة أن ابنها - وهو الأقرب إليها من كل الناس - سوف يفهمها ويسامحها، وهى الآن أمامه راكعة على ركبتيها وإذا عفا عنها وعن «حسنين» بقيت عمرها تحت قدميه، وإذا أبى العفو فإنها سوف تشعل النار فى نفسها وتنهى حياتها مثل أى بنت بلد «وقعت فى الغلط». وفيما بعد وعقب وفاة «أحمد حسنين» (باشا) فى حادثة سيارة على كوبرى قصر النيل سنة ١٩٤٦ - هرع الملك إلى بيت «حسنين» فى الدقى، يسبق كل الناس ليأخذ من غرفة نومه أى ورقة تكشف عن علاقته بالملكة الوالدة. وترامت وقتها إشاعات بأن الملك أخذ بعض المقتنيات الذهبية والماسية (بالذات الأوسمة مما كان فى بيت أحمد حسنين)، ولم يكن ذلك منصفا.

وكان السبب الذى دعا الملك إلى البوح: رغبته أن يعمل «حسن يوسف» بكل جهده على اكتشاف أى ورقة فى أى سجل رسمى أو غير رسمى تشير إلى العلاقة بين مرشده ووالدته، واعترف الملك يومها بحزن أنه «كثيرا ما دعا «إن شاء الله حسنين يموت»، ومع ذلك فهو الآن حزين عليه»!

....

....

[وكانت تلك الواقعة بالذات من الوقائع التى تردد «حسن يوسف» (باشا) طويلا فى روايتها، ولم يقنعه فى النهاية إلا أن الخطوط الرئيسية للوقائع نشرت مشوهة فى كتابات عدد من رجال الحاشية السابقين فى القصر (كريم ثابت)، أو بعض الصحفيين المتصلين بالحاشية (مصطفى أمين)].

....

....

كان ذلك طريق الملك فاروق إلى ٤ فبراير ١٩٤٢، فى اتجاه ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكانت تلك أحواله حينما وقفت دبابات الجيش أمام قصر عابدين كتلا من الحديد فى ظلمات الليل.

٤ - الطريق الوفدى إلى ٤ فبراير - وبعده

كانت نهاية الثلاثينات فترة اختبار قاس لحزب الوفد وزعيمه «مصطفى النحاس» (باشا).

كان الحزب بلا جدال هو ممثل الأغلبية الوطنية فى مصر، وموضع الثقة بالنسبة لجماهير شعبها فى تلك الفترة، وكان زعيمه رمزا للمقاومة المصرية فى مواجهة الاحتلال البريطانى، وفى مواجهة التجاوز الملكى للدستور، سواء بنزعات الاستبداد لدى الملك «فؤاد»، أو بمناورات القصر، وقد راحت تكرر نفسها فى عهد ابنه الصبى الملك «فاروق».

ومع أن وزارات الوفد لم تكن تجئ إلى الحكم إلا بإشارات بريطانية، فإن «النحاس» (باشا) لم يكن يعتبر تلك منحة من دولة الاحتلال بقدر ما هى احتياج إلى شرعية الوفد، خصوصا زمن الأزمات.

وعندما وضع «النحاس» (باشا) توقيعه على معاهدة سنة ١٩٣٦، كان يدرك أنها استقلال منقوص، لكنه يتفهم أن دولة الاحتلال لن تعطيه أكثر فى ذلك الوقت، بينما نذر الحرب العالمية تظهر فى أوربا (ومقدماتها قيام إيطاليا بغزو الحبشة واحتلالها سنة ١٩٣٥)، ثم ما تبع ذلك من تركيز الوجود الإيطالى أكثر فى البحر الأبيض بتعزيز مواقعه فى ليبيا.

ومع أن «مصطفى النحاس» (باشا) تعرض لنقد شديد عند توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ (حتى من بعض أنصاره وبينهم رئيس مجلس النواب الوفدى وقتها «أحمد ماهر» (باشا))، فقد كان يقين «النحاس» (باشا) (وهو سليم) أن المعاهدة التى وقع عليها هى الممكن المتاح فى زمانها، خصوصا عندما دعمها فى العام التالى، بمعاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية خلال مؤتمر عُقد لذلك الغرض (١٩٣٧) فى مونترو (سويسرا).

والحاصل أن «النحاس» (باشا) كان مرتاح الضمير - ومطمئنا. وكذلك فإن إقالة وزارته بعد أسابيع من عودته الظافرة من مؤتمر مونترو - ديسمبر ١٩٣٧ - نزلت صدمة ثقيلة عليه.

كان الرجل يتصور:

● أنه وقد وقع معاهدة ١٩٣٦ - سوف يبقى مسئولا عن تنفيذها. وإذا كانت مخاطر حرب عالمية - محتملة - قد فرضت توقيع المعاهدة - فإن هذه المخاطر ذاتها تفرض وجودها على رئاسة الوزارة لضمان سلامة التنفيذ.

● وكان أمله كبيرا أن الملك «فاروق» سوف يتجنب أخطاء والده الملك «فؤاد» ويتصالح مع الدستور - رغم شكوك «النحاس» (باشا) فى بعض رجال القصر، وأولهم «على ماهر» (باشا).

● وكان ظن «النحاس» (باشا) أنه حتى إذا راح «على ماهر» (باشا) وأصحابه «يلعبون» (على حد تعبيره) - فإن الإنجليز لن يسمحوا باللعب؛ لأن خطر الحرب الذى جعلهم يحرصون على معاهدة مع مصر يوقعها الوفد، هو نفسه مقتضى بقاء الطرف الذى وقع عليها، باعتباره الأقدر.

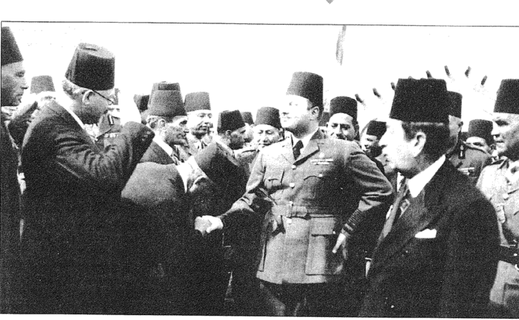
● وكان ما ضايق «النحاس» (باشا) أكثر من أى حساب، صدمته فى لهجة خطاب الإقالة الذى وجهه إليه الملك «فاروق»، وجاء إهانة سياسية وشخصية أصابته على غير استعداد، وفى لحظة إنسانية وعاطفية غير مناسبة.



وهنا تطور ضرورى لتواصل وتكامل الصورة الإنسانية لوقائع التاريخ المصرى الحديث.

والحاصل أن «مصطفى النحاس» (باشا) ولد سنة ١٨٧٩ - وتزوج سنة ١٩٣٥، أى أنه لست وخمسين سنة من عمره ظل أعزب. ومع أنه أحب بلده وبادله البلد شعوره - إلا أن الحب له أوجه أخرى معترف بها حتى فى مقام النبوة؛ لأن البشر يظلون بشرا، والزعيم ليس راهبا، وإذا لم يتزوج بحكم ظروف حياته، فإن هذه الحياة تفرض طبيعتها - ولعلها ضرورتها.

وكذلك كانت للنحاس (باشا) حياة خاصة حرص على صيانتها، لكنه تعرض سنة ١٩٣٢ لواقعة أخرجت حياته الخاصة رغما عنه من الصون الذى حرص



الملك فاروق والحاشية وكبار رجال الحكم

عليه. ففي تلك السنة التقى «النحاس» (باشا) بصحفية إيطالية يظهر أنها كانت على شيء من الجمال اسمها «فيرا» (ولم أجد في السجلات اسمها كاملا). وطبقا للروايات (وهي موثقة) - أن لقاءات «النحاس» (باشا) بالصحفية الإيطالية تكررت، وفي بعض الشهادات أن «فيرا» كانت مدسوسة على «النحاس» (باشا) بتدبير من «إسماعيل صدقي» (باشا) رئيس الوزراء في ذلك الوقت، وكان قصده الإيقاع بزعيم الوفد - بموافقة من الملك «فؤاد»، والوسيلة كشف المقابلات المتكررة بين زعيم الوفد وبين الصحفية الإيطالية.

وكان «النحاس» (باشا) يقابل «فيرا» في عوامة على النيل عند شاطئ العجوزة المقابل لنادي الجزيرة، ورتب «صدقي» (باشا) لمداهمة يقوم بها البوليس للعوامة ومفاجأة من فيها بما لا يتوقعون.

وكان ذلك بعد ظهر يوم أحد، وتصادف وجود «أحمد ماهر» (باشا) في سباق الخيل في نادي الجزيرة، وحدث أنه تقابل مع «أحمد عبود» (باشا)، وإذا هو يفهم منه أن رئيس الوفد على وشك أن يقع في الفخ. وأدرك «أحمد ماهر» خطورة الموقف وهرع مسرعا إلى موقع العوامة، وكان يعرفه، واقتحم طريقه إلى داخلها، والنتيجة أنه عندما وصل البوليس كان رئيس الوفد جالسا في صالون العوامة يتحدث مع واحد من أكبر معاونيه في قيادة الوفد وهو «أحمد ماهر» (باشا).



وفشلت خطة الإيقاع بالنحاس (باشا) - وهنا يتسع نطاق القصة من مجال ما هو شخصي إلى مجال ما هو عام - ذلك لأن عددا من زعماء الوفد الكبار استقر يقينهم على ضرورة أن يتزوج رئيس الوفد، وبأسرع ما يمكن. وكان «النحاس» (باشا) يحتج بأنه تخطى سن الزواج، فهو الآن في السادسة والخمسين، وأي زوجة ترضى به لن يرضى هو بها، لأن الخيار الواقعي أمامه «أن يتزوج عانسا أو مطلقة أو أرملة، وذلك لا يغريه».

وكان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتير الوفد (والتوأم الروحي وقتها لزعيمه) أشد المتحمسين لزواج رئيسه، وكذلك كانت السيدة «عايدة» قرينة «مكرم عبيد» (باشا) هي التي فاجأت «النحاس» (باشا) ذات يوم - وهو يتناول الغداء في بيتها - تزف له البشرى بأنها وجدت الزوجة التي تعجبه، فهي جميلة، ليست عانسا وليست مطلقة وليست أرملة، وإنما شابة من أسرة كريمة علمتها كيف تصنع بيتا سعيدا، ثم إن أسرتها «سوف تموت من الفرح» (كلمات السيدة «عايدة» بنصها طبقا لروايتها وهي تستعيد بعض ذكرياتها جالسة في صالون بيتها - وكان زوجها وهو من ألمع رجال مصر قد توفي قبلها بعام - ١٩٦١ - دون أن يكون لهما ولد، وطعن أقارب له في وصيته ومقتضاها أن يبقى بيته في منشية البكري ملكا بعد وفاته لها، وقد رفعوا أثناء مرضه قضية حجر عليه، تجددت بقضية طعن في الوصية بعد وفاته، وكتبت السيدة الكريمة إلى «جمال عبد الناصر» شاكية وحزينة).

ولم يكن «النحاس» (باشا) متحمسا حتى رأى العروس وهي الآنسة «زينب الوكيل» - كريمة السيد عبد الواحد الوكيل (من أعيان أسرة كبيرة في مديرية البحيرة وقد نال رتبة الباشوية فيما بعد). وكانت العروس المرشحة بالفعل شديدة الجمال، شديدة الذكاء، حسنة التربية، وعلى قسط من التعليم.

كانت العروس من مواليد سنة ١٩١٢، ومعنى ذلك أن فارق السن بينها وبين زوجها ثلاث وثلاثون سنة - وأن عمرها حين تزوجت سنة ١٩٣٥ كان ٢٣ سنة في حين كان عمر زوجها ٥٦ سنة.

وكان الزواج سعيدا. ومع أن فارق السن كانت له أحكامه، فإن شباب الزوجة توازن مع مكانة الزوج زعيما معترفا به للسواد الأعظم من شعبه.

وفي بداية الزواج كان «النحاس» (باشا) يتأهب للعودة إلى رئاسة الوزارة وإلى المفاوضات مع الإنجليز، وقد انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ - وكان يستعد بعدها للسفر إلى «مؤتمر مونترو»، وكانت زوجته الشابة الجميلة في صحبته، والحاصل أن السفر إلى مونترو كان ذروة السعادة في الزواج الجديد، فقبلها كان رئيس الوفد مشغولا بمقدمات التفاوض ومهامه والتحضير لمؤتمر مونترو وأعماله، وبعدها أصبح لديه الوقت لشهر عسل مؤجل على ضفاف بحيرة ليمان الخلابة، وهنا فإن قرينة «النحاس» (باشا) أطلت لأول مرة على العالم المسحور.

وتسجل وقائع الرحلة مفارقات ومواقف رصدها السفير المصري في برلين «حسن نشأت» (باشا) (في تقارير متعددة بعث بها إلى القصر الملكي ولا يزال ملفها محفوظا في أرشيف عابدين)، ذلك أن «النحاس» (باشا) رتب - بعد انتهاء «مؤتمر مونترو» - للقيام بجولة واسعة في أوربا شملت زيارة لألمانيا، وتضمنت مقابلة مع الزعيم الألماني «أدولف هتلر»، وبالتالي فإن «حسن نشأت» (باشا) كان ملازما له طوال زيارته لألمانيا. وفيما رواه «حسن نشأت» (باشا) - (مع التسليم بأنه لم يكن موضع ثقة «النحاس» (باشا) من أيام خدمته في القصر أواخر العشرينات) - أن قرينة «النحاس» (باشا) التي كان عليها أن تجد وصيفة ترافقها في السفر - اختارت سيدة ريفية كانت تقوم على تربيتها من الطفولة في بيت والدها اسمها «أم السعد»، وذلك أحدث ارتباكا في إعداد الملابس التي ظهرت بها (زينب هانم) في مختلف المناسبات، وقد توقف «حسن نشأت» (باشا) كثيرا حول اختيار قبعات «الرأس» المتوافقة مع كل مناسبة.

وكذلك أسهب «حسن نشأت» (باشا) في وصف نوادر «أم السعد» في برلين، بأكثر من حجمها، وإلى جانب ذلك فإن الصورة العامة التي رسمها (السفير) ليقرأها الديوان الملكي أبانت أن رئيس الوفد متيم بعروسه وتقدير «نشأت» (باشا) «أنها شخصية قوية تخبئ قوتها وراء جمالها»، ثم إنها وقد أطلت من قلب أوربا على عالمها المسحور سوف تثبت أنها «شخصية لها دور كبير في الحياة العامة في مصر».

والذي حدث أن «النحاس» (باشا) عاد إلى مصر، ثم لم تمض غير أسابيع حتى كان خطاب الإقالة بتوقيع الملك ينقض مفاجأة عليه، وبطريقة مهينة خصوصا أمام شريكة أهلت على حياته، وأشاعت فيها سعادة لم تكن هناك أي وقت من قبل!



ونشبت الحرب العالمية بعد سنة واحدة، وبدأت مصاعبها بما فيها الغارات الجوية على القاهرة، ولم تكن الغارات الجوية خطرة أيام الطليان عندما قاموا بها وحدهم، لكن عندما وصل الألمان إلى الصحراء الغربية، فإن القنابل زادت حمولاتها وتفاقمت مخاطرها، وكان أن سارعت الطبقة العليا إلى الخروج من العاصمة لائذة بقصورها أو قصور الأقارب في الريف المصري وسط الملكيات الزراعية الشاسعة، وكان رأي عدد من زعماء الوفد أن «النحاس» (باشا) (وهو يسكن وقتها في مصر الجديدة على مقربة من منطقة مطار ألماظة) - معرض للخطر، ومن اللازم لسلامته أن يبتعد. وبالفعل فإن «النحاس» (باشا) قرر أن يلحق بآخرين سبقوا إلى الريف المصري وكان ذلك بعد ليلة تكرر فيها سماع صفارات الإنذار ورؤية كشافات الضوء القوية تتقاطع في ظلمات الليل بحثا عن طائرات مغيرة، ثم سماع دوي الانفجارات دون أن يميز أحد على وجه القطع إذا كانت الانفجارات قنابل طائرات أو قذائف مدفعية مضادة. ومع أن «النحاس» (باشا) ظل ثابت الأعصاب طوال ليالي الغارات، فإن زوجته الشابة لحقها الخوف، وسافر زعيم الوفد إلى الريف الواسع، وعلى امتداد شهور سنة ١٩٤١ كان معظم وقته في شمال الدلتا ضيفا مُحتفى به معززا مكرما في قصور العائلات الكبرى، وفيها عائلات أقارب له في «سمنود» وعائلات أخرى من معارفه الراغبين في الحفاوة به، وكانت عائلة السيد «البدراوي»



(باشا) إلى جانب عائلات «المغازى» و«الإتربى» و«جمعة» من أكثر الأسر التى فتحت أبوابها ودعت ورحبت. وفيما روى كثيرون من الذين زاروا رئيس الوفد أيامها، أن الرجل كان سعيدا بعودته إلى الأرض السمراء وحقولها الخضراء، وكان مضيفوه يتسابقون إلى شرف ضيافته رغم علم بعضهم أن «السراى» قد لا تعجبها تلك الحفاوة بزعيم الوفد. وقد ذهب «مكرم عبيد» (باشا) أكثر من مرة إلى زيارته والاطمئنان عليه.

وكان «مكرم عبيد» (باشا) قد اكتشف شابا من ألمع شباب أسرة «البدراوى»، هو الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» (ابن سراج الدين شاهين باشا وزوج السيدة زكية البدراوى كريمة السيد البدراوى باشا)، وقد لمح «مكرم عبيد» لدى «فؤاد سراج الدين» استعدادا للعمل السياسى من موقع الجاه والغنى، ومعهما طاقة من الحيوية والنشاط لافتة.

وكان الشاب فى سلك النيابة أصلا وأقنعه «مكرم» (باشا) أن ينضم لحزب الوفد، وأن يترشح فى دائرة انتخابية من دوائر عديدة فيها أملاك ونفوذ لأسرته. وفى الظروف المستجدة بدأ نجم «فؤاد سراج الدين» يلمع فى الوسط القريب المحيط برئيس الوفد، ثم أصبح «فؤاد سراج الدين» ملازما للرئيس ومرافقا له باستمرار.

ولم يكن فى الريف وفى زمن الحرب من متعة إلا حوارات الصباح والمساء فى الشأن الجارى وهو حاضر فى فكر الجميع باحتمالاته وعواقبه. على أن الزائرين القادمين من القاهرة لمقابلة زعيم الوفد واستطلاع آرائه، كانوا يحملون معظم الأحيان أخبارا تدعو إلى التشاؤم فيما يتعلق بالحزب وفرصه فى الحال وفى المستقبل، وكذلك عن مشاعر الإحباط لدى أنصاره وأسباب قلقهم وهى كثيرة:

● فيها أن قيود الحرب وتطوراتها تضغط على الناس - لكن الحزب (الوفد) غائب عن التأثير فى القرار: لأن الانتخابات المزورة التى قامت عليها وزارة «محمد محمود» (باشا) (زعيم الأحرار الدستوريين سنة ١٩٣٨) حجبت بقوة السلطة فرص النواب الوفديين حتى فى الدوائر التى لم يكن هناك شك أنها قلاع مكينة لهم.

● ومع أن مشكلات الناس فى الحياة العادية صعبة بحكم القيود التى فرضتها الحرب، فإن الشارع المصرى الذى يأتمر بأوامر الوفد فى الظروف العادية، مقيد الآن رغم ملاءمة الظروف للمعارضة، والسبب قسوة الأحكام العرفية التى اقتضتها مطالب الحرب، بل إن اجتماعات الحزب ولجانه ونشاطه وسياساته لا تصل إلى أحد لأن الرقابة تحذف أخبارها.

● وأن معظم صحف الوفد أصبحت بلا تأثير لسببين أساسيين: من ناحية لأن أصحاب الصحف المحسوبة على الوفد لهم مصالح مع الحكومة أهمها حصص الورق الذى يطبعون عليه جرائدهم، فهذه الحصص بسبب قيود الاستيراد فى يد وزارة المالية توزعها كما تشاء، ومعنى ذلك أن الوزارة القائمة بالحكم تستخدم حصص الورق مكافأةً للتأييد أو شراءً للسكوت؛ أى أن المحظوظين من أصحاب الصحف يسمح لهم بفائض يستطيعون بيعه فى السوق السوداء بأسعار خيالية وأما الآخرون فلهم الحرمان.

● ثم إن كبار الملاك والتجار وأصحاب الثروات الذين كان الوفد يعتمد على دعمهم المادى، أصبحوا يجدون مصالحهم مع السلطة أولى بالرعاية، لأن الحكومة هى التى تمنح أذون الاستيراد والتصدير، وتوجه حركة البنوك والأسواق، وبالتالى فإن هؤلاء الأنصار الذين ساندوا الوفد سواء عن اقتناع بمبادئه أو احتماء بنفوذه، أو رغبة فى تحسين صورتهم أمام الناس - لم يعد يهمهم أمر الوفد كما كان!

● وعلى هذا النحو فإن غياب الوفد عن الحكم سوف يطول، والشعب بعيد أو غير قادر على فرض عودته، وأمور الإنجليز ميسرة فى مصر، وهم مكتفون بتعاون أصدقاء لهم فى رئاسة الوزارة مثل «حسن صبرى» (باشا) أو أصدقاء لهم فى أجهزة الدولة المسيطرة على المرافق العامة فى مصر مثل السكك الحديدية ومديرها فى ذلك الوقت «محمود شاكر» (باشا)، ومثل محافظ البنك الأهلى (البنك المركزى وقتها) وهو تلك الأيام إنجليزى هو «جيمس كوك» - أو مثل أصدقاء من أصحاب الملايين الكبار «أحمد عبود» (باشا) فى القاهرة و«محمد أحمد فرغلى» (باشا) فى الإسكندرية.

وكانت تلك الوساوس وتداعياتها وهذه المناقشات المستمرة فى قصور الريف بعيدا عن العاصمة وهواجسها - مدرسة السياسة التى تمرست فيها عروس رئيس الوفد الشابة.

كانت تجربتها فى الانتقال من بيت والدها إلى بيت زعيم الوفد قد أعطتها رفعة المقام، وكانت إطلالتها الأولى على العوالم المسحورة فى أوربا قد كشفت أمامها أفق العز الوردى، ثم جاءت الإقالة لتعلمها درسا عن حقائق القوة، وأخيرا جاءت أيام الريف تعرض أمامها درسا فى طبائع العمل السياسى وتقلباته.

وفى قصور الريف وسط شمال الدلتا كان درس العمل السياسى واضحا وظروف الحرب تجعله سهل الفهم، واضحا لا يحتاج إلى دليل، وملخصه لها - ولغيرها - أنه إذا كانت تلك هى حقيقة الحال، فإن الوفد رغم كونه المعبر الرئيسى عن أغلبية الشعب المصرى - لا يستطيع الآن أن يصل إلى الحكم بأصوات الناخبين، لأنه غير قادر حتى على مجرد الوصول إليهم ومخاطبتهم - إلا بشق الأنفس وبتأثير محصور، وإذا كان ذلك فالعبرة التى يمكن - ويجب - استخلاصها، أن الطريق الوحيد إلى السلطة مرهون بتراض، أو باتفاق، أو حتى بصفقة (مقبولة ومشروعة فى الواقع) مع واحدة من القوتين: إما القصر الملكى - وإما السفارة البريطانية!

ويوما بعد يوم كان ذلك الاستنتاج (المحرض على التعامل مع حقائق الواقع) يظهر ويتأكد، ويقنع الجميع بـ: «أنه لابد مما ليس منه بد»!



وكان «مكرم عبيد» (باشا) - وهو حتى ذلك الوقت سكرتير الوفد العام وروحه الملهمة، وآخر الكبار التاريخيين من أقطابه - يجىء إلى «النحاس» (باشا) زيارة بعد زيارة، وفى كل مرة كان يسمع أو يرى ما يلفت نظره، ثم يدهشه، ثم يضايقه ويثير أعصابه بعد ذلك. فقد أحس «مكرم عبيد» (وتلك روايته)، أن تلك الشهور التى قضاها «النحاس» (باشا) فى قصور شمال الدلتا أحدثت تحولات إنسانية وسياسية غيرت المشهد كما يعرفه، وبدا له أن ثقة قرينة «النحاس» (باشا) فى نفسها - زادت، وأن اهتمامها بالمناقشات السياسية اتسع، كما أن الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» برز فى الدائرة المحيطة برئيس الوفد، بأكثر مما توقعه السكرتير العام للحزب (مكرم عبيد نفسه).

ومن الصعب على أى قارئ لتاريخ تلك الفترة أن تغيب عنه دلالة بالغة التعبير عن نفسها فى السياسة المصرية، وتلك هى الحدة الغاضبة التى وقع بها خروج «مكرم عبيد» (باشا) من حزب الوفد (بعد شهور)، وكان الفعل أقرب إلى «الانفلاق» منه إلى «الخروج».

والتفسير المنطقى والإنسانى لهذه الحدة أن ذلك السياسى ذا النفوذ الهائل على الوفد وزعيمه - وجد أن ما كان فى يده ينتقل فعلا إلى أيدى غيره، وهى أيد من صنائعه، فهو الذى اختار لزعيم الوفد عروسه، وهو الذى قدم لزعيم الوفد أذكى أبناء الأعيان الذين استضافوه أيام الغارات!

ويقول «مكرم عبيد» أنه أحس فى الأجواء المحيطة بالنحاس (باشا) أن هناك «مقدمات صفقة سياسية فى الجو».

وقد فهم «مكرم عبيد» (باشا) زيارة «عبدالوهاب طلعت» (باشا) وكيل الديوان الملكى - لزعيم الوفد - على أنها إشارة من القصر إلى شىء ما، ثم فهم زيارات متكررة قام بها «أمين عثمان» (باشا) وهو المقرب من السفارة البريطانية إلى زعيم الوفد - على أنها إشارة إلى شىء آخر.

ويؤكد «مكرم عبيد» (باشا) أن حصار الدبابات البريطانية لقصر عابدين فاجأه، وأحس أيضا أنه فاجأ «النحاس» (باشا) والدائرة الأقرب منه، لكنه شعر أن ما وراء الدبابات لم يكن مفاجئا. بمعنى أن الذى حرك الدبابات إلى عابدين، وطلب تكليف «النحاس» (باشا) قبل الساعة السادسة مساء، وإلا... كان لديه (بلا شك) تأكيد مسبق بأن «النحاس» (باشا) سوف يقبل، أو على الأقل كانت لديه الثقة الضمنية إذا لم يكن لديه التأكيد الصريح!

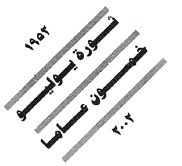
وجاء الوفد إلى السلطة يوم ٤ فبراير، وكان ذلك بالشرعية حقه - وكان فى مقدور بعض خصومه أن يسلموا له بهذا الحق، ولكن ليس بهذا الأسلوب. وكان فى استطاعة «النحاس» (باشا) أن يرد مطمئنا إلى صدق قوله: «إنه لسوء الحظ لم يكن أمامه بديل»، فقد أقاله الملك «فاروق» نقضا للدستور، كما فعل والده قبله، ثم إنه إذا أراد أحد أن يشير إلى إرادة بريطانية جاءت بوزارته يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، ففى وسعه دون تجاوز أن يشير إلى سكوت أو تواطؤ بريطانى فى كل مرة أقيلت فيها وزارته.

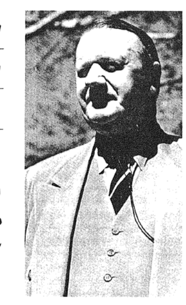
وربما أن المشكلة الحقيقية أن مدافع الدبابات الموجهة إلى قصر عابدين لم تترك لأحد فرصة للشك فى مصدر «القرار الأعلى»، وكان قبول الوفد للوزارة فى ذلك الظرف نوعا من القبول بشرعية هذا المصدر الأعلى للقرار، ثم تأكد ذلك عندما حدث أن قادة المظاهرات الوفدية التى حملت «النحاس» (باشا) على الأعناق داخلا لتسلم رئاسة الوزارة، كانت هى نفسها التى حملت - بعده - السير «مايلز لامبسون» السفير البريطانى وهو ذاهب إلى مقر رئيس الوزراء يهنئ «النحاس» (باشا) بعودته إلى الحكم.

وكانت تلك كلها مآزق وطنية، ومآزق شرعية، ومآزق سلطة ترتبت عليها نتائج خطيرة فى كل ما جرى بعدها وحتى هذه اللحظة.

وفى الحقيقة فإن ما جرى ليل ٤ فبراير ١٩٤٢ وما تلاه - وبكل المواصفات والمقاييس، كان هو الانقلاب العسكرى الأول فى التاريخ المصرى القريب. ■

أحس «مكرم عبيد» باشا سكرتير عام الوفد وروحه الملهمة أن الشهور التى قضاها «النحاس» (باشا) فى قصور شمال الدلتا أحدثت تحولات إنسانية وسياسية غيرت المشهد كما يعرفه، وبدا له أن ثقة قرينة «النحاس» (باشا) فى نفسها - زادت، وأن اهتمامها بالمناقشات السياسية اتسع





من هو مايلز لامبسون؟

سفير الإمبراطورية الذي حكم مصر ١٢ سنة

١٩٣٤ - ١٩٤٦

بدأ السير «مايلز لامبسون» خدمته في مصر سنة ١٩٣٤، وقد جاء إليها بعد سنوات في الصين أثبت فيها أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين تعتمد عليهم الإمبراطوريات في بناء وإدارة ممالكها.

وكان مجيء «مايلز لامبسون» إلى مصر في ذلك التوقيت مهمة ذات حساسية خاصة لأن البحر الأبيض بدأ يشهد زحفا إيطاليا منظما يبحث عن المستعمرات في جنوبه - في أفريقيا - وأوله غزو الحبشة والدخول إلى عمق البحر الأحمر حتى آخره. ومع وجود إيطالي سابق في ليبيا فإن الحكومة البريطانية رغبت في تعزيز وجودها ونفوذها في مصر، بما في ذلك التوصل إلى «حل من نوع ما» مع القوى الوطنية المصرية ذات التأثير وأولها «حزب الوفد». لذلك كان أول عمل قام به السير «مايلز لامبسون» في مصر كمعتمد بريطاني هو التمهيد والإعداد لعودة حزب الوفد إلى الحكم، عن طريق تراض مع الملك «فؤاد». وجاءت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي فاوض ووقع عليها «مصطفى النحاس» (باشا) وهو زعيم الأغلبية الشعبية في مصر وقتها دون شك.

وكان السير «مايلز لامبسون» شخصية إمبراطورية في شكله ومظهره أيضا، فهو طويل القامة بشكل لافت (١٩٢ سنتيمترا)، ضخم البنيان، مغرم بقراءة التاريخ، ويملك موهبة في الكتابة مدهشة إلى درجة أن يومياته الشخصية التي سجلها على امتداد مدة خدمته زادت على ٢ مليون كلمة.

وكان السير «مايلز لامبسون» حين جاء إلى مصر، أرملا لأنه فقد زوجته الأولى في الصين، وعندما تولى منصبه في القاهرة - كان في حاجة إلى مضيفة لبيته، لذلك جاءت ابنته «ماري» لتقيم معه، لكنها عادت بعد قليل إلى إنجلترا، وتولت المسئولية بدلها في بيت المعتمد البريطاني في القاهرة ابنة شقيقة له ما لبث أن دعت بعضا من صديقاتها بالتوالي ليجئن إلى القاهرة، ربما لمشاهدة الأبهة التي تتيحها «الإمبراطورية» لرجالها. وكان بين الضيفات فتاة جميلة اسمها «جاكلين كاستيلاني» وهي من أسرة مختلطة، فالأب وهو الدكتور «ألدو كاستيلاني» طبيب مشهور في أمراض المناطق الحارة، إيطالي الأصل، قصد إلى لندن وافتتح لنفسه عيادة في «هارلي ستريت» (شارع الأطباء). والأم إنجليزية من عائلة تجار مع الشرق من مدينة «ليدز»، وكانت ابنتهما «جاكلين» من مواليد «سيلان».

وأعجب «مايلز لامبسون» بـ «جاكلين» من أول نظرة على ما يظهر، لأنه تزوج منها قبل أن تغادر القاهرة، وتحولت من ضيفة لابنة أخيه إلى زوجة لصاحب البيت، رغم أن فارق السن بين الاثنين ست وثلاثون سنة، وكان هو نفسه يقول إنها في سن ابنته!

....

....

[ومن المفارقات أن «جاكلين» مازالت على قيد الحياة حتى الآن، وهي تعتمد في حياتها إلى جانب معاش زوجها على أربع شقق تملكها وتؤجرها مفروشة بالأسبوع في شارع «سلون جاردن»، وكثيرون من مستأجريها مصريون عرفوها من أيام مضت (وكان بينهم «حسن يوسف» (باشا)). وتحافظ «جاكلين» على صلتها بالسفارة المصرية بما في ذلك احتفالها باليوم الوطني (٢٣ يوليو) - وعندما تتأخر عليها الدعوة فإنها تتصل وتسأل وتستعجل، ومع أنها تجاوزت بالعمر ما بعد التسعين، فإنها مازالت فياضة في الحديث عن ذكرياتها عندما كانت «إمبراطورة» في مصر!]

....

....

وكان السير «مايلز لامبسون» رجلا حريصا إلى درجة أنه كان يبيع البط الذي يصيده في بركة «أكياد» إلى موظفيه، كما أنه كان رجلا عمليا لدرجة أنه حين وجد أن طيور الحداة تكثر في نادي الجزيرة وتقرض كوره وهو يلعب «الجولف» أخذ يحمل معه بندقية يصطاد بها «الحدادي» وهو يتنقل باللعب من ساحة خضراء إلى ساحة خضراء!

ومن الظاهر أن السير «مايلز لامبسون» مثل كل خدام الإمبراطورية رجل استوعب حكمتها ومنها أن الإمبراطورية لها مصالح وليس لها أصدقاء، ومن ذلك مثلا ما كتبه في تقرير له سنة ١٩٣٨، عندما عاد من إجازة في لندن (موسم أعياد ١٩٣٧) ووجد أن الملك «فاروق» أقال وزارة «مصطفى النحاس» (باشا) وهو شريكه في التوقيع على المعاهدة، وكان تعليقه لوزارة الخارجية في لندن قوله:

«يبدو لي أن الملك «فاروق» أصبح متأكدا من نفسه، كما استطاع رجاله المقربون أن يوقظوا فيه نزعات الاستبداد التي مارسها أبوه قبله، لقد أقال «النحاس» (باشا) وهو زعيم الأغلبية إلى جانب أنه شريكنا في توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦، وكان الأولى أن يتركه في منصبه ضمانا لحسن تنفيذها، على أنني لم أشعر بأسف ولم أشأ إثارة الموضوع أصلا، ورأيي أن «النحاس» إذا بقي بعد توقيع المعاهدة، زادت قوته وتدعم مركزه بأكثر من اللازم وحينئذ قد تزيد طلباته وطلبات أصدقائه وأنصاره»!

وبتطورات الحوادث فإن قصة السياسة المصرية كادت أن تتحول خلال الحرب العالمية الثانية لكي تصبح علاقة ملك مصر مع السفير البريطاني، ولم تكن علاقة ود.

وكان السفير يشير إلى الملك في كل تقاريره الرسمية وغير الرسمية بوصف «الولد» the boy ومن جانبه كان الملك يشير إلى السفير في أحاديثه بلقب «جاموس باشا»، (وهو وصف دقيق لأن السير مايلز لامبسون كان أطول من العادة وأعرض في الجسم عما هو معروف عن الإنجليز، ثم إن كتلة رأسه ضخمة!)

وكانت التقارير التي يبعث بها السير «مايلز لامبسون» (وقد أصبح لقبه اللورد كيلرن فيما بعد حين حصل على رتبة الفارس واختار الانتساب إلى مقاطعة في الريف الإسكتلندي جاءت منها أسرته) - سجلا وافيا ومشوقا للحياة في مصر طوال السنوات الاثنتي عشرة من ١٩٣٤ - ١٩٤٦، وهي سنوات حافلة (حتى في التاريخ العالمي لأنها سنوات مقدمات وقيام وختام الحرب العالمية الثانية).

وكان السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن)، يرسل إلى لندن برقياته العاجلة طوال أيام الأسبوع حسب مقتضى الأحوال، لكنه كل يوم خميس يبعث إلى لندن برسالة شاملة تحتوي على عدة بنود:

- تقريره هو عن لقاءاته وملاحظاته، وكل ما يصل لسمعه، بما في ذلك الفضائح والإشاعات.

- تقرير يكتبه السير «والتر سمارت» (المستشار الشرقي) وهو حافل بتفاصيل دقيقة عن كل ما جرى في مصر خلال أسبوع، وكان «سمارت» يعتمد على صلات سياسية واجتماعية نافذة، وكان متزوجا من السيدة «إيمي» ابنة «فارس نمر» (باشا) صاحب جريدة «المقطم» ومجلة «المقتطف».

- تقرير يكتبه السير «كين بويد» وهو آخر مستشار إنجليزي لوزارة الداخلية المصرية، وكان يشرف على شبكة علاقات قوية واصلة إلى أعماق الريف المصري، ولها صلاتها بالعائلات الكبيرة وبالإدارة الحكومية في الأقاليم، وكانت تقارير «كين بويد» يومية تسجل كل شيء من «أسعار القطن» إلى «حوادث الثأر» ومن تنقلات الموظفين إلى «زيجات الأعيان»!

- وفي بعض الرسائل كان «مايلز لامبسون» يضع تقارير من آخرين خارج السفارة، أهمها ما كان يكتبه «روبرت فيرنس» وهو المشرف على «الرقابة» (على الصحف - والإذاعة - والبريد)، وحتى التليفونات وتسجيلاتها مما كان يهم السلطة البريطانية، وكان مقر هذه الرقابة غرفة خاصة في مصلحة التليفونات المصرية في «شارع رمسيس»، وكان اسمه أيامها «شارع الملكة نازلي».

إلى جانب ذلك كله - وربما قبله - كان «مايلز لامبسون» لا يأوي إلى فراشه في أي يوم مهما طال السهر، قبل أن يفضي إلى يومياته الخاصة بكل ما رأى وسمع وأحس طوال نهاره وسهره. ويمكن أن يقال أن هذه اليوميات (٢ مليون كلمة)، أهم وأكمل سجل عن الحياة المصرية في تلك الأوقات من التاريخ المصري. وفي حين أن تقارير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن) محفوظة في دار المحفوظات بـ «كيو» - قرب لندن - فإن يومياته مودعة بناء على وصيته في كلية «سان أنتوني» بـ (جامعة أوكسفورد)، وهي الكلية المهتمة بدراسات الشرق الأوسط، ومحفوظات هذه الكلية من مجموعات الأوراق الخاصة مهولة وذات قيمة يصعب تقديرها.

وفيما يلي نص حرفي لما سجله السير «مايلز لامبسون» عن وقائع ٤ فبراير ١٩٤٢ - ثلاثة أيام هزت كيان مصر - بأول انقلاب عسكري في السياسة المصرية!



٤ فبراير: ماذا جرى بالضبط؟

نصوص ما سجله «لامبسون» في يومياته السرية عن إنذاره للملك «فاروق»

الاثنين ٢ فبراير - صباحا.

بدأت المسائل تتحرك بسرعة، في البداية تلقيت تليفونا من (حسين سرى «باشا» - رئيس الوزراء) يبلغنى أنه أصبح مضطرا لتقديم استقالته، وسوف يذهب إلى القصر الساعة ١٢,٣٠ اليوم لتقديمها. اتصلت تليفونيا بـ (أحمد حسنين «باشا» - رئيس الديوان) لأطلب منه ترتيب مقابلة مع الملك لا تزيد على نصف ساعة. بدا «حسنين» مراوغا، ولذلك كلمته بخشونة، وعاد «حسنين» فاتصل بى وحاول أن يعاتبنى على الطريقة التى تكلمت بها معه. ولم أتجاوب وتركته يفهم أننى أعنى ما قلت له، ثم كررت عليه أننى أريد مقابلة عاجلة مع الملك اليوم وفى أسرع وقت، وسوف أكون فى القصر بنفسى فى الساعة الواحدة بعد الظهر بالضبط.

وعلى الفور اتصلت باوكنليك (القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط) وكان مع هيئة قيادته فى اجتماع عندما اتصلت به. وعندما علمت أنهم جميعا هناك، قلت له أننى سوف أنضم إليهم على الفور، وأخذت معى «سمارت» (المستشار الشرقى للسفارة)، و«تيرنس شون» (الوزير المفوض)، وطرحت عليهم ما أنوى أن أفعله، وأبدى «أوكنليك» شيئا من التردد، وسيطرت على مشاعرى حتى لا أقول له أن العسكريين لا يستطيعون التصرف فى الأمور السياسية وحدهم، ومن حسن الحظ أن الجنرال «ستون» أيد موقفى معتقدا بأن الوقت قد جاء لنكون حازمين.

وتم الاتفاق فى النهاية على أننى عندما أقابل الملك فى الساعة الواحدة بعد الظهر سوف أضع أمامه النقاط التالية:

١ - إننا نريد أن نرى حكومة موالية لنا، قادرة على تنفيذ المعاهدة بنصوصها وروحها، وبالتحديد المادة الخامسة من المعاهدة (الخاصة بالاتصالات مع قوى خارجية معادية).

٢ - إننا نريد حكومة قوية تستطيع أن تحكم معتمدة على تأييد شعبى كاف.

٣ - هذا يعنى أن عليه أن يستدعى (مصطفى النحاس «باشا» - رئيس الوفد) وهو زعيم حزب الأغلبية فى البلاد وأن يتشاور معه فى شأن تأليف حكومة.

٤ - إننى أطلب أن يتم ذلك فى موعد أقصاه ظهر غد.

٥ - إنه هو شخصيا سوف يكون مسئولا عن وقوع أي اضطرابات أو إخلال بالأمن فى هذه الفترة.

٢ فبراير - بعد الظهر.

استقبلنى الملك الساعة الواحدة كما طلبت، وحاول أن يكون وديا فوق ما هو ضرورى، وشرحت له لماذا طلبت أن أراه بهذه السرعة، فقد علمت أن «سرى» (باشا) قدم استقالته وكممثل للحلفاء فى مصر (وليس بريطانيا وحدها)، فقد وجدت من الضرورى أن أعرف من هو رئيس الوزارة الذى سوف يخلفه، وأتأكد من أنه يملك المؤهلات الكافية لتنفيذ أمين لنصوص وروح معاهدة سنة ١٩٣٦.

سلمت الملك البنود الأربعة الأولى من مقترحاتى التى أرسلتها إلى وزارة الخارجية، وأما بالنسبة للبند الخامس (أى مسئولية الملك عن حفظ الأمن والنظام) فقد قرأت عليه النص شفويا، وكان قصدى من ذلك أن يفهم ما أتحدث عنه بدون أدنى شك.

قبل الملك بدون تردد النقطتين (١) و(٢) فى مطالبى، وقال إنها طلبات معقولة ومفيدة، وأما فيما يتعلق بالبند الثالث (استدعاء النحاس) فقد دخل بشأنه فى شرح طويل، قال إنه كان يعمل من أجل تأليف حكومة وحدة وطنية، وقال إنه يسلم بأنه ليس هناك شخص آخر غير «النحاس» يمكن أن يرأس هذه الحكومة، وأنه يظن أن علاقته تحسنت مع «النحاس»، وهو فى الواقع لا يرى مرشحا آخر غيره. وإذا استعرضنا المرشحين - غير «النحاس» - فسنجد أنهم جميعا لا يصلحون الآن. أضاف الملك أن (أحمد ماهر «باشا» - رئيس حزب السعديين) لديه الحكمة ليدرك أنها ليست ساعته was not his hour انتقل الملك من هذه النقطة إلى إبداء تردده بشأن استدعاء «النحاس» (باشا) ضمن المهلة التى حددتها له. لم يقل أنه لن يستدعى «النحاس» (باشا) للتشاور معه، وإنما حاول أن يعطينى الانطباع أن خلافه معى هو فى المهلة الزمنية، فهو يخشى أن العجلة فى استدعاء «النحاس» (باشا) قد تعطى انطباعا خاطئا. كررت عليه بوضوح مرة أخرى أننى أريده أن يخطرنى فى ظرف ساعة واحدة من الآن أنه استدعى «النحاس» (باشا). لم أستعمل كلمة تهديد مباشرة أو غير مباشرة ولكننى كنت حازما، أضفت أننى لن أقبل أى عذر لأية اضطرابات أو إخلال بالأمن يحدث فى البلد إلى حين استدعاء «النحاس».

رد على الملك بأنه لن تكون هناك أية اضطرابات فقد أرسل هذا الصباح إلى طلبة الأزهر الذين جاءوا فى مظاهرات إلى القصر، وأبلغهم أن عليهم التزام الهدوء. وتركت مكتب الملك وقبل أن أغادر القصر طلبت «حسنين» (رئيس الديوان الملكى)، ورويت له ملخص ما قلته للملك وطلبت منه أن يتأكد من استجابة الملك لما طلبت بحيث يستدعى «النحاس» قبل ظهر غد.

حاول «حسنين» أن يناقش الموضوع وحاول إقناعى بأنهم كانوا يرتبون لحكومة ائتلافية يرأسها «النحاس». لكن تفكيرهم كان يتجه إلى أن تكون البداية وزارة محايدة تقوم بإجراء انتخابات حرة تمهد لوزارة وفدية، وخشيته أنه إذا جرى استدعاء «النحاس» وتكليفه بتشكيل الوزارة فى خطوة واحدة، فإن ذلك سوف يؤدى إلى اكتساح وفدى يعم كل الدوائر الانتخابية، ويؤدى إلى تهميش الأحزاب السياسية الأخرى وبالذات السعديين والأحرار الدستوريين. وحين لمح عدم تقبلى لما يقول أكد أن البداية بوزارة محايدة تجرى انتخابات يمكن أن يكون فيه نوع من الفرملة يكفل سلامة الحكم فيما بعد.

قال لى «حسنين» أيضا أنه إذا كنت أخشى أن «على ماهر» أو بعض أنصاره ربما ينتهزون فرصة التغييرات السياسية المقترحة و«يلعبون»، فهو يستطيع أن يؤكد لى أن «على ماهر» وأصدقاءه سوف يتم استبعادهم بالكامل من الوزارة المستقلة. قلت له إننى أعرف أن «النحاس» لن يقبل بحكومة مستقلة الآن ولا بحكومة ائتلافية فيما بعد، وأن ما يقوله (حسنين) مضيعة للوقت، ومازلت مصرا على ما طلبته. وأرجو ملحا أن أسمع أن «النحاس» دعى لمقابلة الملك والتشاور معه قبل ظهر غد.

٢ فبراير - مساء.

فكرت بعد الظهر أن أبعث «سمارت» ليقابل «حسنين» ويضغط عليه بضرورة العمل وفق ما طلبت منه ظهر اليوم وأن يحذره من عواقب التراخى أو التأخير. لكننى من سوء الحظ اكتشفت أن «سمارت» أوى إلى فراشه مصابا بنوبة برد مفاجئ. وهكذا طلبت من «تيرنس شون» (الوزير المفوض) أن يبعث إلى «حسنين» بوصفه صديقا له رسالة شخصية وعاجلة تؤكد أهمية الاستجابة لما طلبت فى الموعد الذى حددته.

٢ فبراير - ليلا.

ذهبت للعشاء فى احتفال الهلال الأحمر وبحضور الملكتين (نازلى وفريدة). كان الاحتفال فى ستوديو مصر، وكان احتفالا كبيرا، خصوصا مع حضور عدد كبير من وصيفات الشرف للملكتين فقد كان منظر الوصيفات أنيقا. وعندما عُدت إلى السفارة بعد منتصف الليل بقليل وجدت برقية من وزارة الخارجية، وبدا لى أنهم هناك لا يعرفون أن «سرى» استقال ولذلك كتبت إليهم قبل أن أنام عن آخر التطورات، كذلك حرصت على كتابة مذكرة شخصية وخاصة لأنتونى إيدن (وزير الخارجية) أضعه فى الصورة لأنى أريد أن تكون وزارة الحرب على بينة من تراخى «أوكنليك» (القائد العام لقوات الشرق الأوسط).

لم أستطع النوم بسرعة



٤ فبــــــرايــــــر.. مـــــاذا جـــــرى بالضبـــــط؟

لأن عينى كانت ملتهبة وكان لابد أن أضع عليها كمادات لمدة نصف ساعة.

الثلاثاء ٣ فبراير

طلب (أمين عثمان - شغل من قبل منصب وكيل وزارة المالية) - وأصبح حلقة الاتصال بين «النحاس» (باشا) وبين السفير البريطاني - مقابلتى. شرحت له تفاصيل الموقف. قال لى بصراحة أنه جاء إلى باسم «النحاس» لكى يؤكد لى أن «النحاس على أتم استعداد» prepared perfectly - لكى يلعب دوره معنا مادمنا سوف نمضى فيه إلى النهاية. قلت له إننى أريد أن يعرف «النحاس» بعض المسائل المهمة التى طرحتها على وزارة الخارجية فى لندن وهى نقاط سوف أثيرها معه (النحاس) مؤخرا عندما يصبح رئيسا للوزراء - وهو ما أتوقعه.

وأبديت أننى أذكر له هذه النقاط الآن لكى يكون النحاس مستعدا عندما أطلبها رسميا منه.

أبدى «أمين عثمان» أنه واثق من أن «النحاس» لن يثير أية مشاكل على أى مسألة يمكن أن نطرحها عليه. سألنى «أمين» ما هى نصيحتى للنحاس وكيف يتصرف بعد ظهر غد (عندما يدعوه الملك للمشاورات). قلت لأمين أن «النحاس» يستطيع أكثر من غيره أن يكيف موقفه. ولكن رأيى أن عليه أن يرفض فكرة الحكومة الانتقالية، فهى مجرد حيلة من القصر تعطيهم فرصة للمناورة وترتيب المؤامرات وتدعيم موقفهم فى البلاد. قلت أيضا إن «النحاس» يستطيع إذا أراد أن يقبل رئاسة وزارة ائتلافية ولو أنى أعرف أن هذه مسألة صعبة. وقال «أمين» أنه سوف يعود الآن إلى «النحاس» ليرى ما عنده.

لابد أن أستدرك لأسجل أننى قبل أن يدخل «أمين» عندى، تلقيت اتصالا تليفونيا من «سرى» ليبدى لى ملاحظة سمعتها منى زوجته (السيدة ناهد سرى، وهى فى ذلك الوقت رئيسة الهلال الأحمر) أثناء حضورى لاحتفال الأمس فى ستوديو مصر. قلت له إننى بسبب تسارع الحوادث لم أستطع الاتصال به أمس لأخطره بما جرى. وافقنى «سرى» (باشا) على أن فكرة وزارة محايدة مضيعة للوقت، وأن فكرة حكومة ائتلافية حتى لو كانت برئاسة «النحاس» سوف تؤدى إلى مشاكل كثيرة، وأن الحل الوحيد الحقيقى هو ما رأيته من أفضلية مجىء وزارة وفدية بالكامل.

٣ فبراير - بعد الظهر.

الموقف هادئ حتى الساعة ٢,١٥.

جاء «أمين» برسالة من «النحاس».

الرسالة كما يلى:

«فى ظروف سابقة كان «النحاس» دائما ينادى بحكومة محايدة تجرى انتخابات. الآن غير رأيه لأن الظروف لا تحتمل. وأما عن فكرة وزارة ائتلافية فرأيه أنها لن تنجح لأسباب كثيرة بينها أنه يعرف أن «أحمد ماهر» رئيس الحزب السعدى مريض - أصابته نوبة قلبية خفيفة، ومعنى هذا أن عضوا آخر من حزبه (السعديين) سوف يدخل الوزارة الائتلافية فى حالة تشكيلها وذلك غير مقبول منه (من النحاس). وفى كل الأحوال فهو يرى أن الأوضاع فى البلد غاية فى السوء، والقصر يتآمر حتى ضد وزارة «سرى» رغم أنه قريب للملك. وإذا كان على «النحاس» أن يقدم لنا المطلوب deliver the goods to us، فلا مفر أن تكون الوزارة القادمة وفدية. ونحن نعرف أن «النحاس» تعاون معنا بكل جهده من قبل، وعلينا أن نثق أنه حتى لو لم تكن هناك معاهدة فإنه سوف يتعاون معنا كما فعل فى كل الظروف».

وفيما نقله «أمين عثمان» أيضا أن «النحاس» يريدنا «أن نعرف أن روح المعاهدة تقتضى تعاونا بين الطرفين بكل ما يعنيه التعاون من أبعاد، وأنه إذا كان «حسين سرى» نافعا لنا، فإن «النحاس» سوف يكون أكثر نفعا لنا if Hussein Sirry had been of use to us, Nahas would be even more use. وأن «النحاس» تعاون معنا فى زمن السلم وسوف يكون تعاونه معنا أكثر عشر مرات فى زمن الحرب.

لكنه لكى يتحقق ذلك، فلابد أن تكون يده مطلقة بالكامل فى التعامل مع القصر - فما يريده هو الديمقراطية والتعاون معنا، والملك يعارض الهدفين. وإذا أيدناه إزاء الملك فإنه سوف يتكفل بكل شىء. وفى نفس الوقت فهو لا يريد أن يبدو منتقما من الملك (بسبب إقالة وزارته الأخيرة) وقد يكون لصالح الملك أن يرى قوة العلاقة بيننا (الوفد والسفارة) ويلزم حدوده».

وقال لى «أمين عثمان» إن «النحاس» مستعد لقبول حكومة محايدة إذا كنت أنا أريد ذلك، وحكومة ائتلافية إذا كانت تلك نصيحتى، لكنه يريد تذكيرى بأن الحكومات الائتلافية لا تنجح».

السير «مايلز لامبسون»
فى تقريره إلى «أنتونى ايدن» وزير الخارجية:
«لابد أن أقول أننى استمتعت لأبعد مدى بوقائع هذه الليلة، ولقد راودنى الإغراء فى بعض اللحظات بأن أصر على تنازل الملك «فاروق» ولكنى راجعت نفسى لأن مقتضيات الحذر. أقول ذلك مترددا - جعلتنى أترك له الفرصة لاستدعاء النحاس

قلت لأمين إننى سأملى عليه النقاط التى أريد منه إبلاغها للنحاس: «إن النحاس عليه أن يقول للملك أن الموقف فى غاية السوء، وأنه لا يستطيع الثقة فى ولاء الأحزاب الأخرى التى يمكن أن تشارك فى حكومة ائتلافية إذا أصر الملك على ذلك، وأن الحل الوحيد لتفادى المشكلات والمؤامرات هو تأليف وزارة وفدية خالصة حتى تستطيع أن تتحمل المسئولية. ويستطيع «النحاس» أن يطرح على الملك اقتراحين:

١ - تخصيص بعض الدوائر الانتخابية للأحزاب الأخرى.

٢ - إمكانية إنشاء مجلس استشارى من زعماء الأحزاب ويكون ذلك بديلا لفكرة الائتلاف».

لم يكد «أمين» يخرج من عندى حتى اتصل بى يبلغنى أنه حين وصل إلى بيت «النحاس» عرف أنه استدعى إلى القصر.

٣ فبراير - مساءً.

فى الساعة السادسة مساءً اتصل بى «أمين» ليبلغنى بلقائه مع «النحاس» وبما رواه له عما حدث فى القصر، أملانى «أمين» محضرا كتبه «النحاس» للمقابلة مع الملك he actually dictated Nahas own record of the interview، ولم يعجبنى ما سمعته منسوبا للملك وملخصه أن «فاروق» طلب من «النحاس» تأليف وزارة ائتلافية، وأن «النحاس» رفض مبديا استعداده تأليف وزارة وفدية تتحمل المسئولية.

بناء على ذلك وفى الساعة السابعة، استدعيت «حسنين»، قلت له إننى عرفت بما حدث مع «النحاس» (باشا)، وأنا أريد أن أطلب من الملك «فاروق» أن يستدعى «النحاس» فى أسرع وقت، وأن يكلفه بتشكيل الوزارة. أبلغت (حسنين) أيضا أننى سوف ألتقى بالمجلس الحربى فى مصر الساعة العاشرة من صباح غد، وتركته يفهم ماذا يعنى ذلك، حاول «حسنين» كعادته أن يتلوى، ولكنى أبلغته بوضوح أننى أعنى ما أقول وأن عليه أن يعرف أننى أريد من الملك أن يستدعى «النحاس» لتأليف الوزارة.

بعد خروج «حسنين» بقليل، اتصل بى «أمين عثمان» وأبلغته بما قلته لحسنين. وذهبت إلى العشاء والسهرة وعدت إلى البيت الساعة ١٢,١٥، اتصل بى «أمين» ليسأل إن كان هناك جديد وأجبته بالنفى.



الأربعاء ٤ فبراير (صباحا)

كنت مازلت مشغولا بالكمادات على عينى فى الصباح الباكر عندما سمعت أن «هنرى هوبكنسون» (ضابط الاتصال السياسى بالسفارة البريطانية فى القاهرة وقتها) جاء يحمل رسالة عاجلة. طلبت أن يصعد إلىّ فى غرفة النوم. أبلغنى أن «حسنين» اتصل تليفونيا وطلب أن يرانى بأسرع ما يمكن؛ لأن لديه رسالة يريد إبلاغها لى. وحين عرف أننى مازلت فى غرفة النوم أبدى رغبته أن يذهب «هوبكنسون» إليه فى مكتبه ليتلقى منه الرسالة. وقد رد عليه «هوبكنسون» بأنه سيصعد إلى غرفتى ويعود إلى فى هذا الشأن. ثم يرد عليه، قلت لهوبكنسون «إننى لا أوافق لأن الوقت تأخر وهم يحاولون المماطلة».

فى الساعة العاشرة كان على أن أحضر اجتماع لجنة الحرب (فى مقر وزير الدولة البريطانى المقيم ومكتبه فى ذلك الوقت ١٠ شارع الطلمبات - جاردن سيتى) فى السيارة كان معى الملحق العسكرى بالسفارة. فى الطريق قلت له «إن هناك وسيلتين للتصرف فى أزمة من هذا النوع: إما أن نعالج الأمور سياسيا بحزم وهذا ما أفعله، وإما أن تتولى جماعته - أى العسكريين - حل العقدة، وهذا ما أحاول تجنبه».

عندما وصلت إلى الاجتماع كان الكل حول المائدة.

شرحت للكل ولأوليفر (أوليفر ليتلتون الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط) تطورات الحوادث حتى هذه اللحظة، وقلت إننى أريد أن أعرف منهم تصورهم للمهلة التى يجب أن أعطيها للملك نهائيا حتى يستدعى «النحاس» لتشكيل الوزارة. كانت المناقشة مفيدة واتفقنا على أن أبلغ «حسنين» رسالة بالموعد. ولم أجد مبررا لكى أذهب إليه أو يجىء لى، فاتصلت به (حسنين) تليفونيا وأمليت عليه نصا مكتوبا وافق عليه الجميع، وكان النص كما يلى:

«إذا لم أسمع قبل السادسة مساء اليوم أن «النحاس» دعى لتشكيل حكومة، فإن صاحب الجلالة الملك «فاروق» عليه أن يتحمل العواقب» - ولم أترك لحسنين فرصة لمناقشة ما تلقاه منى. وأكملنا اجتماع لجنة الحرب، فقد كانت أمامنا ترتيبات كثيرة عند الساعة السادسة مساء فى حالة ما إذا تأخر الملك فى استجابته لطلباتنا.

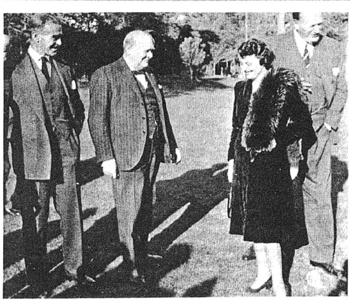
واستدعينا الجنرال «ستون» (رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش المصرى). كان «ستون» يطلب وقتا، وكذلك اتفقنا على أن نبدأ التحرك الساعة الثامنة مساء. فى ذلك الوقت يكون على أن أذهب أنا يرافقنى الجنرال «ستون» إلى قصر عابدين لإبلاغ الملك أن عليه أن يتنازل عن العرش. ولكى نحول دون حدوث أى قلاقل - كان لابد أن تسبقنا قوة عسكرية مسلحة تحيط بالقصر قبل أن نصل إليه أنا والجنرال «ستون». وكنا جميعا على اتفاق بأنه لا يجب أن أخرج من القصر إلا وفى جيبى ورقة من اثنتين كلتاهما بإمضاء «فاروق»: واحدة عليها تنازله عن العرش إذا عاند والثانية عليها تكليفه للنحاس إذا قرر أن يطيع!

وناقشنا أين يذهب فى حالة ما إذا تنازل عن العرش واستقر رأينا فى البداية على أنه يمكن نقله إلى إحدى سفن أسطولنا فى الإسكندرية (وبعدها كان الترتيب إرساله إلى المنفى فى كندا، وكان القصد من كندا إعطاءه فرصة لقطع الوقت بالتزلج على الجليد لأن تلك رياضته المفضلة).

تركت قاعة الاجتماع إلى مكتب آخر مجاور واستدعيت «فيتز باتريك» (قائد بوليس القاهرة)، وطلبت منه أن ينسق على الفور مع الجنرال «ستون». كذلك اتصلت بوالتر مونكتون (مساعد وزير الدولة المقيم وهو خبير مرموق فى الشئون الدستورية)، وقد اعتبرت أن وجود «مونكتون» مصادفة سعيدة فى مصر فى ذلك الوقت، لأنه هو الرجل الذى كتب وثيقة تنازل «إدوارد الثامن» عن العرش لكى يتزوج من عشيقته «واليس سمبسون» (التى أصبحت فيما بعد دوقة وندسور بعد أن تنازل «إدوارد» عن العرش مفضلا الغرام على الملك).

عُدت إلى السفارة الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر، استدعيت «حسنين» لمقابلة قصيرة جدا، أعدت عليه مرة أخرى نص ما سبق وأبلغته به. وكتبه مرة أخرى، وقلت له أنه ليس عندى ما أضيفه إلى هذا النص الذى أرجو أن يقنع الملك «فاروق» بأنه الضوء الأحمر هذه المرة، وأننى بكل ما لدى من وسائل الإقناع أريد أن أحذر الملك فأنا أتوقع أن أتلقى ردا يستجيب لما طلبت فى الموعد المحدد وإلا فسوف تحدث أشياء things will happen.

رأيت مناسبا أن أتأكد من موقف النحاس، ولأنى أفهم أنه يصعب العثور عليه فى بعض الأوقات، فقد أردت أن أعرف أين سيكون فى حالة ما إذا دعاه الملك أو احتجت أنا إليه. أبلغت «أمين عثمان» بما حدث مع «حسنين» وأنه من المهم أن يكون «النحاس» موجودا حيث يمكن الاتصال به، أبلغته أيضا أننى «أتمنى أن يكون «النحاس» مازال عند موقفه» - قال لى أمين أن «النحاس» نفسه قال له قبل قليل «أنه يتمنى أن لا نغير نحن رأينا».



السير «مايلز لامبسون» وقرينته «جاكلين» و«ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا ووزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط «كاسيى» فى حديقة السفارة البريطانية فى القاهرة

وقال أمين «إنه لم ير «النحاس» مصمما كما يراه الآن». قال لى «أمين» أن «مكرم» (مكرم عبيد سكرتير الوفد فى ذلك الوقت)، دُعى للقصر.

قلت لأمين «إننى أرجو أن لا يكون مكرم تراوده إمكانية التخاذل الآن، وقد اقتربنا من ساعة الصفر». قال «أمين» «إنه سوف يبقى مع «النحاس» بنفسه طوال بعد الظهر».

لكى أكمل السجل فى هذه اليوميات - أضيف أننى تلقيت برقية من وزارة الخارجية تصدق على كل الترتيبات التى اتخذتها.

٤ فبراير - بعد الظهر.

على الغداء تلقيت معلومات بأن طلبة جامعة الأزهر خرجوا فى مظاهرة تنادى «يحيا روميل ويسقط الإنجليز»، وتلك بالتأكيد من نتائج تحريض «المراغى» (الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر وكانت السفارة تتهمه بأنه أحد الأعمدة الكبيرة التى يستند عليها القصر) - تلقيت أيضا معلومات بأن هناك اضطرابات فى الزقازيق. كان معى على الغداء عدد من الضيوف بينهم الجنرال السير «كلود أوكنليك» (القائد العام للقوات البريطانية فى مصر) وقد ناولته ورقة المعلومات التى وصلت إلىّ عبر المائدة.

بعد الغداء أبلغنى «أمين» أن «النحاس» وصلته معلومات مؤكدة بأن الملك يحزم حقائبه، ثم عاد «أمين» فأبلغنى أن «النحاس» دعى إلى مقابلة الملك بعد الظهر.

تأكدت من جميع الترتيبات العسكرية لأنى لا أستطيع أن أستبعد إقدام الملك على حماقة.

٤ فبراير - بعد الظهر.

الساعة ٥,٤٥ - لم تصلنى أية إشارة من القصر، وأرسلت إلى وزارة الخارجية أبلغهم أننى الآن ماض فى تنفيذ خطتى.

الساعة ٦ مساءً

جاءتنى رسالة تليفونية من «تيمور بك» (إسماعيل تيمور بك التشريفاتى الأول فى قصر عابدين) الذى أبلغنى أن «حسنين» فى طريقه إلىّ، ووصل «حسنين» فعلا الساعة ٦,١٥ ومعه رسالة من الملك نصها ما يلى:

«عندما تلقى الملك الإنذار البريطانى دعا إلى القصر فورا الساسة المرفقة أسماؤهم بهذه الرسالة





٤ فبراير.. ماذا جرى بالضبط؟

وهم قادة كل الأحزاب السياسية، وبينهم «النحاس» وعرض عليهم خطورة الموقف، واتفق رأيهم جميعا على صيغة رد طلبوا إبلاغها لى، وكان نص الرد يقول:

«إن الإنذار البريطانى الموجه إلى جلالة ملك مصر يمثل خرقا لمعاهدة الصداقة والتحالف بين البلدين، ولهذا السبب وبناء على نصيحة الزعماء السياسيين، فإن جلالة ملك مصر لا يستطيع قبول هذا الخرق لاستقلال بلاده».

نظرت إلى «حسنين»، وقلت له هذا كلام بالغ الخطورة، وسوف أجيء إلى القصر لأبلغ الملك ردى عليه بنفسى فى الساعة التاسعة مساء. وبدا الذهول على وجه «حسنين» وسألنى «ألا يمكن سير «مايلز» لك ولى أن نجد حلا لهذه المشكلة؟» ثم استطرد ولم أقاطعه عامدا حتى أسمع ما لديه ـ قائلا: «إننا نحتاج الآن إلى حل لإنقاذ ماء الوجه، وإذا وافقت على تشكيل حكومة محايدة فهو (حسنين) على استعداد أن يقسم لى بشرفه أنه فى أقل من شهرين سوف تكون فى البلد حكومة وفدية».

قلت لحسنين: «إننى حاولت مرات من قبل أن أتعاون معه، لكنى أخشى أن يكون ما يقترحه الآن مستحيلا بالنسبة لى».

دعوت لجنة الطوارئ للاجتماع، وبينما نحن مجتمعون وصل «أمين عثمان» للسفارة. ذهبت لمقابلته فى غرفة مجاورة، سألته على الفور: «هل وضع «النحاس» توقيعه حقا على رد الزعماء السياسيين الذى جاء به «حسنين»؟ وإذا كان ذلك فكيف يمكن تفسير تصرفه؟». أكد لى «أمين» أننى لا يجب أن أهتم بأى شيء إلا بتأكيداته هو لى باسم «النحاس».

أضاف «أمين عثمان» أنه يستطيع أن يراهن إلى آخر دولار(!!) عنده بأن «النحاس» متمسك بما اتفق عليه معى. وكذلك عدت إلى غرفة الاجتماع وطلبت إعداد نص بالكلام الذى أوجهه إلى الملك «فاروق» عندما ألتقيه فى المساء، واتفقنا على نصين:

النص الأول ـ فيه ما أقوله للملك.

والنص الثانى ـ وثيقة تنازل من الملك عن العرش.

● النص الأول يقول «خلال السنوات الأخيرة تأكد لنا أنكم تحت تأثير بعض مستشاريكم، لم تكونوا مخلصين للحلف ولبريطانيا العظمى، وإنما على العكس من ذلك عرقلتم جهودهم بما يساعد خصومهم.

إن الاتجاه العام وما يصاحبه من ظواهر تؤكد لنا قيامكم بخرق معاهدة التحالف مع بريطانيا بمقتضى المادة الخامسة التى تفرض عليكم ألا تقوموا بأية اتصالات أو علاقات مع أى بلد معاد للحلفاء.

إن جلالتكم فوق ذلك وعن تعمد وبدون داع طلبتم من الحكومة السابقة الرجوع عن قرار اتخذته بمقتضى البند الخامس من المعاهدة (بطرد المسيو «بوتزى» ـ الوزير المفوض الفرنسى فى القاهرة).

وأخيرا، فإنكم فشلتم فى تأمين قيام حكومة وحدة وطنية ورفضتم أن تعهدوا بالسلطة إلى رئيس الحزب الذى يحظى بالأغلبية الشعبية فى البلد والذى يستطيع وحده تأمين التنفيذ الدقيق للمعاهدة بالروح التى وضعت بها النصوص. ومثل هذه التصرفات الطائشة وغير المسئولة من جانبكم تعرض أمن مصر وأمن القوات الحليفة فيها للخطر، وهنا فإنهم يعلنون لكم أنكم لم تعودوا جديرين بالجلوس على العرش.

● وأما النص الثانى (وثيقة التنازل عن العرش) فقد كان على النحو التالى:

● «نحن «فاروق» الأول ـ ملك مصر ـ تقديرا منا لمصالح بلدنا فإننا هنا نتنازل عن العرش ونتخلى عن أى حق فيه لأنفسنا ولذريتنا، ونتنازل أيضا عن كل الحقوق والامتيازات والصلاحيات التى كانت عندنا بحكم الجلوس على العرش. ونحن هنا أيضا نحل رعايانا من يمين الولاء لشخصنا».

صدر فى قصر عابدين فى هذا اليوم الرابع من فبراير ١٩٤٢.

توقيع «فاروق»

طلبت من وزير الدولة (أوليفر ليتلتون) أن يبقى على العشاء ومعه قرينته الليدى «مويرا». رحنا نناقش ما نحن مقبلون عليه، وكان يرى «أنه حتى «النحاس» رجل مذبذب فى موقفه»، والدليل على ذلك توقيعه على عريضة الزعماء التى أيدوا فيها الملك واتهمونا بالتدخل فى شئون مصر عدوانا على المعاهدة. وهنا كان رأيه (وزير الدولة أوليفر ليتلتون) بعد نقاش طويل «أنه إذا تراجع الولد (the boy) واستسلم للإنذار فلا داعى لوضع وثيقة التنازل أمامه».

قبل أن أخرج من السفارة استدعيت «أمين» لمقابلة أخيرة أريد أن أتأكد فيها من أن كل شيء يسير على نحو ما أريد. قلت له إننى أتوقع ما يلى:

١ ـ إن «النحاس» سوف يؤلف وزارة وفدية إذا دعاه الملك «فاروق» وطلب منه.

٢ ـ إنه إذا تنازل الملك عن العرش فإن «النحاس» سوف يؤلف الوزارة وينهض بالمسئولية «بطلب منا»!

تحركت من السفارة الساعة ٨,٤٠ متوجها نحو قصر عابدين، كان معى الجنرال «ستون» وكنت أعرف أن هناك قوة من المدرعات سبقتنا إلى حصار القصر، وكان معنا عدد من السيارات مشت خلفنا ـ ومجموعة من الضباط يمثلون كل أسلحة الجيش البريطانى وفروعه ترافقنا.

فى الطريق رويت للجنرال «ستون» ما اقترحه وزير الدولة (أوليفر ليتلتون) على العشاء، وأبدى الجنرال «ستون» أنه يوافق بلا تردد، على أنه «إذا تراجع الولد فليس لنا أن نجبره على التنازل عن العرش وإلا وضعنا أنفسنا فى مربع الخطأ».

وهكذا وصلنا إلى القصر، ولأن هذه المقابلة مهمة فإنى أخصص لها فى هذه اليوميات صفحات مستقلة.

....

....

ملحق إضافى:

«لأن ما حدث فى قصر عابدين مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ موضوع مهم من وجهة نظر تاريخية وإنسانية، فقد رأيت أن أودع فى هذه اليوميات صورة كاملة من التقرير الذى بعثت به إلى «أنتونى إيدن» (وزير الخارجية) ـ وهذا نصه:

١ ـ صاحب السعادة قد يهمك أن تعرف صورة كاملة لوقائع هذا المساء التى أعتبرها جديرة بالتسجيل.

٢ ـ فى الساعة التاسعة مساء وصلت إلى قصر عابدين مصحوبا بالجنرال «ستون» ومعنا مجموعة منتقاة من الضباط الذين يمثلون كل أسلحة القوات، وكانوا مسلحين حتى الأسنان. فى طريقنا للقصر مررنا ببقية قواتنا التى كانت تتقدم فى الظلام متجهة إلى القصر لاستكمال حصاره. وعندما وصلنا كان فى وسعى أن أرى نظرة ذهول فى عيون تشريفاتية القصر الذين وقفوا فى استقبالنا عند مدخله، وكانت نظراتهم الذاهلة أول إشارة لى بأن المظاهرة التى قمنا بها حققت آثارها المبدئية.

صعدنا إلى الطابق الثانى وانتظرنا قليلا ونحن نسمع أصوات الدبابات وهى تتخذ مواقعها حول القصر. وكان مشهد دخول وخروج تشريفاتية القصر والياوران من ناحية مكتب الملك وهم يهرولون فى ذعر ـ لمسة مضافة إلى جو توقعات الشؤم التى ينتظرها أهل القصر.

٣ ـ بعد قرابة خمس دقائق من التأخير دُعيت إلى مكتب الملك فى نفس اللحظة التى كنت فيها على وشك أن أبلغ رئيس الأمناء أننى لست مستعدا للانتظار ثانية إضافية واحدة. وتوجهت فى الممر المؤدى إلى مكتب الملك ومعى الجنرال «ستون»، ولكن كبير الأمناء (سعيد ذو الفقار باشا) حاول أن يمنع الجنرال «ستون» من مرافقتى، وقد أزحته جانبا بذراعى ودخلت والجنرال «ستون» معى إلى مكتب الملك.

٤ ـ بدا الملك «فاروق» مأخوذا، وسألنى إذا كان يمكن أن يستبقى «حسنين» معنا أثناء المقابلة، ووافقت على طلبه.

٥ ـ مضيت مباشرة إلى مهمتى وقلت للملك إننى كنت أتوقع منه ردا بلا أو نعم فى الساعة السادسة على الرسالة التى بعثت بها إلى القصر صباح اليوم. وبدلا من ذلك جاءنى «حسنين» فى الساعة السادسة والربع برسالة اعتبرتها ردا «بلا». وأنا الآن أريد أن أعرف وبدون مراوغة هل هى نعم أم هى لا؟ وبدا أن الملك يفكر ولم أترك له فرصة، وإنما أكملت كلامى على الفور مبديا له بازدراء شديد أن الأمور وصلت إلى نقطة خطيرة أعتبرها بوضوح إجابة بلا. وبناء عليه فإنى بمقتضى السلطات المخولة لى أطلب منه توقيع وثيقة بالتنازل عن العرش، وليس أمامه غير أن يوقع عليها فورا، وإلا فإننى سوف أتخذ إجراءات أخرى للتصرف معه قد لا تكون مرضية له ـ وناولته ورقة التنازل عن العرش.

٦ ـ تردد الملك «فاروق» لثوان وأحسست للحظة أنه سوف يأخذ القلم ويوقع، لكن «حسنين» تدخل باللغة العربية وقال شيئا للملك الذى توقف وبدا عليه نوع من الهلع، وقد نظر إلىّ وسألنى ـ بطريقة محزنة وبدون أية ادعاءات مما كان يتظاهر به من قبل ـ «إذا كان فى



الإمكان إعطاؤه فرصة أخرى وأخيرة». وقلت له «إننى لابد أن أعرف فورا وبدون مراوغة ما الذى ينوى عمله»؟! وأجاب بانه سوف يستدعى «النحاس» على الفور، وزاد فاقترح أن يدعو «النحاس» فى وجودى إذا أردت، وأن يكلفه على مسمع منى بتشكيل وزارة جديدة.

سألته: «هل يفهم بوضوح أنها يجب أن تكون وزارة من اختيار «النحاس» وحده؟»، وقال «إنه يفهم». وقلت له «إننى على استعداد لأن أعطيه فرصة أخيرة لأنى أريد أن أجنب بلاده تعقيدات قد لا تكون سهلة فى هذه الظروف. ولكن عليه أن يدرك أن تصرفه لابد أن يكون فوريا». وقال مرة أخرى وبصوت متأثر بالانفعال «إنه يستوعب أن ضرورات محافظته على شرفه وعلى مصلحة بلاده تقتضى أن يستدعى «النحاس» فورا».

٧ ـ على هذا الأساس وافقت.

٨ ـ حاول الملك «فاروق» بعدها وبجهد يثير الرثاء أن يتلطف وأن يجعل من نفسه شخصا ودودا، وأكثر من ذلك فإنه وجه إلىَّ شخصيا شكره العميق لأننى ساعدته فى اجتياز أزمة بهذه الحدة.

٩ ـ تركت مكتبه وخرجت مارا بالبهو الطويل المؤدى إلى مكتبه، وكان البهو مزدحما على الآخر بعدد من الضباط البريطانيين ومن تشريفاتية القصر، كما أنه عند آخر الممر من الناحية الأخرى، كان هناك عدد من السيدات ظهرن لى وكأنهن قطعان من الدجاج المذعور.

وعندما نزلنا إلى بهو القصر كان هناك حشد من الضباط البريطانيين، كما أنه من مدخل القصر بدا لى صلب الخوذات والمسدسات ومدافع التومى، وكلها على استعداد لحالة الإنذار.

وبينما نحن نخرج من مدخل القصر ظهرت أمامى ساحته الواسعة بأضوائها الخافتة، كأنها غابة مغطاة بالدبابات والعربات المصفحة والمدافع المصوبة نحو القصر مستعدة للعمل. وكان المشهد قويا مثيرا للإعجاب بكفاءة الترتيبات العسكرية التى مهدت وساعدت على إنجاح مهمتى بهذه السرعة.

١٠ ـ فور أن وصلت إلى السفارة وجدت «حسنين» على التليفون ينتظرنى بلهفة ويسألنى «متى تنسحب القوات المحيطة بالقصر؟ ـ وداعى لهفته أن وجود القوات يعرقل وصول زوار القصر الآن وأولهم «النحاس»، وهو لا يريد أن نتصور أن هناك تأخيرا ليسوا هم المتسببون فيه»، ووعدت «حسنين» أننى سوف أنظر فى الأمر.

وبعد نصف ساعة من هذه المحادثة وصل «النحاس» إلى مقر السفارة ـ قال لى أنه قادم من مقابلة الملك الذى استقبله مع عدد آخر من الزعماء السياسيين وأن الملك كلفه أمامهم جميعا بتشكيل الوزارة على الفور وكما يريد. كما كلفه بأن يجىء على الفور لإبلاغى بأن كل شىء قد تم كما طلبت، وأن الملك تصرف حسب ما وعدنى وبسرعة.

بقى «النحاس» معى وطلبت أن ينضم إلينا وزير الدولة، وأبلغت «النحاس» فى حضوره أننى سوف أتراجع من الآن إلى خلفية المسرح وأترك له أن يقف فى الواجهة ويتصرف ويقوم بتأليف وزارته. كان «النحاس» متحمسا وإن «عبر عن وساوس لا تزال تراوده حول شرور بعض عناصر القصر»، وكان رأيه أن هذه العناصر وعناصر أخرى من خارج القصر لابد من استبعادها فورا. وقلت له إننى أفضل أن أكون الآن بعيدا، وعليه هو أن يتخذ الإجراءات التى يراها ضرورية.

١١ ـ لابد أن أقول أننى استمتعت لأبعد مدى بوقائع هذه الليلة، ولقد راودنى الإغراء فى بعض اللحظات بأن أصر على تنازل الملك «فاروق»، ولكنى راجعت نفسى لأن مقتضيات الحذر ـ أقول ذلك مترددا ـ جعلتنى أترك له الفرصة لاستدعاء «النحاس». والحقيقة أنه لم يكن فى وسعى أن أرغمه على التنازل عن العرش لأنه تأخر فى استدعاء «النحاس» وفق ما طلبت منه فى إنذارى مدة ثلاث ساعات ـ أى من الساعة السادسة كما طلبت إلى التاسعة كما حدث فعلا!

ولم يكن فى وسعنا أن نبرر سياسيا طرده على هذا الأساس أمام الرأى العام المصرى أو الأجنبى. زيادة على ذلك فقد كان فى اعتبارى عندما ذهبت إلى القصر أنه من واجب الجانب المدنى للسلطة البريطانية هنا فى مصر، أن لا تتسبب فى اى حرج للقيادة العسكرية التى تعاونت معى بطريقة نبيلة طول الوقت. وعلى أى حال فقد كان مسليا أن أرى نزول الملك على طلباتنا الأصلية دون قيد أو شرط، وهو ما أعتبره نصرا كاملا.

١٢ ـ فى الختام لابد أن أسجل تقديرى الشديد للصلاحيات التى أعطيتموها لى بالتصرف، كما أننى أشيد بحكمة وقوة التأييد الذى أعطاه لى وزير الدولة طول الوقت.

٤ فبراير ـ مساءً.

عندما وصلت إلى السفارة كان فى انتظارى كثيرون ينتظرون معرفة النتيجة والتفاصيل، وكان بينهم وزير الدولة (أوليفر ليتلتون)، الذى أعرب عن سعادته بما توصلنا إليه رغم أنه أثناء غيابى فى المهمة التى ذهبت إليها ساءل نفسه عما إذا كان قد جعلنى أتردد فى عزل الملك عندما أبدى بعض التحفظ (بسبب تشككه فى «النحاس» باشا)، وقلت له أننى لم آسف طوال حياتى حتى الآن ـ إلا لأن الملك استسلم بهذه السرعة، فقد كنت أتمنى أن يعاند وأن نتخلص منه. وعلى أى حال فاعتقادى أننى تصرفت بحكمة فى الظروف الراهنة. «إن الولد مازال فى مكانه، لكنه أخذ صدمة عمره بمجىء النحاس إلى الحكم بهذه الطريقة، واعتقادى أننا قصقصنا أجنحته ولن يستطيع أن يطير لمدى طويل».

انضم إلينا «والتر مونكتون» (مساعد وزير الدولة القانونى الذى كتب وثيقة التنازل)، وواصلنا الكلام لبعض الوقت ثم انصرف الجميع راضين، لكنه كان علىَّ أن أسهر إلى ساعة متأخرة من الليل لأكتب تقريرى إلى وزارة الخارجية.

الخميس ٥ فبراير ١٩٤٢.

اتصل بى «حسين سرى» تليفونيا قبل الساعة التاسعة صباحا وسألته عن ردود فعل ما وقع بالأمس، قال إنه يخشى أنه لم يكن هناك سبيل آخر. وروى لى أنه وصل إلى القصر فى الساعة التاسعة والنصف مع عدد آخر من الزعماء الذين دخلوا وسط طوابير القوات البريطانية التى كانت تحاصره. وهو يقدر «أن الولد أفلت بمعجزة»، لكنه يعتقد أن ما جرى كان الحل الأفضل. رأيه «أن الملك سعى وراء المشاكل ونال نصيبه منها». وسألته إذا كان الملك قال شيئا آخر، وأجاب بالنفى، وقلت إننى سوف أحكى له التفاصيل فيما بعد. نزلت من الطابق الأعلى إلى المكتب واستدعيت «أمين عثمان» لحديث عام ضغطت خلاله على فكرتين طلبت منه أن يزرعهما to plant them فى عقل «النحاس» من البداية.

الفكرة الأولى: أن يقنع «النحاس» بالعمل على تعيين «حسين سرى» رئيسا للديوان بدلا من «حسنين».

والفكرة الثانية: العمل على نقل «حسنين» ليصبح رئيسا للتشريفات وهو مؤهل لهذه الوظيفة أكثر من رئاسة الديوان.

وقال «أمين» «إنه سوف يعمل وفق ما طلبت، ولكنه سوف يوحى للنحاس بأن هذه الأفكار من عنده هو وليس من عندى». ووافقت.

وقلت لأمين بعد ذلك أن المهمة الأولى أمام «النحاس» أن يعمل على نقل «عبدالوهاب طلعت» وكيل الديوان الملكى من القصر، وكذلك إقصاء كل الإيطاليين العاملين فى خدمة الملك. وأبلغته أهمية إفهام «النحاس» أن هذه تعليمات لندن ولا ينبغى أن تكون موضع مناقشة.

الخميس ٥ فبراير ـ ظهرا.

تلقيت البرقية التالية من «أنتونى إيدن» (وزير الخارجية) وقد سعدت بها، نصها:

«أهنئك بحرارة. النتائج تشهد لك بالحزم وتؤكد ثقتنا فيك». أنتونى

شىء جميل! rather nice

المارشال «مونتجمرى» قائد معركة العلمين وبجانبه السير «مايلز لامبسون»



بن لادن ليس هتلر

قانون الطوارئ الأمريكي إرهاب ضد الإرهاب

بروس إكرمان

شئتم أم أبيتم، سوف تتكرر الهجمات الإرهابية في وقت ما من مستقبلنا. فقد اختل ميزان التكنولوجيا وجعل بإمكان فريق صغير من المتعصبين إلحاق الدمار في آخر مكان كنا لا نتصور أن يحدث له ذلك - ولن تكون طائرة في المرة المقبلة، بل قد تكون قنبلة نووية في حقيبة سفر، أو إلقاء السموم الحيوية في مصادر المياه. إن هجوم الحادي عشر من سبتمبر نموذج مقولب لأحداث مشابهة سوف تقع بكثرة في القرن الحادي والعشرين. ولابد أن ننظر للأمر بروح تكهنية؛ فما هو الذي يمكننا تعلمه ويتيح لنا التصرف بطريقة أكثر ذكاء في المرة المقبلة؟

وإذا كان رد الفعل الأمريكي هو المرشد، فمطلوب منا على وجه السرعة وضع مفاهيم دستورية جديدة للتعامل مع حماية الحريات الشخصية. وما لم نفعل ذلك، فستهددنا دورة الانحدار. وبعد كل هجوم ناجح، سوف يخرج علينا الساسة بقوانين رادعة ويعدوننا بقدر أكبر من الأمن - لنجد أن مجموعة إرهابية أخرى تنجح في توجيه ضربة بعد ذلك ببضع سنين. وسوف توجد هذه الكارثة بدورها طلباً على المزيد من القوانين الرادعة. وهكذا تستمر الدورة. وحتى لو شهد نصف القرن المقبل أربع أو خمس هجمات بحجم ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر، فسوف يثبت أن هذه الدورة التدميرية فيها قضاء على الحريات المدنية بحلول عام ٢٠٥٠.

ومن المغري الرد على هذا التوقع القاسي بدفاع مطلق عن الحرية التقليدية؛ فبغض النظر عن عظم ما يستتبعه ذلك من ذعر، لابد أن نصر على الحماية الشديدة لكل الحقوق في كل الأوقات. وأنا أحترم وجهة النظر هذه، غير أني لا أشارك فيها. إذ لا يمكن لحكم ديمقراطي الحفاظ على الدعم الشعبي بدون العمل بفاعلية لتهدئة الذعر والسعي للحيلولة دون وقوع ضربات إرهابية في المستقبل. وإذا كان الاحترام المتزمت للحريات المدنية يتطلب شل حركة الحكم، فلن يتردد أي سياسي جاد قبل التضحية بالحقوق من أجل محاربة الإرهاب. وسوف يحظى بالتأييد الشعبي بتنحيته اعتراضات المدافعين عن الحريات المدنية جانباً، لكونها دون كيشوتية الطابع.

ولتجنب دورة القمع المتكررة، لابد للمدافعين عن الحرية أن يفكروا في مبدأ أكثر واقعية، يسمح بإجراءات طوارئ قصيرة المدى، ولكنه يحول دون القيود الدائمة. وفوق هذا وذاك، لابد لنا من منع الساسة من استغلال الذعر العابر لفرض قيود على الحريات تدوم طويلاً. ووضع نظام دستوري من أجل حالة طوارئ محدودة، عمل يستلزم الحرص. فلو لم تتخذ الاحتياطات المدققة، فإن من عادة إجراءات الطوارئ أن تستمر أكثر مما تدعو إليه الحاجة بكثير. ولا ينبغي السماح للحكومات بأن يجن جنونها حتى أثناء الطوارئ؛ إذ ينبغي أن يظل الاقتراب من كثير من الإجراءات المتطرفة محظوراً. ومع ذلك فإن التصميم الواعي لنظام الطوارئ قد يكون كذلك أفضل دفاع متاح في مواجهة دورة التدمير الدائم التي يحركها الذعر.

والشيء الواضح الوحيد هو أنه لن تكون هناك فرصة لأي رد يجري تكييفه بحرص، ما لم نقف على مسافة محسوبة بدقة من لغة اللحظة الآنية السائدة. فقد جعل جورج بوش وتوني بلير من «الحرب ضد الإرهاب» سلاحاً سياسياً قوياً؛ ولكن لغة الحرب هذه على وجه الدقة هي أصل المشكلة. فيمكنك إن شئت تسمية المناوشات التي وقعت مؤخراً في أفغانستان «حرباً»، ولكن إياك والخلط بينها وبين صراعات القرن العشرين الحاسمة. ذلك أن غلالة من الضباب تهبط بمجرد افتراض أن الحادي عشر من سبتمبر بداية حرب جيلنا ضد هتلر. ففي ظل ذلك الافتراض يبدو من الطبيعي أن يفرض من هم على شاكلة بوش وبلير قيوداً على الحرية كتلك التي تغاضى الناس عنها أثناء الحرب العالمية الثانية.

إلا أن هذا يشوه الملامح الأساسية لوضعنا الراهن. فأدولف هتلر لم ينتقد انحطاط الغرب الأخلاقي بأفلام الدعاية وحسب، كما فعل أسامة بن لادن. بل وقف على رأس جيوش تضم ملايين الجنود بهدف الغزو التام. ومع أن الجماعات الإرهابية قادرة على شن هجمات في الخفاء، فهي غير قادرة على متابعة الانتصارات الحربية المستدامة. وفي الوقت نفسه، فإن «الحرب ضد الإرهاب» قد تقتضي في النهاية ثمناً أكثر خطورة من الحريات المدنية. ورغم ما اتسمت به القيود التي فرضت إبان الحرب العالمية الثانية من قسوة، فقد كانت مؤقتة كذلك. بينما الحرب ضد الإرهاب لا يعرف لها أحد نهاية - ذلك أن الجماعات المنشقة المختلفة، في الداخل والخارج، تحصل عرضاً على تكنولوجيات جديدة ذات أثر مدمر.

ونحن الآن لا علم لنا بعد بمدى نجاح المؤسسات الأمريكية في تعريض حديث الحرب الطارئ للنقد المستدام على مدى السنوات القليلة المقبلة. وإذا حظيت كل الإجراءات المغالي فيها التي أعلنتها حكومة بوش بالدعم في المحاكم، فسيكون الهبوط السريع قد بدأ بداية جادة. إلا أنه من غير المؤكد بحال من الأحوال أن يصدع القضاة بما يؤمرون. كما أن تشريع الكونجرس الأخير الخاص بالإرهاب تتباين الرسائل الصادرة عنه. فمع أنه يطرح مبادرات سيئة كثيرة، فهو يتضمن كذلك بدايات الاعتراف بأن حالة الطوارئ المحكومة بعناية قد تكون أفضل أمل للحريات المدنية في القرن الحادي والعشرين.

وكان رد الفعل المبدئي تجاه الحادي عشر من سبتمبر معتدلاً لدرجة تدعو للثناء. فرغم كل ما قاله الرئيس بوش عن «حملات» ضد «الشرير»، فقد حصل من الكونجرس على منحة محدودة من سلطة «استخدام كل قوة ضرورية ومناسبة ضد تلك الدول أو المنظمات أو الأفراد الذين يقرر هو أنهم خططوا للهجمات التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أو صرحوا بها، أو ارتكبوها، أو أعانوا على القيام بها». ولأن هذا القرار الصادر عن الكونجرس ركز على حدث واحد، ومنح فقط سلطة استخدام «قوة ضرورية ومناسبة»، فإنه يقل كثيراً عن إعلان الحرب التقليدي. وبدون الإعلان صراحة عن حالة الطوارئ المحدودة، نجده يشير إلى ذلك الاتجاه، وربما أمد المحكمة العليا بموارد قانونية لازمة للحد من بعض إجراءات الحكومة التي تفتقر إلى الحكمة.

ولكنه لن يمدها بكل الموارد. فرغم غياب الأساس القانوني، كان حديث الحكومة الدائم عن «الحرب ضد الإرهاب» سلاحاً سياسياً فعالاً، حيث يمارس أحياناً في سياقات تروغ من المراقبة القضائية اللاحقة. وتشمل السياقات الأكثر إزعاجاً إدارة أخبار الرئاسة. فبعد غضب الإدارة من التغطية التليفزيونية لشريط بن لادن الأول، طالبت الشبكات بممارسة الرقابة الذاتية، بزعم أن الأشرطة التي لا يجري لها المونتاج قد تنقل رسائل سرية للإرهابيين. وهذا التفسير إهانة للاستخبارات الجماعية - فأي عضو يحترم نفسه من أعضاء القاعدة سوف يشاهد النسخة العربية لأحاديث بن لادن على الجزيرة، بدلاً من الثقة في تقرير «سي إن إن». ورغم ذلك، فقد بدأت الشبكات الكبرى بث المجهود الحربي بمقاومة ضعيفة جداً، حيث جاء التعديل الأول في المرتبة الثانية بعد الخوف من التنديد العلني من جانب الرئيس.

واستجابت الإدارة كذلك لموجات الأثير بـ «إنذارات إرهابية» متكررة للجمهور العام. ولا تتضمن هذه الإنذارات أية معلومات مفيدة على الإطلاق، حيث لم تحدد الأهداف أو المناطق المحددة المعرضة للخطر. وكان غرضهم الوحيد هو الحماية الذاتية البيروقراطية في حال تكرر الهجوم. وعند ضم هذه الإنذارات التي لا أساس واضحاً لها إلى الرقابة الذاتية الإعلامية، فإنها قد تولد على الفور سلسلة متصلة الحلقات من الهستيريا الجماهيرية.

ولحسن الحظ أن هذا ليس هو ما يحدث. ففشل القاعدة في توجيه ضربة ثانية، إلى جانب الانتصار السريع في أفغانستان، يهدئ الأوضاع. ولم تحصد الجمرة الخبيثة ما يكفي من الأرواح لدفع الجماهير من على الحافة لتسقط في هاوية الذعر. وربما كانت لدينا فرصة لمراجعة رد الفعل الحكومي تجاه الحادي عشر من سبتمبر في فترة من الهدوء النسبي، واتخاذ الخطوات للحد من الأضرار في المرة التالية.

وكانت البداية هي الإجراءات الأمنية التي اتخذها النائب العام أشكروفت لملاحقة المشتبه فيهم، وشملت ما لا يقل عن ١١٨٢ شخصاً مشتبهاً فيهم. ويبدو أن محصلة الملاحقة كانت متواضعة. والشخص الوحيد الذي اتهم بالمشاركة بشكل مباشر في الهجوم - وهو زكريا موسوي - ألقي القبض عليه قبل الحادي عشر من سبتمبر، والقليل جداً من المعتقلين اعتبروا شهوداً ماديين. ومع ذلك فأنا لا ألوم قرار أشكروفت المبدئي. فقد فشلت أجهزة الاستخبارات فشلاً تاماً في التنبؤ بوقوع هجوم الحادي عشر من سبتمبر، وربما أربكت الملاحقة أي هجوم ثان، كما أنها لم توفر الكثير من المعلومات اللازمة.



وسلوك أشكروفت التالي أمر آخر. فبعد أكثر من أربعة أشهر من الحادي عشر من سبتمبر، لم تكن الحكومة قد حددت بصورة علنية كل المشتبه فيهم الذين ألقي القبض عليهم أثناء ملاحقتها. والاعتقالات السرية سمة من سمات الطغيان؛ فهي مخالفة لأسس الأسلوب الدستوري الصحيح. كما طالب أشكروفت بسلطة التنصت على مكالمات بين المعتقلين والمحامين، في حال وجود «شك معقول» في أن تلك المكالمات «قد... تسهل الحصول على حقائق عن الإرهاب». ويمثل هذا اعتداء على الحصانة القديمة للمحامي وموكله التي يكفلها الدستور. وردت وزارة العدل على طلبه بأن طمأنتنا بقولها إن لجاناً خاصة من محاميها سوف تقيم الأشرطة، تحذف كل المادة التي تدخل ضمن حصانة المحامي وموكله. ولكن الوزارة تشترط عدم حدوث أية مراجعة خارجية لإجراءاتها الداخلية. وهذا ليس كافياً كفاية واضحة. فلا يمكن لنظام الخصومة أن يعمل بنزاهة عندما يكون المتهم موضوعاً تحت رحمة التحقيق بهذه الطريقة غير المسبوقة.

وكان هناك ما هو أسوأ من ذلك. فمع اقتراب الحرب من نهايتها، أكد الرئيس سلطته، باعتباره قائداً عاماً، للالتفاف على المحاكم العادية وعقد محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة ومعاقبة الإرهابيين الغرباء. ولم تصدر بعد القواعد التنظيمية النهائية، إلا أن صحيفة «نيويورك تايمز» تشير إلى أن الجيش يحتفظ بحق حجب الإجراءات القانونية عن الجمهور إذا اقتضى الأمن القومي ذلك. ولن يسمح للمتهمين بالتقدم بطلبات تخفيف الحكم للقضاة المدنيين. وقد يفرض حكم الإعدام بتصويت أربعة من أعضاء اللجنة التي تضم خمسة من ضباط الجيش.

وحتى إذا كان هذا النظام مدخراً للمقاتلين الأعداء الذين يقعون في الأسر على أرض المعركة، فإنه مخالف لالتزامات البلاد الدولية. فطبقاً لما تنص عليه اتفاقية جنيف، فإن على أية دولة أن تستخدم لمعاقبة أسرى الحرب



**من عـادة إجــراءات الطــوارئ
أن تستمر أكثر مما تدعــو إليه الحاجــة بكثير.
ولا ينبغى السماح للحكومات بأن يجن جنونها حتى أثناء الطوارئ.
إذ ينبـغى أن يظل الاقـتـراب من كـثـير من الإجـراءات المتطرفـة محظوراً.
ومـع ذلك فإن التصميم الواعى لنظام الطــوارئ، قد يكون كذلك
أفضــل دفــاع متــاح فى مواجهــة دورة التدمير
الدائــم التى يحــركها الذعــر**

الأســرى الأفغـــان فى معتقـــل جـــوانتانامو

نفس الإجراءات التى تستخدمها لمعاقبة جنودها. ولكن الجنود الأمريكيين يمكنهم التقدم بطلبات لتخفيف مدد عقوبتهم إلى محكمة مستقلة تضم قضاة مدنيين يقومون فى الواقع بعمل لا بأس به، محافظين على سلامة النظام. والرئيس بإزالته هذا القيد الأساسى، يخطو خطوة ضخمة للخلف، إلى وقت كان فيه تناقض بين لفظتى «القضاء العسكرى» (ويتضح التناقض فى الأصل الإنجليزى military justice الذى يعنى حرفياً العدالة العسكرية، وبذلك يكون التناقض بين العدالة والعسكرية).



ولتحاشى المخالفة الصارخة للقانون، لجأت وزارة الدفاع إلى اللعب بالكلمات ـ حيث تسمى الأسرى الذين تشحنهم إلى خليج جوانتانامو «مقاتلين غير شرعيين» وليس «أسرى حرب». ورأى المدافعون عن الحكومة أن هؤلاء «المقاتلين» غير مؤهلين للحماية طبقًا لأحد بنود الاتفاقية الذى يشترط ارتداءهم لشارة مرئية، وحملهم للسلاح صراحة، وامتلاكهم لهيكل قيادى، والتصرف طبقًا لقوانين الحرب. ولكن هذه الشروط تنطبق فقط على جماعات معينة من رجال حرب العصابات غير النظاميين وغير المدمجين فى قوات البلاد المسلحة. وتحمى اتفاقية جنيف، طبقًا لما تنص عليه بوضوح، وبلا قيد أو شرط «أى فرد من أفراد القوات المسلحة يدين بالولاء لأية حكومة أو أية سلطة» حتى «لو لم تكن السلطة المعتقلة تعترف بها». ومن المؤكد أن جماعات طالبان والقاعدة المسلحة «تدين بالولاء» للملا عمر وغيره من السلطات فى إمارة أفغانستان الإسلامية. فلماذا هم غير مؤهلين لأن يكونوا «القوات المسلحة النظامية» لتلك الحكومة؟ كما تنص معاهدة جنيف على أنه «فى حال وجود أى شك» فيما يخص وضع أى أسير، فإن «هؤلاء الأفراد يتمتعون بحماية المعاهدة الحالية لحين تحديد إحدى المحاكم المختصة لوضعهم». ومن الواضح أن على محامى الحكومة القيام بعمل ما، وأن على الحلفاء الأوروبيين دعمهم على أعلى مستويات الجدل القانونية.

إلا أن الرئيس لا يفرض نظامه الهش على الجنود الذين أسروا على أرض المعركة وحسب، بل إنه يؤكد سلطة عقاب أى فرد غير مواطن ـ وهو ما يشمل عشرات الملايين من المهاجرين الشرعيين ـ يخالف فهمه العريض، وغير المحدد تحديدًا جيدًا، لـ«قوانين الحرب». والسؤال العملى هو إذا ما كانت المحكمة العليا ستسمح له بأن يفلت بهذا التأكيد غير العادى للسلطة أم لا. وكان للمحاكم العسكرية وقع متباين فى الماضى. فإبان الحرب الأهلية، ألقى القبض على المتعاطفين الكونفدراليين المسلحين وهم يخططون لتعطيل أعمال مؤتمر الحزب الديمقراطى وإطلاق سراح ثمانية آلاف أسير كونفدرالى فى كامب دوجلاس القريب. وعقد لنكون محكمة عسكرية لمعاقبة هؤلاء الرجال، ولكن المحكمة العليا منعت ذلك الإجراء تمامًا. وتكررت المؤامرة فى إنديانا، التى لم تكن منطقة حرب. وبما أن المحاكم المدنية كانت تعمل، فقد طالب القضاة بالإجماع الرئيس برفع الأمر إلى المحاكم العادية. ويظل قرارهم هذا، المتحيز لرأى ميليجان، سابقة قانونية قوية.



ولا بد من قراءة هذه القضية مع قضية أساسية أخرى عرضت على المحكمة إبان الحرب العالمية

الثانية. فبعد ستة أشهر من ضرب بيرل هاربر، أنزلت غواصة ألمانية ثمانية من مشاة البحرية الألمان على السواحل الأمريكية لتنفيذ مهام تخريبية. وأمر الرئيس روزفلت بأن تحاكمهم محكمة عسكرية سرية. وبعد أن عقدت المحكمة العليا جلسة خاصة مستعجلة لسماع المناقشة الشفوية، تداولت ليوم واحد قبل تأييد الرئيس تحيزًا لرأى كويرين، مع تأجيل إبداء الرأى لوقت لاحق. وعندما تولى كبير القضاء ستون مهمة الكتابة، قدَّر مدى صعوبة تبرير قرار المحكمة الأهوج - مشبهًا جهده بـ«كبح جماح شهوة الجسم». ولكن ما من سبيل للتراجع. وبينما كان ستون يجهد نفسه فى كتابة رأيه، كان ستة من الثمانية قد أعدموا - مما جعل تغيير المحكمة لرأيها - دون أن تدين نفسها وكذلك الرئيس - مستحيلاً.

اقتل الآن، ثم وضح السبب لاحقًا: لا يمكن لمؤمن بحكم القانون أن يفخر بقصة كويرين. وعذر القضاة الوحيد، إن كان لهم أى عذر، هو أن الكونجرس كان قد أعلن رسمياً حربًا شاملة ضد الألمان، وأن روزفلت ربما ما كان ليطيع أى أمر آخر (أو هكذا أسرَّ لرفاقه). ولكن التهوين من شأن الانهيار القضائى فى قصة كويرين شيء، والسماح بالحديث الفضفاض عن «الحرب ضد الإرهاب» لتوسيع دائرة تأثير القضية الضار شيء آخر. وكما رأينا، فإن الكونجرس لم يصدر أى شيء من قبيل إعلان الحرب التقليدى رداً على ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر. وكل ما فعله هو تخويل الرئيس سلطة الاستخدام «الضرورى والمناسب للقوة». وفى هذا السياق فإن قضية ميليجان وما شابهها من قضايا تمثل الأسلوب الأصح. والمحاكم المدنية مفتوحة للعمل وقادرة على التعامل مع قضايا الإرهاب بشكل صحيح وبطريقة عادلة ومسئولة. وقد أدى أحد القضاة الفيدراليين مؤخراً عملاً لا بأس به فى محاكمة العقل المدبر لهجوم سابق على مركز التجارة العالمى؛ ورغم حديث حكومة بوش الذى يعطى الأولوية للعمل العسكرى، فقد عاد من جديد إلى المحاكم المدنية سعياً وراء إدانة زكريا موسوى، «الإرهابى العشرين» المشتبه فيه. وفى ظل قدرة المحاكم العادية الثابتة، يصبح اللجوء إلى المحاكم العسكرية لا هو «ضرورى» ولا «مناسب»، ومهمة المحكمة العليا توضيح ذلك.



إن الاعتقالات السرية، وتدمير سرية العلاقة بين المحامى وموكله، والمحاكم العسكرية، جميعها خطوات لا تتناسب بالمرة مع حالة الطوارئ المحدودة التى أوجدها ما وقع فى الحادى عشر من سبتمبر. بل إن الرئيس اتخذ تلك الإجراءات من جانب واحد، مما يجعلها عرضة للهجوم إلى حد كبير. ولأسباب ديمقراطية وجيهة، فإن المحكمة العليا أكثر استعدادًا لإبطال أية إجراءات تنفيذية لم يوافق عليها الكونجرس موافقة رسمية.

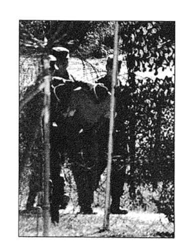
ولكن الكونجرس أبدى نشاطًا على جبهات أخرى، حيث أقر لائحة جديدة مضادة للإرهاب بعد ستة أسابيع من سقوط البرجين التوءم. وعندما أجبر الخوف من الجمرة الخبيثة الكثير من الأعضاء على الخروج من مكاتبهم، وكان احتمال الضربة الإرهابية الثانية يبدو قوياً، لم يكن هناك وقت أسوأ للتفكير من خلال التشريع. ولذلك دهشت إلى حد ما عندما لمس مقال لى نشر فى «لوس انجلوس تايمز» وترًا حساسًا فى واشنطن العاصمة. فقد اقترحت أن يتضمن أى قانون مضاد للإرهاب شرطًا يقضى بانتهاء أجل العمل باللائحة بعد عامين من بدئه. وبعد فترة قصيرة، تبنى تحالف حر من الجمهوريين اليمينيين والديمقراطيين اليساريين القضية ونجحوا فى إلحاق شرط انتهاء أجل العمل باللائحة بعد عامين إلى مشروع قانون المجلس - وهو عمل مشهود فى مجلس نواب يسيطر عليه الزعماء الجمهوريون ويتعرض لضغط كبير من جانب بوش بشأن هذه المسألة. وكانت الأمور تبدو تبشر بالخير بالنسبة لشرط العامين حين انتقل مشروع القرار إلى مجلس الشيوخ، حيث الديمقراطيون هم الأغلبية؛ فمن المؤكد أنهم سيكونون على نفس قدر مجلس النواب الجمهورى فى حمايتهم للحرية.

ولكن لنتمهل قليلاً. فقد رضخت القيادة الديمقراطية أمام ضغط الحكومة وأسقطت الشرط من نسخة مجلس الشيوخ، حرصًا منها على تحاشى اتهامها بأنها «متراخية مع الإرهاب». وقد أبقت اللائحة الجديدة، كقانون يعمل به، على انتهاء أجل العمل ببعض بنودها - وليس كلها - بعد أربع سنوات.

وسوف يقضى هذا الإنهاء الجزئى بمرور الزمن على بعض ملامح القانون الأكثر سوءًا. ولنفكر ملياً فى المحكمة الفيدرالية الخاصة التى تُتهم منذ عام ١٩٧٨ بالإشراف على عمليات تجسس على عملاء القوى الأجنبية. وهؤلاء القضاة الذين اختارهم كبير القضاة بصفة خاصة ويعقدون جلساتهم فى سرية تامة، جمعوا سجلاً ضخمًا من التصريح بالتنصت وغيره من أشكال المراقبة السرية - حيث منحوا عشرة آلاف إذن ورفضوا إذنًا واحدًا فقط على مدى العشرين سنة الماضية. ورغم انتهاء الحرب الباردة، فإن هذه الأذون فى تزايد - حيث كانت ٥٤٦ إذناً فى عام ١٩٨٩ وصارت ١٠٠٥ فى عام ٢٠٠٠.

ولم تقيِّم المحكمة العليا دستورية هذه المحكمة، التى لا يعلم بأمرها إلا القليل، تقييمًا جاداً. وتجعل اللائحة الجديدة ذلك أمرًا واجب الحدوث، حيث إنها وسعت مجال اختصاصات المحكمة السرية بصورة كبيرة. وفى ظل القانون القديم، كان بإمكان المحكمة إصدار الإذن فقط إذا كان «الغرض» هو الاستخبارات الأجنبية. أما الآن فمن الممكن الحصول على تلك الأذون من أجل التحرى الجنائى العادى لمجرد ادعاء أن الاستخبارات الأجنبية «غرض مهم» وإضافى من أغراض المراقبة. وطبقًا لسجل المحكمة، فإن الطريق مفتوح أمام زيادة ضخمة فى التدخل الحكومى. وهذا بند مرعب، غير أن تحديد أجل العمل به ينهى فاعليته فى نهاية عام ٢٠٠٥.

وتبقى الأفكار السيئة الأخرى. فغير المواطنين المشاركين فى «أنشطة إرهابية» يُرحَّلون الآن، ويشمل «الإرهاب» أية جريمة تنطوى على استخدام «سلاح أو جهاز خطير (غير الذى يستخدم لمجرد تحقيق الكسب المادى الشخصى)». وفى ظل هذا التعريف، فإن خناقة فى أحد البارات كافية لتدمير حياة مهاجر مضى عليه زمن طويل فى البلاد وله جذور عميقة فى مجتمعه المحلى. ويؤسفنى أن أقول إن هذا



لتحاشى المخالفة الصارخة للقانون، لجأت وزارة الدفاع إلى اللعب بالكلمات. حيث تسمى الأسرى الذين تشحنهم إلى خليج جوانتانامو «مقاتلين غير شرعيين» وليس «أسرى حرب». ورأى المدافعون عن الحكومة أن هؤلاء «المقاتلين» غير مؤهلين للحماية طبقاً لأحد بنود الاتفاقية الذى يشترط ارتداءهم لشارة مرئية، وحملهم للسلاح صراحة، وامتلاكهم لهيكل قيادى، والتصرف طبقًا لقوانين الحرب

الاتهام العشوائى للمهاجرين أمر يتميز به هذا التشريع. وهذه البنود، التى هى الآن جزء ثابت فى القانون الأمريكى، لم تكن تنتمى إليه فى بادئ الأمر.

وسوف يعيد انتهاء أجل العمل بتلك البنود القضية برمتها إلى الكونجرس بعد أربع سنوات. وسوف تحاول وكالات الاستخبارات استدامة ما حققته مؤخراً من انتصارات، ولكن على المدافعين عن الحريات المدنية الاستعداد بردود الفعل البناءة. ولا بد أن تصرح مقترحاتهم المضادة بمجموعة من إجراءات الطوارئ المقيدة تقييدًا حريصًا لفترة قصيرة من الزمن - ولتكن ثلاثة أو ستة أشهر. وعلى الرئيس أن يحصل قبل إعلانه حالة الطوارئ المحدودة على أغلبية فى مجلسى النواب والشيوخ. ولا بد أن يكون مد العمل بقانون الطوارئ لفترات إضافية أصعب مما هو عليه الحال الآن. وقبل أن يحدث هذا، يجب مطالبته بالحصول على الأغلبية العظمى داخل الكونجرس، على أن تزيد النسبة المئوية اللازمة للموافقة مع كل طلب للمد - من الثلثين إلى ثلاثة الأرباع إلى أربعة الأخماس. وتوفر الأغلبية العظمى، إلى حد كبير، ضمان عدم تطبيع نظام الطوارئ، فى ظل إغراء الحزب الموجود فى الحكم بمدها إلى ما لا نهاية.



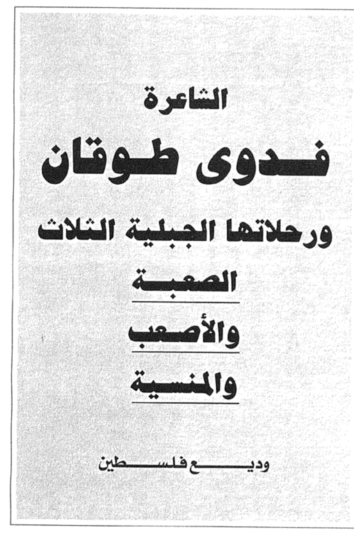
ولكن التفكير القانونى الخلاَّق لن يكون كافيًا لوقف دورة التشريع القمعى. فنحن بحاجة إلى خيال سياسى كذلك. والمدافعون عن الحرية موجودون على اليمين وعلى اليسار. وكما تبين قصتى عن تحديد أجل العمل بالقانون، فإن التحدى هو تنظيم تحالف يجمع بين اليمين واليسار ضد أصدقاء السلطة. فقد حدثت أمور غريبة فى السياسة، ومن أجل قضايا أقل نبلاً.

وتؤثر أوروبا بالفعل فى هذه الديناميكية السياسية. وقد حد رفض الحكومة الإسبانية تسليم الإرهابيين المشتبه فيهم من تحمس حكومة بوش للمحاكم العسكرية. وساعدت الجنسية الفرنسية التى يحملها «المتهم العشرون» فى إقناع النائب العام بمحاكمة زكريا موسوى فى محكمة مدنية - ذلك أن ثمن استعداء الحكومة الفرنسية غال جدًا.

وفى المستقبل، لن تكفى هزِيمة المقترحات التى تهدد بإلحاق ضرر دائم بالحريات المدنية. وسيكون على الأوروبيين تولى الريادة فى وضع حلول بناءة أكثر. ومن الأحكم بكثير التفكير فى تشريع يخلق نظام طوارئ محدوداً بشكل معقول قبل أن تصبح لندن أو باريس هى الهدف، وليس بعد ذلك. وينبغى أن تكون الغاية الأكثر أهمية هى العمل بلائحة لا تتضمن قيودًا مؤقتة صارمة وحسب، وإنما تشترط أغلبيات تشريعية عظمى لمد أجل العمل بقانون الطوارئ. وسوف يكون لأى قانون هيكلى يخرج من أية دولة أوروبية تأثير عالمى. وسوف يساعدنا على رؤية «الحرب ضد الإرهاب» على حقيقتها؛ أى مجاز مبالغ فيه يحول دون التفكير المسئول فى مشكلة خطيرة. ■

ترجمة: أحمد محمود

عن مجلة: London Review of Books



الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان هي - دون منازع - شاعرة متفوقة اكتملت لها أدواتها الشعرية من موهبة وإلهام ودراسة ومثابرة على مدى سنوات طويلة قررت لها منزلة رفيعة في دنيا الشعر العربي بدواوينها الستة التي صدرت منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن وهي: «وحدي مع الأيام» و«وجدتها» و«أعطنا حبًا» و«على قمة الدنيا وحيدًا» و«أمام الباب المغلق» و«الليل والفرسان» و«تموز والشيء الآخر»، كما صدر لها كتاب نثري عن شقيقها الشاعر إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) عنوانه «أخي إبراهيم»، وكذلك سيرتها الذاتية في جزءين عنوان أولهما «رحلة جبلية، رحلة صعبة»، وعنوان الثاني «الرحلة الأصعب». ولأن سيرتها الذاتية اعتمدت على الذاكرة وعلى الأوراق المتاحة لها، فقد فاتتها أشياء لها أهميتها من الناحية الأدبية، فقام باستدراكها الأديب الأردني الدكتور يوسف بكار في كتاب أسماه «الرحلة المنسية - فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية: دراسة ونصوص». ونتناول في هذه السطور هذه الرحلات الثلاث التي تتكامل بفضلها صورة الشاعرة فدوى طوقان في جميع مراحل حياتها.

الرحلة الصعبة

ولدت فدوى طوقان في مدينة السلط بفلسطين، وذلك - حسب اعترافها - بعد محاولات يائسة من أمها لإجهاض نفسها عندما كانت تحمل فيها. فقد رزقت قبلها بخمسة من الذكور وأنثى وكانت فدوى السابعة في ترتيب الأشقاء، ورزقت بعدها بذكر وأنثيين فاكتمل عددهم عشرة.

وعندما كبرت فدوى سألت أمها عن تاريخ مولدها فأجابتها بقولها «كنت يومها أطهو (عكوب - وهو طعام فلسطيني)، وهذه هي شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها. لقد أنسيت الشهر والسنة، ولا أذكر إلا أنني بدأت أشعر بآلام المخاض وأنا أنظف أكواز العكوب من أشواكها»! ثم استدركت قائلة: «أنا أدلك على مصدر موثوق حيث يمكن التيقن من عام ميلادك. فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل». وتقول فدوى: «لم يبق إلا أن أستخرج شهادة ميلادي من شاهد قبر! واتفقنا أن تصحبني أمي في ذلك اليوم التالي إلى المقبرة الشرقية حيث يرقد هناك ابن عمها الشهيد كامل عسقلان». ويؤكد الدكتور يوسف بكار أن كامل عسقلان استشهد في عام ١٩١٧ وهو التاريخ الأرجح لميلاد الشاعرة.

استشعرت فدوى طوقان منذ طفولتها المبكرة أنها شخص غير مرغوب فيه في الأسرة، فكانت تُعامل بجفاء شديد من والديها بحكم المجتمع المتزمت الذي كانت مدينة نابلس تعيش فيه. ولئن سمحا لفدوى بأن تذهب إلى مدرسة للبنات حيث تعلقت ببعض زميلاتها وبإحدى مدرساتها ووجدت في صحبتهن انفراجة روحية من حالة الانقباض التي كانت تستولي عليها في سجن البيت، فإن سعادتها لم تدم طويلاً، حيث قرر واحد من أشقائها إبقاءها في المنزل ومنعها من الخروج سواء إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر، اللهم إلا إذا كانت في صحبة سيدات الأسرة أو صديقات موثوق بهن. أما سبب هذه العقوبة الصارمة فهو أن غلامًا في السادسة عشرة من عمره لمح فدوى وهي في طريقها إلى بيت خالتها، فجرى نحوها وقدم لها عود فُلّ. ولكن كانت هناك أعين تتلصص عليها، وهذه قامت بإبلاغ الواقعة إلى شقيقها الشديد التزمت. وتقول فدوى إنه «دخل عليّ كزوبعة هائجة، وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين: العنف والضرب بقبضتين حديديتين، وكان يتمتع بقوة بدنية كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال. أصدر حكمه القاضي بالإقامة الجبرية في البيت حتى يوم مماتي، كما هددني بالقتل إذا أنا تخطيت عتبة المنزل.

وخرج من الدار لتأديب الغلام، فقبعت فدوى داخل الحدود الجغرافية التي حددها لها شقيقها وهي «ذاهلة مبخوعة لا تكاد تصدق ما حدث».

ومن مظاهر الاستبداد العائلي التي تعرضت لها الشاعرة أن ابن عمها الكبير رآها وهي ترتدي ثوبًا جديدًا ذات يوم، فقام بتمزيقه على الرغم من أن الثوب لم يكن يفتقر إلى الحشمة بحال من الأحوال، ولكن عيبه الوحيد أنه كان يكسبها مظهرًا جميلاً.

وتقول فدوى: «رحت كلما ازدادت تعاستي من القهر والكبت أزداد شعورًا بفرديتي وذاتيتي.. وكان شعوري بالاغتراب يتكثف، وبدأ إحساسي باستلاب أحلامي وأمانيّ وتطلعاتي الطموحة يتخذ صفة مرضية».

وكان طبيعيًا أن تفكر فدوى في الخلاص من هذا السجن، ولكن كيف؟ لقد فكرت في الانتحار باعتباره الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تمارسه من خلال الشخصية المستلبة. كانت تريد أن تعبر عن تمردها على الأهل بالانتحار، فهو الوسيلة الوحيدة المتاحة لها للانتقام من ظلم الأهل. فكانت تدخل المطبخ وبيدها علبة ثقاب وأمامها صفيحة الغاز، ولكنها كانت تخاف من الألم الجسماني الذي لا تطيق احتماله. وكثيرًا ما خطر لها أن تتناول السم، ولكن مَنْ يأتيها به؟ ناهيك عن كونه يسبب آلامًا عنيفة قبل الموت. ثم إن فدوى كانت تشفق على أمها من الأحزان المترتبة على الانتحار.

ولكن هذا التردد بين التمسك بالحياة والتخلص منها زايلها عندما فقدت كل أمل في الخلاص من سجن البيت. ولم تر مندوحة من ابتلاع محتويات زجاجة الإسبرين بكاملها، فأنقذها من الموت المحقق طبيب الأسرة.

وإذا كان المحيطون بفدوى طوقان قد أكرهوها على العزلة - «وأهلي هم سجني الذي أريد أن أفلت من أبوابه المغلقة» بحسب تعبيرها - فقد التمست السلوى في المطالعة، واستهواها الشعر بصورة خاصة، ولا سيما عندما وجدت من شقيقها الشاعر إبراهيم تشجيعًا لها وعطفًا عليها وتفهمًا لحالتها، وأصبح إبراهيم ملاذها الوحيد من الهموم المتعاظمة من حولها حيث أصبح إبراهيم - بحسب تعبيرها - «المصلح النفسي الذي أنقذني من الانهيارات الداخلية».



كانت فدوى قد وصلت إلى سن البلوغ، وهي تصف هذه المرحلة من حياتها بقولها «لفت نظري تفتح جسدي. خفت وخجلت، وأربكني نمو الصدر الذي أصبح ملحوظًا. فكنت أعمل على إخفاء هذا النمو. ورحت أراقب هذا الأمر كله بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل أستحق العقاب من أجله.. ولدى وصولي إلى تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئًا عن الحب على الإطلاق، فلم يكن هذا الموضوع مما يتناوله أفراد الأسرة على مسمع منّا نحن الصغار».

ولكن، عندما هلّ الربيع، عرفت فدوى هذا الشيء المسمى حبًا والذي «ظل يشرنق حول وجودي إلى ما لا نهاية. هنا جاء جواب السؤال الذي حرّمته عليّ أمي، جاءني محمولاً على زهرة فل عبقت رائحتها وعلقت بجدران قلبي، وصرت أستحضر ذكرى تلك الحادثة عشرات من الأعوام»، وعندما بدأت فدوى تنشر شعرها في مجلة «الرسالة» لمحررها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨) تمنت لو أن الغلام الذي أهداها عود فلّ قرأ هذا الشعر وأدرك أن فتاته شاعرة مشهورة.

وعلى الرغم من حياة الجفاف التي كانت فدوى تعيشها حيث كانت «أنوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه لا تجد لها متنفسًا مهما كان نوعه» - حسب تعبيرها - فإن عاطفة الحب لم تغادر خيالها وواقعها، وما أبلغ وصفها للحالة الوجدانية التي أحيت موات عاطفتها حيث قالت: «كانت مراهقتي العاطفية حادة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة. حب بالمراسلة. كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه.. كنت جائعة إلى شيء غير موجود. ضائعة. وحيدة. لا أملك شيئًا سوى

١ - رحلة جبلية، رحلة صعبة - سيرة ذاتية
فدوى طوقان
عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٥

٢ - الرحلة الأصعب - سيرة ذاتية
فدوى طوقان
عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٣

٣ - الرحلة المنسية: فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية - دراسة ونصوص
الدكتور يوسف بكار
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

هذا الخيال المشتعل.. ظل قلبى حديقة للحب لا تذبل أشجارها أبدًا.. فى لحظات الحب يحس الإنسان بإنسانيته تتكثف، يخرج من القطب الجليدى المعزول ويرحل إلى الوهج والإشراق».

وكان بعض الأدباء المصريين - ومنهم أنور المعداوى والشاعر إبراهيم محمد نجا (ولم تذكرهما فدوى بالاسم) - يراسلون الشاعرة ويبثونها لواعجهم ويوقظون مشاعرها دون أن تنسى لهم فرصة الالتقاء بها. فلما تهيأت لفدوى فرصة لزيارة مصر، التقت بهؤلاء الذين كانوا يراسلونها، وكان اللقاء عاديًا اقتصر على المصافحة الباردة بلا أى مشاعر، لقد قتل الزمن حرارة العاطفة وانطوت صفحة دون أن تذرف عليها دمعة.



أما رحلة فدوى مع الشعر فقد بدأت فى المدرسة عندما كانت تستظهر المقطوعات الشعرية المقررة ضمن المنهج، ثم عندما جاءها شقيقها إبراهيم ذات يوم بقصيدة أسمعها إياها وشرح لها مفرداتها ومعانيها وطلب منها أن تستظهرها على أن تلقيها عليه غيبًا فى المساء. وكان هذا الامتحان سهلاً نجحت فيه فدوى، إذ ألقت الأبيات من الذاكرة دون أن تلحن أو تتعثر.

وعندما وقعت فدوى على قصيدة للشاعرة العراقية رباب الكاظمى، وعمرها يقارب عمر فدوى لأنها من مواليد عام ١٩١٨، أعجبت بالقصيدة أيما إعجاب، فتفجرت موهبتها الشعرية للمرة الأولى، ووجهت أبياتًا إلى رباب ختمتها بقولها:

يا أيها الشعراء لا تقفوا أمام الشاعرات

بعد محاولات فى نظم الشعر، أزمعت فدوى طوقان أمرًا تكتمته عن شقيقها إبراهيم، فنظمت قصيدة بعثت بها بالبريد إلى مجلة لبنانية اسمها «الأمالى» كان يصدرها الدكتور عمر فروخ (١٩٠٦-١٩٨٧) بتوقيع «فدوى» دون بقية اسمها، فاحتفت المجلة بها ونشرتها، مما شجع فدوى على إرسال قصيدة ثانية إلى المجلة بتوقيع «دنانير»، فلقيت إعجابًا شديدًا من أديبين كبيرين هما خليل السكاكينى (١٨٧٨-١٩٥٣) وأبى سلمى عبد الكريم الكرمى (١٩٠٩-١٩٨٠) بعدما اكتشفا أن صاحبة هذا الشعر هى فدوى طوقان.

أصبح الطريق ممهدًا أمام فدوى، فقررت النشر فى مجال أوسع، واختارت مجلة «الرسالة» القاهرية لنشر قصائدها لأنها مجلة واسعة الانتشار فى العالم العربى، كما أن النشر فيها كان يعتبر شهادة على تميز الكاتب أو الشاعر. فرحب محررها أحمد حسن الزيات بقصائد فدوى وأصبح اسمها يندرج على غلاف المجلة بين أسماء كبار الأدباء مثل عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وعبد الوهاب عزام (١٨٩٤-١٩٥٩) وغيرهما، وكبار الشعراء كعلى محمود طه (١٩٠٢-١٩٤٩) ومحمود حسن إسماعيل (١٩١٠-١٩٧٧) وغيرهما.

وبلغ من إعجاب على محمود طه (شاعر الجندول) بشعر فدوى طوقان أنه أهداها ديوانه «ليالى الملاح التائه» مطرزًا بعبارات تقدير كريمة، وبادأها بالمراسلة - فاستجابت الشاعرة لهذه اللفتة من شاعر كبير، وأخذت تكاتبه بانتظام. ولكن عين الأهل الساهرة لم ترض عن هذه المراسلات، فأمرت بالكف عنها، ولم تكتف بذلك بل مزقت الصفحة التى تحمل عبارة الإهداء من ديوان على محمود طه! وحاولت فدوى أن تشرح موقفها للشاعر، ولكنها لم تتمكن، فمات وهو لا يعرف سبب الجفوة التى حدثت بينه وبين الشاعرة.

وفى عام ١٩٥٢ جمعت فدوى شجاعتها، وقررت نشر ديوانها الأول «وحدى مع الأيام» فى مصر، فاستقبله النقاد استقبالاً طيبًا، مما شجع فدوى على المضى فى الطريق الذى اختطته لنفسها، وهو طريق الشعر الذى تبثه أنينها وآمالها ورؤاها وأمنيات قلبها. وعندما رآها والدها تقتصر على الشعر الرومانسى دون أن تخرج من قوقعته إلى الشعر الحماسى، عاتبها على مسلكها ورغب إليها فى أن تتحول إلى الشعر السياسى الذى يخدم قضية بلادها. ولكنها قالت له إنها كانت دائمًا بمنأى عن الحياة السياسية، فكيف يتأتى لها أن تنفعل بأحداث لم تكن لها بها أى صلة. ثم إن بعض المتشككين فى شاعرية فدوى كانوا يعتقدون أن أخاها الشاعر إبراهيم هو الذى ينظم لها القصائد فتوقعها باسمها، فلما مات إبراهيم فى عام ١٩٤١ واستمرت الشاعرة تطلع على الناس بقصائدها، أدرك المتشككون أن فدوى لم تكن تختبئ وراء شبح إبراهيم.

ولكن الشاعرة لم تخرج تمامًا من القمقم القديم ومن حياة الحريم إلا عندما زارت إنجلترا فى عام ١٩٦٢ تلبية لدعوة واحد من أبناء عمومتها كان يدرس فى أكسفورد. وهناك التحقت ببعض المعاهد رغبة فى إتقان اللغة الإنجليزية، وأتيح لها فى عطلات نهاية الأسبوع أن تزور المتاحف والمكتبات والآثار، وأن تتريض فى الريف الإنجليزى، والمهم أنها أصبحت سيدة نفسها ليس لأحد عليها سلطان.

وقد أسهبت فدوى فى وصف حياتها فى إنجلترا، وتحدثت بعاطفة قوية عن زميل لها رمزت له بالحرفين الأولين من اسمه A.G. فهو الذى رافقها فى زيارات المتاحف وفى مشاهدة معالم لندن ومتنزهاتها وقصورها. وكم كانت فدوى تتمنى لو استطالت إقامتها فى بريطانيا، لولا أن الأحزان كانت تطاردها بما يشبه القدر المحتوم. ذلك أنها تلقت من أسرتها برقية تنعى شقيقها الأصغر الدكتور نمر طوقان الذى لقى مصرعه مع المليونير اللبنانى إميل البستانى فى حادث سقوط طائرة البستانى الخاصة بعد مغادرتها مطار بيروت. وكان الدكتور نمر - وهو طبيب يعمل فى جامعة بيروت الأمريكية - هو الشقيق المفضل لفدوى بعد وفاة شقيقها إبراهيم. فحزنت عليه أشد الحزن، وعجلت بالعودة إلى نابلس دون أن تودع زميلها A.G.

لقد كانت هذه الرحلة بحق رحلة جبلية صعبة أبدعت فدوى طوقان فى وصف تفاصيلها بصدق وأمانة.

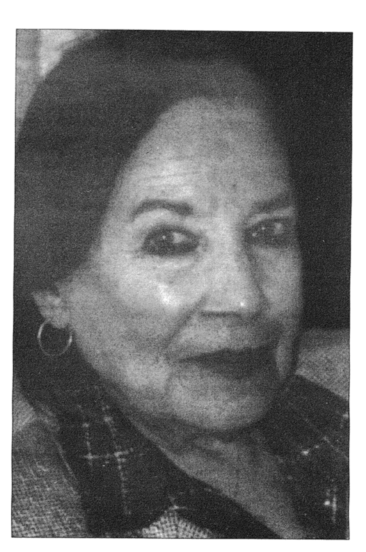
الرحلة الأصعب

وإذا كانت الشاعرة قد خصت الرحلة الصعبة بسيرتها الشخصية وأطوار حياتها منذ ولادتها وحتى استقامة عودها، وكان تركيزها الأكبر على الجوانب الذاتية الخالصة من سيرتها، فقد وقفت الرحلة الأصعب على معاناتها فى وطن مغتصب وبين قوم إما أصبحوا شهداء أو مُرشحين للشهادة. ولم يكن فى وسع الشاعرة أن تعيش بمعزل عن أحداث وطنها، فالقت بنفسها فى أتون السياسة وشغلتها الأحداث الملهمة عن قضاياها الذاتية. وجاء شعرها فى هذه المرحلة معبرًا عن انفعالاتها الوطنية إزاء الأحداث التى ألمت بأرض الآباء والأجداد. بل لقد وقفت ديوانًا كاملاً على الشهيد وائل زعيتر الذى استشهد فى عام ١٩٧٢ وهو نجل المترجم الفلسطينى الكبير عادل زعيتر (١٨٩٧-١٩٥٧).

وهى تصف التحول الذى طرأ على حياتها من الذاتية المطلقة إلى المشاعر الجَمْعِيَّة بقولها: «إنها لضرورة قصوى فى هذا الزمن الشائه أن يتحصن الإنسان العربى بوعى سياسى وعقائدى يحميه من الضياع، وعى تتأكد فيه هويته ويتكثف شعوره بالانتماء ومن المؤكد أن أجدر من يتحصن بهذا الوعى السياسى العقائدى هم أصحاب القلم الذين ينطلقون فى أداء دورهم النضالى من جبهة الفن والفكر والشعر. فلا بد لهؤلاء من اتخاذ موقف من الحياة، وموقع ينطلق منه سلوكهم وأفكارهم وأعمالهم الأدبية. فمثل هذا الموقع ومثل هذا الموقف يضيئان لهم الطريق ويمنحانهم عناصر رؤياهم، ومن خلالهما تنبثق مضامين إنجازاتهم الفكرية والفنية والأدبية».

وبلغ من إنسانية فدوى طوقان أنها باتت تشعر بأنها أم لكل أطفال العالم الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد، وأنها على استعداد دائمًا للموت من أجل إنقاذ طفل أيًا كان، هذا على الرغم من أنه ليس لها أى أبناء.

وتحدثت الشاعرة فى هذا الجزء من سيرتها



الذاتية عن دورها فى الحياة العامة ولقائها برجال السياسة وممثلى الصحف وتعرضها لحملات بسبب قصائدها التى كانت تلهب المشاعر. وفى النهوض بدورها النضالى قامت بتهريب المطلوبين من الغاصبين، معرّضة نفسها وحياتها للتنكيل بها فى حالة اكتشاف مغامرة إيواء مطاردين. وتحدثت عن معاناة المرأة بسبب الاحتلال وعن الإذلال الذى تعرضت له وهى واقفة على جسر اللنبى تنتظر السماح لها بالعبور مما ألهمها قصيدة تمنت فيها أن تلتهم أكباد مَنْ أذلوها، فلم تسلم بعد ذلك من الذين كانوا يسخرون منها بقولهم إنها تشتهى «صحن كبدة»! وبأنها من أكلة لحوم البشر فى القرن العشرين!

فـــدوى طـــوقـان

وعلى درب النضال التقت الشاعرة فدوى طوقان بزملائها الشعراء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وكذلك بالقاص إميل حبيبي.

والرحلة الأصعب هي رحلة الشاعرة بين الخراب الذي حلّ بالمدن، والترويع الذي أنزل بالناس، والسجون التي اكتظت بنزلائها، والفاتكات التي تحصد الأرواح عشوائياً، والدماء التي سالت والعائلات التي تمزّق شملها والأطفال الذين يتعرضون للأهوال.

وتقول فدوى: «إن الأطفال هم نقطة الضعف المركزية عندي. حبي لهم يبلغ حدّ الوجع... أولئك هم أحباب الله، فهل يتخلى عن حمايتهم؟ كيف السبيل إلى حماية كل الأطفال من معاناة الخوف والجوع والعطش وأهوال الحرب ومآسيها؟ كم يعوزني الإيمان.. وكم أنا بحاجة إليه في هذا الوقت العصيب! يا الله، إني أفزع إليك لأسألك الرحمة بأحبابك».

في فصول متتالية صوّرت الشاعرة الجوانب الإنسانية والخلقية والسياسية للأزمة الخانقة التي ابتليت بها بلادها دون أن تتخلى في هذا السرد المكثّف عن أسلوبها الأدبي وشاعريتها العفوية وقدرتها الفائقة على استخدام سلاحها الوحيد في معركة الوطن وهو سلاح الكلمة المعبرة والقصيدة المتفجرة. وما أكبر المفارقة بين فدوى القديمة المنعزلة عن الناس وفدوى الخائضة حلبات النضال.

الرحلة المنسـيـة

رغبة في استكمال الصورة الأمينة التي رسمتها فدوى طوقان لنفسها في سيرتها الذاتية ذات الجزءين، قام الأديب الأردني يوسف بكار باستقصاء ما فات الشاعرة تسجيله عن بواكير حياتها الأدبية، فأصدر كتاب «الرحلة المنسية: فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية» باعتباره يضم الرحلة المنسية التي سقطت أخبارها من ذاكرة الشاعرة وهي تدون سيرة حياتها. وفي هذا الكتاب استقصى الدكتور بكار الطفولة الشعرية والطفولة النثرية لفدوى منذ ما تفتحت موهبتها الشعرية في عام ١٩٢٩ أو عام ١٩٣٠، ومنذ ما عالجت النثر في كتاباتها اعتباراً من عام ١٩٣٩. وإذا كان المعنى اللغوي «للطفولة» ينصرف إلى الفترة السابقة على الصبى، فإن المعنى المجازي للطفولة الذي أراده الباحث هو البدايات الأولى للرحلة الأدبية للشاعرة.



وكان لابد للدكتور بكار من الرجوع إلى المجلات القديمة التي نشرت فيها آثار فدوى طوقان مثل «الأمالي» و«مرآة الشرق» وجريدة «فلسطين» ومجلة «الرسالة» المصرية، كما أن بعض المخضرمين من الراصدين لتراث فدوى أمدوا الدكتور بكار بما كان في حوزتهم من هذه الآثار المبكرة، ومنها ما لم يسبق نشره أو ما أغفلته الشاعرة في دواوينها المنشورة، أو ما أدخلت عليه الشاعرة تنقيحات عند ضمه إلى دواوينها.

والملاحظة العامة على بواكير فدوى تُنبئ بأنها لم تمر فعلاً بمرحلة الطفولة الشعرية أو النثرية، وإنما طالعت الناس منذ بداياتها بشعر صقيل ونثر محبوك، وكان نضجها هو جواز مرورها إلى النشر في المجلات الرصينة، وهو ما يُعزى إلى أن الشاعرة مهّدت لخروجها إلى النور بقراءات موسعة في كتب الأدب العربي وفي دواوين الشعراء حتى دانت لها كل إمكانياتها واقتحمت المجال بكفاءة مقدورة. ومع ذلك، فإن الشاعرة - وهي أعرف الناس بحدودها وبالبيئة الصارمة المحيطة بها - استصوبت أن تتخفى وراء أسماء مستعارة مثل «دنانير» و«المطوقة» أو الاقتصار على اسم فدوى دون لقب الأسرة. وخشية أن تُظن بها الظنون من أصحاب النيّات السيئة، حرصت على أن تشير إلى أن دنانير التي تتستّر وراء اسمها كانت «شريفة عفيفة».



وقد حرص الدكتور بكار - وهو باحث أكاديمي مرموق - عند إثبات النصوص الشعرية والنثرية المجهولة لفدوى على أن يثبت البحر الشعري الذي نظمت فيه القصيدة، وعلى أن يسجّل في هوامشه الواسعة ملاحظات كاشفة عن ظروف نظم القصيدة أو كتابة المقال النثري، وأن يعرّف بأسماء الأعلام الواردة في ثناياها، وأن يشرح الألفاظ المستخدمة في تضاعيفها، والأهم من ذلك أنه نشر النصوص وفقًا لتسلسلها الزمني مع تحديد سنة النظم أوالكتابة حتى يساعد القارئ على متابعة التطور الأدبي والفكري والعاطفي للشاعرة.

وحسب القارئ أن يعرف أن القصائد المجهولة المندرجة في «الرحلة المنسية» قد بلغ عددها ثلاثين قصيدة، وأن المقالات المنشورة في الصحف الأدبية والتي لم تجمع في كتاب هي ثماني مقالات عداً.

ثم إن الباحث الدكتور بكار قد استصوب ألاّ يفاجئ فدوى بنشر كتابه خشية أن تكون لديها تحفظات عليه، فتوخّى اطلاعها على برنامجه في إعداد بحثه، وقامت هي نفسها بتزويده ببعض ما كان ينقصه من شعر البدايات التي كانت محجوبة لديها.

وفي اعتقادي أن الرحلات الجبلية الثلاث لفدوى طوقان تعد عملاً فريداً في الأدب العربي، بما تميزت به من صدق الرواية وصراحة المكاشفة وبلاغة التعبير عن خلجات النفس دون ادعاء أو تفاخر أو ابتذال في الحديث عن النفس. وصفوة ما يقال عن هذا العمل الأدبي إنه عمل مُشبع للروح والوجدان، فضلاً عن أنه تسجيل موضوعي لفترة من التاريخ الاجتماعي والوطني عاشت الشاعرة في بؤرتها، وذاقت حلوها ومرها، وأضاءت للباحثين جوانب إنسانية تُستخلص من ضجيج الحياة وعجيجها في عصر حافل بما يسّر وما يسوء. ■

الطريق إلى بابل .. الحيرة بين

الحفاظ على أية لغة خالصة من التأثيرات الخارجية هو دائماً معركة خاسرة؛ ذلك أن اللغة النقية لا وجود لها

في عام ١٩٥٦ اندلعت المظاهرات في إقليم فريزلاند شمالي هولندا. وكانت الاضطرابات قد بدأت حين رفض أحد القضاة سماع شهادة طبيب بيطري محلي باللغة الفريزية. وكان القاضي معذوراً في ذلك لعدم معرفته تلك اللغة الجيرمانية القديمة التي تتصل باللغات الهولندية والألمانية والإنجليزية؛ إذ كانت الهولندية هي لغة المعاملات الرسمية والأمور العامة في فريزلاند. وكانت فكرة الفريزية كلغة قومية من نتاج رومانسية القرن التاسع عشر. بعد أن ظلت لا تستخدم في دواوين الحكومة والمدارس والكنائس مئات السنين. وظهرت اللغة من جديد في أوائل القرن التاسع عشر من خلال تشجيع الشعراء الشعبيين لها كلغة قومية. وفي سنة ١٩٣٧ سُمح بتدريسها في المدارس الابتدائية، ثم سُمح بتدريسها في التعليم العالي سنة ١٩٨٠ ويتحدثها الآن حوالي ٤٠٠ ألف شخص. وكان إحياؤها رد فعل لتماثل اللغة الهولندية وتأكيداً للهوية المحلية.

من بين عوامل الجذب الرئيسية التي تتمتع بها أية لغة محلية أو لهجة أو عامية، بل والسبب الأساسي وراء إحيائها أو اختراعها، هو عدم فهم الأغراب لها. واللغة في مجملها شكل من أشكال كلمة السر أو جواز المرور. فإن أنت فهمتها مررت. ومن وجهة نظر إقليمية بحتة، فقدت أنا ووالدي «الهوية» لأننا لا نعرف اللغة الفريزية نتيجة لهجرة جدي إلى أمستردام. كما أننا لن نستعيدها بحال من الأحوال في فريزلاند، ولا يمكننا المرور، هكذا الحياة. فما إن تتجه إلى المركز لا يبقى التراب القديم عالقاً بحذائك لفترة طويلة. وأنا ما زلت أتحدث الهولندية وأكتبها، ولكني أكسب لقمة عيشي من الكتابة بالإنجليزية، التي هي لغة أمي. الآن المركز بالنسبة لي يبعد كثيراً عن أمستردام، خارج الوطن. وليس هذا بالأمر غير العادي كذلك. فأنا مجرد فرد في حشد من البنغاليين والصينيين والألمان والكوبيين والروس والبلجيكيين والبولنديين وغيرهم ممن ساروا على الدرب نفسه.



لقد صارت أمريكا الشمالية، شئنا أم أبينا، مركز العالم بالمعنى اللغوي للكلمة؛ وما سواها هو الهامش، حتى وإن كان مليار من البشر - ١٥ بالمائة من سكان العالم - يتحدثون اللغة الصينية، وكان ٢٦٦ مليوناً يتحدثون اللغة الأسبانية. فالإنجليزية هي اللغة المشتركة المستخدمة في الأعمال التجارية الدولية، وموسيقى البوب، وأشياء كثيرة أخرى. ومع أن الفرنسيين لا يحبون الإنجليزية، فهي الآن اللغة الرئيسية المستخدمة في اجتماعات المفوضية الأوروبية في بروكسل. كما أن الإنجليزية هي لغة أفلام هوليوود، التي هي العملة المشتركة في الترفيه في أنحاء العالم. في الوقت الذي يزداد فيه عدد الدول التي تصبح فيها الإنجليزية لغة العلوم والتعليم العالي، لتحل محل اللاتينية باعتبارها اللغة المشتركة في التعليم.

ومنذ عدة سنوات اقترح أحد وزراء التعليم في هولندا أن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس في الجامعات الهولندية، وكان جاداً في اقتراحه. وتلك فكرة ليست بالجديدة. فقد تقدم وزير التعليم في حكومة موتسوشيتو اليابانية في القرن التاسع عشر باقتراح مشابه، وإن كان أكثر راديكالية؛ إذ قال إنه فقط بعد أن تحل الإنجليزية محل اليابانية كلغة قومية، سوف تصبح اليابان دولة حديثة ومتحضرة. إلا أن دعوته لم تؤت ثمارها. أما بالنسبة لهولندا، فقد أبلغني مؤخراً أحد وزراء التعليم فيها باقتناعه بأن الإنجليزية ستصبح هي اللغة الأولى خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. وإذا تحقق ذلك، فسوف يكون مصير الهولندية نفس مصير اللغة الفريزية، مجرد شارة للهوية الحنينية، لا أكثر. وسيكون الخطر في ذلك الحال أن يصبح حال الهولنديين كحال أهل سنغافورة، يتحدثون لغات عدة دون أن يتقنوا أياً منها. وربما تلا الهولنديين غيرهم.

والواقع أن هيمنة لغة مركزية ما، هولندية كانت أم إنجليزية أم صينية، قد تكون أمراً مخيفاً. حيث يعرض ذلك الهويات للخطر. غير أن إتقان اللغة الوطنية في كثير من الأحيان جواز مرور، حتى في المركز ذاته. وأنا على اقتناع بأن جدي لأمي، وهو ابن أحد المهاجرين، وبالتالي بريطاني أكثر من البريطانيين، يتعمد الخطأ في نطقه للفرنسية، لئلا يُفهم خطأ أنه أجنبي. ولذلك فمن الواضح أن اللغة قضية حساسة؛ إلا أنني أعتقد أن المخاوف كثيراً ما تكون في غير موضعها، وتكون عواقبها سيئة حين توجه لأغراض سياسية.

ويشعر البعض بقلق شديد من هيمنة الإنجليزية لدرجة أنه يستخدم في وصفها عبارات من قبيل «اللغة القاتلة»، وكأن الإنجليزية مرض من الأمراض الوبائية يعقد لسان الناس جميعاً فلا ينطقون لغاتهم. وليس استخدام المصطلح المرضي من قبيل الصدفة. فهؤلاء الذين يتحدثون عن اللغات القاتلة، ويأسون على انقراض لغة امباباران في أستراليا أو لغة وابو في الغرب الأمريكي، يستخدمون كذلك مصطلحات مثل «التنوع اللغوي الحيوي» ويربطون بقاء اللغات بالهموم الإيكولوجية الكبرى، مثل اختفاء الغابات المطيرة وحياة الحيوان والنباتات النادرة. ويزعم اللغويون الإيكولوجيون أنه في بعض الأحيان - ولأسباب وجيهة - تدمر «الموجات البيولوجية» الأوروبية والأمريكية البيئات المحلية، حيث تخترق عالم القبائل والشعوب الصغيرة الهش رغم كثافته. ويقول الخبراء إنه لا تزال هناك حوالي ستة آلاف لغة مستخدمة، من المنتظر أن يبقى ألف منها فقط لفترة على قدر كبير من الطول.



ويخشى حماة اللغات الأشد صحة وقوة، كأعضاء الأكاديمية الفرنسية، الانقراض أقل من خشيتهم التلوث. وتصيبهم كلمات مثل le weekend وle fax بالغثيان. وإذا كنت تظن أن اللغة الفرنسية التي تكثر فيها المفردات الإنجليزية Franglais لغة سيئة، فلتنظر إلى اليابانية التي تحتوي على مفردات مشوهة كثيرة من اللغة الإنجليزية. كما أنها أخذت في السابق من اللغة الصينية، بل ومن اللغتين البرتغالية والهولندية. فالإضراب [strike] هو باليابانية «سوتو» وهي اختصار «سوتورايكي»؛ والإقلاع عن عادة صحية ضارة بالصحة هو عمل «دوكوتا سوتوبو» (doctor's stop)؛ وارتكاب التحرش الجنسي [harass]هو ارتكاب «سيكو هارا». والكمبيوتر الشخصي يسمى «بازو كون». وهكذا. والسرقة اللغوية الخلاقة أمر سهل في اللغة اليابانية، لأنه يمكن خلق فعل جديد بإضافة اللاحقة «رو» الخاصة بالأفعال في آخر أية عبارة مستعارة، كما في «ماكورو» على سبيل المثال، ومعناه يأكل هامبورجر ماكدونالدز - و«ماكو» هي اختصار «ماكودونارودو»، و«رو». وبالمناسبة، المقابل الفرنسي هو (bouffer un macdo) والشيء اللافت للانتباه هو أن اليابانيين، مثلهم مثل جدي البريطاني، سمعتهم سيئة بالنسبة لتعلم اللغات الأجنبية، الأمر الذي أظن أنه يعود إلى حد ما إلى أسباب تتعلق بكراهية الأجانب؛ وكأن فكرة أن إتقان لغة أجنبية ما يلوث نقاء يابانية المرء قد أصابتهم بالشلل.

والحفاظ على أية لغة خالصة من التأثيرات الخارجية هو دائماً معركة خاسرة؛ ذلك أن اللغة النقية لا وجود لها، وهذا هو الأهم. فقد غيَّر النورمانديون الفرنسيون اللغة الإنجليزية القديمة تغييراً هائلاً، إلا أن الإنجليزية القديمة كانت في حد ذاتها خليطاً من الفريزية ولغة أنجليا والعديد من اللهجات الأنجلو سكسونية. وفي يوم من الأيام روَّج الكاتب الياباني تانكازي جونيتشيرو لفكرة أن اليابانية الخالصة، التي نُقِّيت من المفردات المستعارة من الصينية، قادرة على نقل أعمق التعبيرات الأدبية. وبما أن حوالي ٦٠ بالمائة من اللغة اليابانية عبارة عن كلمات مستعارة من اللغة الصينية، فقد كان ذلك اقتراحاً غير عملي. إلا أنه تقدم به في الثلاثينيات. حيث النعرة القومية على أشدها. وكان ذلك الاتجاه نحو تنقية اللغة دافعه الهموم السياسية أكثر منها الهموم الأدبية.

ويشعر الفرنسيون بقلق من التلوث الأنجلوسكسوني منذ زمن بعيد. وكان شارل موراً الكاتب الفرنسي الموهوب والفيلسوف الذي تقطر كتاباته سُمّاً، وهو مؤسس حركة «العمل الفرنسي» اليمينية المتطرفة، مشاهداً غريب الأطوار في أول دورة ألعاب أوليمبية حديثة سنة ١٨٩٦ في أثينا. وكان يستشيط غضباً من صوت اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها الناس من حوله، وخاصة الإنجليزية الأمريكية، تلك «اللهجة المقززة». وحقيقة الأمر أنه كان يعتقد أن الألعاب الرياضية العالمية أمر سيئ، لأنها تسمم العالم بالتعابير الأنجلوسكسونية. وكان موراً - ذلك المدافع عن النقاء التقليدي للغة الفرنسية - ينظر للأمور نظرة بيولوجية؛ تماماً مثل علماء اللغة الإيكولوجيين. فالإنجليز لا أصل لهم، وكوزموبوليتانيون، ويصيبون الناس بالعدوى كالأمراض. وطبيعي أنه كان كذلك معادياً شرساً للسامية.



ويشن البلجيكيون الفلمنكيون حرباً طال مداها ضد التلوث الأجنبي. غير أن العدو اللغوي في حالتهم هو اللغة الفرنسية، التي هي لغة الوالون. (سكان المناطق البلجيكية المجاورة لفرنسا المنحدرون من أصول سلتية) الذين كانوا أكثر ثراء وأشد بأساً ممن يتحدثون اللغة الفلمنكية. وكانت الفلمنكية - وهي إحدى لهجات اللغة الهولندية - زاخرة بالمفردات الفرنسية، شأنها شأن اللغة

لغة القلب.. ولغة العقل!

إيان بوروما

الإنجليزية. غير أن أسباباً سياسية جعلت المعلمين الفلمنكيين الرسميين يبذلون قصارى جهودهم فى البحث عن المقابل الهولندى لكل كلمة استعيرت من اللغة الفرنسية. ونتائج ذلك تتسم بالثراء بصورة عبثية مثيرة للضحك، على الأقل بالنسبة للأذن الهولندية. فقد صارت الطائرة الهليكوبتر wentelwiek ومعناها الحرفى هو «الجناح الطائر». والنتيجة الأخرى هى أن الكثير والكثير من الفلمنكيين يرفضون تعلم اللغة الفرنسية. وبما أن قلة من «الوالون» هى التى تعرف الهولندية، فإن أى فلمنكيين يلتقيان فى أنتورب أو لييج سيجدان أنفسهما يتحدثان الإنجليزية فى الغالب.



إلا أن خطر الحرص على نقاء اللغة الرئيسية ليس هو العبث بقدر ما هو الركود وانعدام الحياة. ونموذج سنغافورة ليس تحذيراً من استخدام الإنجليزية كلغة التعليم الأساسية فى بلد يتحدث الناس فيه لغة سواها وحسب، بقدر ما هو تحذير من الهندسة الزائدة عن الحد. وكان رئيس الوزراء السابق لى كوان يو مدافعاً شرساً فى هذا الشأن، حيث كان يسعى إلى حظر اللهجات الصينية فى الحياة العامة، وكان يصدر التحذيرات العامة من استخدام اللهجة المالايية الصينية عند التحدث بالإنجليزية. وأحد أسباب عدم إجادة الكثير من أهل سنغافورة التحدث بأية لغة هو وعيهم بذواتهم. فعندما أجبروا على أن يتحدثوا إنجليزية الـ«بى بى سى» فى فترة الخمسينيات، ارتدوا فيما بينهم إلى لغة هجين أكثر فضفضة تميل أكثر إلى العامية وتسمى Singlish، وكأنهم يقصدون فيما يبدو إغاظة الناظر الصارم. فالتشدد أكثر من اللازم، أو الميل أكثر من اللازم إلى العامية، لا يمكن أن ينتج أدباً عظيماً.

وليست إنجليزية الـ«بى بى سى» السنغافورية المثال الوحيد للنموذج المجمد زمنيًا. فالصحف الفليبينية لا تزال تستخدم لغة الصحافة الأمريكية التى تعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين(Prixie nixes solons) ولا تزال الصحف الهندية الصادرة باللغة الإنجليزية تكتب بلغة كتلك التى كانت تستخدمها «مانشستر جارديان» فيما قبل الحرب العالمية الثانية. وواقع الأمر أن إنجليزية الـ «بى بى سى»، باعتبارها نموذجاً لما ينبغى أن تكون عليه لغة الملكة، لم يعد لها وجود.

بين لغة القلب ولغة العقل

فمذيعو الإذاعة والتليفزيون البريطانيين يتحدثون بلكنات إقليمية عديدة، تحظى بتشجيع منذ الستينيات. وأصبحت إنجليزية المثقفين الإنجليز شيئاً يعرف بـ Thames Estuary، نسبة إلى أحياء لندن الشرقية وما وراءها. وهي إنجليزية الطبقة الوسطى الجنوبية الأنفية مع ظلال من لكنة شرقي لندن cockney. ويميل توني بلير إلى الارتداد إليها. ويتحدث ميك جاجر منذ سنوات بنسخة مصطنعة من لكنة شرقي لندن. بل إن الكلمة التي ألقتها الملكة في عيد الميلاد الماضي كانت تحمل آثاراً منها.



وفي أي الأحوال، سوف تظل الإنجليزية باعتبارها اللغة المشتركة في الأعمال التجارية، وتكنولوجيا الإعلام، والترفيه، تزحف إلى اللغات الأخرى، كما زحفت الفرنسية أو الألمانية والصينية والسنسكريتية والعربية والفارسية. كما أن الإنجليزية تتحول إلى لهجات مهنية ليس فيها إلا رطانة مهنية. وداخل مؤسسات الاتحاد الأوروبي، يتشكل شيء قد نطلق عليه إنجليزية له رطانته الغريبة، بل والتهجية الخاصة به. ويتخاطب الطيارون في أنحاء العالم بإنجليزية لا يفهمها أحد سواهم. وفي بعض الحالات تكون القدر الوحيد الذي يعرفونه من اللغة الإنجليزية. والمعروف أن هذا يسبب المشاكل في حالات الطوارئ، كما أنه أحد أسباب بدء الخطوط الجوية اليابانية في استخدام طيارين أجانب.



والإنجليزية التي يتخذها أهل المهن المختلفة رطانة لهم بالفعل قبيحة، إلا أنها لا تمثل تهديداً قاتلاً لوجود غيرها من اللغات الرئيسية المستمر. بل إنه في الأماكن التي أصبحت فيها الإنجليزية لغة رئيسية - بسبب الغزو الاستعماري في الغالب - لا يكون الأثر على الهويات المحلية واضحاً بالقدر الذي يفترضه البعض، أو يخشونه. والهند مثال واضح على ذلك. فالإنجليزية هي اللغة الشائعة بين النخب الهندية وفي الدوائر الحكومية. وهي في واقع الأمر اللغة القومية الوحيدة في كل الهند، وإن كان المتحدثون بها حوالي ٥٪ فقط من عدد السكان. فقد وجد الإحساس الحديث بالقومية أول وأبلغ تعبير عنه باللغة الإنجليزية، في كتابات نهرو. وكانت الإنجليزية لغة السادة المستعمرين، ولكنها كانت كذلك لغة الكثير من الوطنيين الذين حاربوا من أجل الاستقلال. والإنجليزية لغة بعض أحسن الكُتّاب الهنود في الوقت الراهن: ليس فقط من يكتبون كتابات حنينية من لندن أو نيويورك، بل وكذلك



الهنود المقيمون في دلهي وكلكتا وبومباي.

ومن المؤكد أن نهرو وغيره كانوا يرغبون في جعل اللغة الهندية لغة قومية. إلا أنهم اختاروا شكلاً اصطناعياً بعض الشيء من اللغة الهندية رُصّع ترصيعاً كثيفاً ببعض المصطلحات العتيقة المستعارة من السنسكريتية. وكان بعض المؤيدين الرئيسيين لتلك اللغة القومية من غير المتحدثين الأصليين باللغة الهندية، وإنما مفكرون هندوس من كوجارات والبنغال. وفي الجنوب لم يكن أحد يتحدث اللغة الهندية بالمرة. ولذلك لم تكن لها الغلبة قط. وقلة هي التي تريد إحياء تلك اللغة، وإن كان هناك مؤيدون للغة الهندية الأكثر شعبية، باعتبارها البديل الرسمي للإنجليزية. وهؤلاء لم يبالغوا كذلك.



وقد عبَّر عن المشكلة أحسن ما يكون التعبير كاتب من جنوب الهند، أخذ أحد أصدقائي مقالاً له من على الإنترنت. ولغة الكاتب الذي يسمى راجيف سرينيفازان الأصلية هي المالايالام، وهي لغة ولاية كيرالا التي يُكِنّ لها ما لدى مثالي القرن التاسع عشر من مشاعر رومانسية. وهو يقول: «باعتباري شخصا ثنائي اللغة يتحدث الإنجليزية ولغة المالايالام، يمكنني القول عن يقين بأن لغة المالايالام بالنسبة لي هي لغة القلب، والإنجليزية هي لغة العقل». ويمضي قائلاً إنه ليس بوسع الإنجليزية ولا الهندية التعبير عن «الروح المالايية المميزة، بما فيها من أساليب حزينة متأملة تتناقض تناقضاً شديداً مع الطبيعة المدارية التي تتفجر مرحاً وحيوية».

وبعد ذلك يستشهد بقصيدة للسير والتر سكوت لتكون حجة على ما يقوله عن لغات القلب والعقل:

هناك يتنفس الرجل الذي ماتت روحه،
الذي لم يقل لنفسه قط
هذه أرضي أنا، التي ولدت عليها!

ولكن حتى إذا كانت كلمات السير والتر سكوت تخاطب عقل راجيف سرينيفازان وحسب، فهو لا يزال يفضل الإنجليزية على الهندية؛ لأن الإنجليزية على أقل تقدير تربطه بالعالم الأوسع - ناهيك عن شبكة الإنترنت العالمية - بينما تجعل اللغة الهندية من يتحدثون المالايالام يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وهو يصف اللغة الهندية بأنها «لغة غازية». وبالتالي فإن لغة إمبراطورية قديمة تفيد في إعاقة نمو لغة أخرى.

وهناك أمثلة للظاهرة نفسها في أماكن أخرى. فأهل تيمور الشرقية، ولغتهم المشتركة حالياً هي الإندونيسية أو بهاسا إندونيسيا، يرغبون في أن تكون لهم لغة قومية أخرى. واللغة الأخرى الوحيدة التي يمكنهم التفكير فيها هي البرتغالية. وفي الوقت نفسه يعيش الناس في إيريان جايا وقتاً عصيباً وهم يثورون على سادتهم الإندونيسيين، لكون لغاتهم القَبَلية الكثيرة غير مفهومة فيما بينهم. وهم كذلك قد يستعينون بلغة قومية في كفاحهم من أجل الحكم الذاتي. وربما تكون هذه اللغة هي الهولندية.

والفليبين حالة لافتة للانتباه، حيث تحولت من مستعمرة أوروبية إلى مستعمرة أمريكية. وقد كُتبت أول رواية فليبينية عظيمة، وهي Noli me tangere للروائي خوسيه ريزال - حيث كانت الكتاب المقدس للهوية والاستقلال الفليبينيين الذي أذكى نار الشعور الوطني الحديث - باللغة الإسبانية. وقد آسى أكثر من كاتب من كُتّاب القرن العشرين الفليبينيين الذين عبروا عن أنفسهم بالإنجليزية على ضياع الإسبانية كلغة قومية. ويود بعض الكُتّاب أن يستخدم لغة التجالوج. إلا أن معظم قراء التجالوج - وهم يقيمون في جزيرة لوزون في المقام الأول - يفضلون مجلات القصص المصورة على الروايات الأدبية، بغض النظر عن مقدار تعبيرها عن المشاعر الوطنية. وبذلك تظل الإنجليزية لغة النخبة، وبالتالي لغة معظم الأدب الفليبيني - وإن لم تكن لغة السينما، التي هي فن أكثر شعبية.



سوف تبقى لغة التجالوج زمناً طويلاً، وهو ما أتوقعه للغة مالايالام. إلا أن الكثير من اللغات الأصغر منها أخذ في الاختفاء، ولا يعود اختفاؤها جميعاً إلى اللغة الإنجليزية. وقد توفي آخر المتحدثين بلغة قوقازية اسمها أوبيخ ويدعى توفيق إيزنش في مزرعته عام ١٩٩٢. كما لم يعد «سحابة الرعد الحمراء» يجد من يتحدث معه لغة كاتاوبا سيوكس ومات سنة ١٩٩٦. وكان في أستراليا ٢٥٠ لغة يتحدثها سكانها الأصليون. وقريباً قد لا يتبقى منها شيء. وهاهي اليدش تحضر - بالطبع كلغة أدبية - وتكاد لغة اللادينو تموت. وحالات الموت دائماً أحداث تدعو للحزن والأسى. إلا أنني لست متأكداً إن كان علماء اللغة الإيكولوجيون ياسون دائماً على تلك الخسائر لأسباب صحيحة أم لا.

وعندما تموت اللغة نتيجة لذبح المتحدثين بها أو إجبارهم على التغيير، فإن هذا يدعو بالفعل إلى الأسى، ولكن علماء اللغة الإيكولوجيين يظنون أن التنوع شيء مفيد في حد ذاته، وضياع أية لغة، مهما كانت صغيرة، وبغض النظر عن ظروف موتها، خسارة للبشرية. ويقول دانييل نيتل وسوزان رومين مؤلفا كتاب (Vanishing Voices) أصوات تختفي: «كل لغة متحف حي، وهي نصب تذكاري لكل ثقافة كانت أداة لها». ولا شك في أن هذا صحيح. والمتاحف الحية تفتن علماء اللغة وغيرهم من المتحمسين. ولكن هل ينبغي الحفاظ على كل متحف حي لذاته؟ قد تكون للأدب قيمة في حد ذاتها، ولكن هل للغات التي يتحدثها الناس قيمة في حد ذاتها؟ يقول علماء اللغة الإيكولوجيون إن اللغات لها تلك القيمة الأصيلة، وهو ما قد يعود إلى أسباب بيئية. ويقول نيتل وورومين إن اللغات «أشبه بعصفور المناجم؛ فحيثما تكون اللغات في خطر، يكون ذلك علامة تنبئ بوقوع مشاكل بيئية».

فهل هذا صحيح دائماً؟ إن «إنيوت نونافوتن» الذين كانوا يعرفون من قبل بالإسكيمو، مجتمع مُعرَّض بالفعل للخطر، ليس من جانب الحكومة الكندية، وإنما لأنهم جماعة على حافة العالم يتناقص عددها يوماً بعد يوم. كما أن معدل الانتحار فيما بينهم مخيف. إلا أنهم لا يزالون يتحدثون لغتهم المحلية. والتعبير الآخر عن هويتهم هو اصطياد حوت البحار القطبية الشمالية ببنادق الصيد عيار ٥٠ مللي والأمر هنا لا يدعو للضحك. فالصيد ليس من أجل اللحم وحده. ذلك أنهم يقيمون دفاعهم عن الصيد على أسس ثقافية؛ فصيد الحيتان بالبنادق أمر ضروري للحفاظ على الهوية. وليس هذا بالتأكيد هو ما في ذهن علماء اللغة الإيكولوجيين.

وأحد أسباب الخطر الذي تعرضت له لغات الأقليات خلال القرنين الماضيين هو ظهور النزعة القومية. فقد كانت فرنسا دولة متعددة اللغات. إلا أن فكرة العدالة والمساواة والإخاء الجمهورية كانت تعني ضرورة أن يتحدث كل المواطنين الفرنسيين الفرنسية - وحبذا لو تحدثها العالم بأسره كذلك. وهذا أمر ينطوي على الخير والشر معاً. فاللغة المشتركة، من حيث المبدأ، تقوي الإحساس المشترك بالمواطنة الذي يتجاوز الجنس أو الدين، دون أن يكون كذلك من حيث الممارسة. أما الشر فيعود إلى فرضهم لغة مشتركة على

إذا كان مليار من البشر - ١٥ بالمائة من سكان العالم - يتحدثون اللغة الصينية، وكان ٢٦٦ مليوناً يتحدثون اللغة الإسبانية. فالإنجليزية هي اللغة المشتركة المستخدمة في التعلم والتدين والاتصال

البريتون وغيرهم من الأقليات، مما ألحق بهم الضرر. وكان ذلك يقوم على الاعتقاد الخاطئ بأنه ينبغي أن يتحدث الناس لغة واحدة؛ وكان التعددية اللغوية تمزق الأمة بالضرورة.



ويقول نيتل ورومين إن «علينا التخلص من التسوية التقليدية بين اللغة والأمة والدولة». والواقع أن كلمة «تقليدي» هنا لا تعني الكثير. فمعظم الدول القومية ليست قديمة جداً، ومن المؤكد أنها ليس خالدة. إلا أنهما محقان في قولهما إن لغات كثيرة أقدم من الدول التي تتخذها لساناً لها. ويفضل علماء اللغة الإيكولوجيون التفكير في معظم اللغات باعتبارها تعبيراً عن الثقافة - أي الثقافة المحلية وحتى القَبلية - وأنها لغات القلب الضاربة بجذورها في تربة بعينها. أما لغات المراكز أو «اللغات الكونية» global languages، فهي من أجل «الاتصال فيما وراء المستويات المحلية والتعبير عن أنفسنا كمواطنين عالميين» - أي أنها لغات العقل.

وهذه ذلك مقولة مشكوك فيه. فقد كانت الألمانية اللغة الرئيسية للإمبراطورية النمساوية المجرية. وكان الكثير من مواطني بودابست في مطلع القرن العشرين يقرأون الصحف الصادرة باللغة الألمانية أكثر من قراءتهم للصحف المجرية. وكان من المفترض أن الألمانية هي لغة العقل. ومع ذلك فإن أعظم ما خرج من الإمبراطورية من أدب وشعر كتبه بالألمانية أناس لم تكن لهم جذور جيرمانية «محلية» بحال من الأحوال. وكان كثيرون منهم يهوداً، أو من يسمون بالكوزموبوليتانيين الذين لا جذور لهم، وبالتالي قد يكونون أكثر الموالين لعهد فرانتس يوزيف، وهم كافكا وجوزيف روث، وموزيل.



قد يكون من الخطأ تسوية اللغة بالدولة، غير أن تسويتها تسوية تامة بإحدى الثقافات المحلية المحددة أو النسب المشترك خطأ كذلك. ولعالم لغة إيكولوجي آخر، هو ديفيد كريستال، رأى متوازن عن اللغة. فهو يقول إن اللغة شارة هوية تعلو ما سواها، ولكنها ليست شارة حصرية؛ فالثقافات تستمر، حتى وإن غيَّرت لغتها. إلا أنه يطلب منا، كوسيلة لتقدير العواقب المأساوية لضياع لغة ما، أن نتخيل ما كان يمكن حدوثه لو أن الفرنسية النورماندية حلت محل الإنجليزية القديمة بعد عام ١٠٦٦؛ فما كان ليصبح هناك تشوسر ولا شكسبير ولا وردزورث ولا ديكنز.

وهذا صحيح إلى حد كبير. ولكنه يقوم على افتراض أن شكسبير ما كان ليعبر عن نفسه إلا بالإنجليزية. وقد نقلب هذا المثال الخيالي ونسأل: ماذا لو لم تكن الإنجليزية قد حلت محل الأيرلندية باعتبارها اللغة الرئيسية في أيرلندا؟ ما كان ليصبح هناك جويس ولا ييتس و لا وايلد ولا شو. وماذا نقول عن بيكيت الذي كتب بالفرنسية والإنجليزية، وعندما سألوه إن كان بريطانياً، فرد بالفرنسية قائلاً: (Au contraire على العكس)؟

تظل العبقرية الأدبية لغزاً من الألغاز. ولا يمكن تفسير ظهور نابوكوف أو بيكيت تفسيراً عقلانياً، ولكن من المؤكد أن علاقة صلة النسب أو الانتماء إلى أمة من الأمم بذلك ضئيلة. وبالطبع فإنه صحيح بصورة عامة أنك تكتسب إحساسك بإيقاع لغة ما وبقدرتها على التعبير وأنت تنمو معها، عن طريق تعلم أناشيد الحضانة وأنت طفل والحديث مع الأطفال الآخرين في المدرسة. ويمكن لأبناء اللغة الذين يعرفون القراءة والكتابة تحديد أي عبارة مبتذلة حين يسمعونها. ولكن هذا ليس مهماً. فأي أديب كجوزيف كونراد يمكنه إبدال لغته ويظل عظيماً لا فرق إن كان يعبر عن «الإنجليزية» أو «البولندية».



وعندما بدأ كونراد كتابة رواياته الشهيرة، كانت الإنجليزية هي اللغة المشتركة لإمبراطورية عظيمة، ولكنها لم تكن لغة العالم المشتركة. فهل ستنتج هيمنة الإنجليزية أكثر من كونراد؟ من بين الأحداث الأدبية اللافتة للانتباه خلال الأعوام القليلة الماضية نجاح هاجين الكاتب الصيني الذي يكتب بالإنجليزية. وكان هاجين في العشرينيات من عمره عندما جاء إلى الولايات المتحدة. وقد لا يكون كونراد، إلا أن كتاباته غاية في الروعة. وتتسم هذه الكتابات بنوع من الاقتصاد الأدبي، حيث تخلو تماماً من الإشارات الثقافية أو الأدبية. وتقع أحداث روايته «انتظار» في الصين، ولذلك كانت الإشارات المتصلة بالعالم المتحدث بالإنجليزية ستبدو غريبة بأي حال من الأحوال. إلا أننا نتساءل إن كانت رواية هاجين تبشر بأسلوب إنجليزي عالمي جديد، فيه فصل تام بين الثقافة واللغة، أم لا؟ ولم يستبدل كازوو إيشيجارو، الذي وُلد في اليابان ونشأ في بريطانيا، لغة بأخرى (فهو لا يتحدث اليابانية)، إلا أنه يحاول تجنب أية إشارات لا يفهمها سوى أبناء الإنجليزية. وهو يقول إنه يكتب للعالم. بعبارة أخرى، فإنه يتعمد التخلص من سمة كلمة السر الخاصة باللغة.

ويعيش الجيل الحالي ممن يكتبون بالإنجليزية ولهم خلفية غير إنجليزية في عالم يختلف عن العالم الذي يعيش فيه كونراد أو نابوكوف أو آرثر كوستلر. فقبل



الحرب العالمية الثانية، كان الكُتّاب وقراؤهم - سواء أكانوا من لندن أو سانت بطرسبرج أو بودابست - لا يزالون يشتركون في الإشارات الثقافية. فقد كانت لدى من يعرفون القراءة والكتابة معرفة حية بالعهد القديم والعهد الجديد والميثولوجيا الكلاسيكية. وكان لا يزال هناك شيء مثل الحضارة الأوروبية أو حتى الغربية؛ وهو ما ندر وجوده في الوقت الراهن. والإشارات المشتركة الآن كونية ومحلية، أي أنها أمريكية في عمومها؛ إنها هوليوود وموسيقى البوب ولغة الطيارين والكمبيوتر. وقد تكون عواقب ذلك أشد سوءاً في بعض النواحي بالنسبة للأمريكيين عمن يتحدثون اللغات الصغرى.



الميزة الكبيرة للتحدث بالهولندية أو الدنماركية، أو حتى الألمانية أو البنغالية، هي أن المرء يجبر على إتقان لغة أخرى على الأقل إن كان سيعمل في العالم الحديث. وحتى أكثر علماء اللغة الإيكولوجيين حماساً لا ينادون بأحادية اللغة. فها هو ديفيد كريستال يتحدث عن «ثنائية اللغة الصحية»، وهو مصطلح قد يشوبه شيء من الغموض (فلا بد من الحرص عند استخدام كلمة «صحية»)، ولكن ما يقصده واضح؛ فاللسان الوطني يختص بالتاريخ والثقافة والهوية والأدب، أما اللغة الحضرية فمن أجل الاتصال بالعالم الأوسع. وكما قلت فإنه قد يبالغ في التفريق، ولكن القدرة على تحدث وقراءة أكثر من لغة هو بالتأكيد أمر طيب. فقراءة لغة أخرى لا يتيح لك فقط فهم ما يفكر فيه أناس من مكان مختلف، وإنما معرفة طريقة تفكيرهم كذلك. وليس معنى هذا أن الأفكار والمشاعر تحددها اللغة. فالواقع أنه كلما تعلم المرء فهم اللغات الأخرى، كانت رؤيته للإنسانية المشتركة أكبر. وهذا لا يحل الصراع بين البشر؛ إذ لا يزال احتمال نشوب الحرب قائماً، وإن تحدث العالم بأسره الإنجليزية أو الإسبرانتو. ولكن يمكنك فقط فهم موقعك الثقافي والسياسي والاجتماعي في العالم إن أنت فهمت عالم الآخرين، وهو ما يساعدك على فهم ما يقولون.

ومن ثم يمكن أن يكون المركز أكثر إقليمية من الهامش في بعض الجوانب. فعندما لا يكون تحت يد المرء سوى لغة واحدة - حتى وإن كانت لغة العالم - فإن الآخرين سيبدون له شديدي الغرابة أو مشابهين له بطريقة خادعة. فهم يتحدثون الإنجليزية، ويأكلون هامبورجر ماكدونالدز، ويشاهدون أفلام هوليوود، وبالتالي لا بد أن يكونوا كالأمريكيين تماماً. وهذا كلام مضلل شأنه شأن افتراض غرابة أفكار الناس علينا، لأننا لا نفهم ما يقولونه.

إن الإنجليزية هي اللغة كلمة السر الخاصة بالنخبة العالمية، وهي في ذلك أوسع نطاقاً بكثير مما كانت عليه الفرنسية أو الإسبانية في يوم من الأيام. وهذا ناتج عن التاريخ، وبناء الإمبراطورية، وقوة الولايات المتحدة. فلا شيء في اللغة الإنجليزية ذاتها يقضي بأن تكون هي السائدة. وفي المستقبل البعيد قد تصبح الصينية اللغة المشتركة في الأعمال التجارية أو الثقافة - قد يكون من الصعب تخيل ذلك، ولكنه محتمل من الناحية النظرية.

وتطمح ملايين وملايين في الانضمام إلى النخبة الأنجلوفونية. وربما يكون هناك في يوم من الأيام فهم يكاد يكون عالمياً للإنجليزية. ولكن من المؤكد أن مطمح فهم الجميع لها تقابله رغبة قوية لدى الآخرين في حماية كلمات السر الخاصة بهم التي لا يمكن فهمها بسهولة. وأنا على عكس وزير التعليم الهولندي المتقاعد لا أتوقع اختفاء الهولندية كلغة أساسية عما قريب. بل إني على العكس من ذلك أعتقد أن التجانس السطحي الخاص بالعولمة سوف يثير الأثر الفريزي في أماكن كثيرة. وينظر إلى الإنترنت التي تربط العالم بأسره على أنها موقع الإنجليزية الحصين، ولكن الواقع أنها تتحول بالتدريج إلى منافسة إلكترونية يمكن فيها للناس استخدام ما يحلو لهم من اللغات. فالإنترنت آخذة بالفعل في التحول إلى مستودع ليس فقط للغات الحية، بل كذلك للغات التي يفترض أنها انقرضت. ذلك أنه يمكنك في الفضاء الإلكتروني وحده سماع لغات سكان أستراليا الأصليين مثل الجيوارلي، التي مات آخر متحدث وطني بها عام ١٩٨٦. وهذا هو سبب اعتقادي بأنه تماماً مثلما لا يمكننا منع أنفسنا من إعادة بناء برج بابل، فإنه سيهدم مرات ومرات.

عن مجلة:
(The New York Review of Books)
May 31, 2001

ترجمة: أحمد محمود

هل يفسر العلم كل شيء؟

ستيفن واينبرج

ربما يقصد بعض من يقولون إن العلم يصف ولا يفسر، أن يقارنوا بين العلم واللاهوت الذي يؤكد اللاهوتيون أنه يفسر الأشياء بإرجاعها إلى غايات إلهية، الأمر الذي لا يخوض فيه العلم

في إحدى الأمسيات كنت أتحاور مع بعض أعضاء هيئة التدريس من جامعة تكساس حول العمل الذي أنجزناه في الفيزياء، وأشرت إلى التقدم الكبير الذي حققناه في تفسير حقائق تجريبية عن الجسيمات الأولية (الدقائق متناهية الصغر التي تتكون منها الذرات) خلال عقد واحد فقط من السنوات (من منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينيات من القرن العشرين)، بعد أن كان علينا أن ندرس - عندما كنا طلابا - كمًا كبيرًا متنوعًا من الحقائق المختلفة عن تلك الجسيمات، وكيف تعلمنا أن نستنتج هذه الحقائق المتنوعة باستخدام بعض القواعد البسيطة، الأمر الذي جعل الفيزيائيين يتنفسون الصعداء. وبمجرد ذكر هذه الملاحظات علق أحد الزملاء قائلاً: «إن العلم لا يفسر الأشياء ولكنه يقوم بوصفها فقط». كنت قد سمعت مثل هذه الملاحظات من قبل، لكنها هذه المرة فاجأتني لأنني كنت أعتقد أننا قد قمنا بعمل جيد في تفسير خواص الجسيمات الأولية وليس مجرد وصفها(١).

وأغلب الظن أن ملاحظة الزميل قد نبعت من تخوف كان منتشرًا على نطاق واسع بين فلاسفة العلوم في فترة ما بين الحربين العالميتين. فقد كتب لودفيج ويتجنشتاين Ludwig Wittgenstein «هناك خداع كامن في صميم نظرتنا الحديثة للعالم مفاده أن ما يسمى قوانين الطبيعة هو تفسير للظواهر الطبيعية». وقد يكون تفسير شيء ما هو اكتشاف سببه، غير أن برتراند راسل كان قد كتب مقالة ظهرت سنة ١٩١٣ يقول فيها: «إن كلمة سبب ترتبط بشكل لصيق ببعض الأمور الخادعة للدرجة التي تجعل إقصاءها التام من قاموس الفلسفة أمرًا مرغوبًا فيه». ولم يدع هذا الأمر للفلاسفة من أمثال «ويتجنشتاين» إلا شيئًا واحدًا فقط يميزون به بين التفسير والوصف، وهو شيء غائي يُعَرِّفُ التفسير بأنه مقولة تتناول الغاية من الشيء موضع التفسير.

وتعطينا إحدى روايات الكاتب فورستر E.M.Forster «أين تخشى الملائكة أن تطأ على الأرض» - مثالاً جيدًا للغائية في الفرق بين الوصف والتفسير. كان فيليب وصديقته كارولين (من أبطال الرواية) يناقشان موضوع زواج شقيقة فيليب من رجل غير مرغوب فيه، وبعد أن سردت كارولين كل الحوارات التي دارت بينها وبين شقيقة فيليب، قال فيليب: «إنك لم تعطني سوى وصف وليس تفسيرًا»، وكلنا نعرف ما الذي يعنيه فيليب عندما طلب تفسيرا، لقد كان يرغب في معرفة أهداف كارولين. ولا توجد غايات في قوانين الطبيعة. ولأن صديقي صاحب التعليق والفيلسوف «ويتجنشتاين» لا يعرفان أية طريقة للتمييز بين الوصف والتفسير، فقد استنتجا أن هذه القوانين لا يمكن أن تكون تفسيرًا. وربما يقصد بعض من يقولون أن العلم يصف ولا يفسر أن يقارنوا بين العلم واللاهوت الذي يؤكد اللاهوتيون أنه يفسر الأشياء بإرجاعها إلى غايات إلهية، الأمر الذي لا يخوض فيه العلم.



ويبدو لي أن البحث عن السبب أمر خاطئ شكلاً وموضوعًا. فليس من عمل الفلاسفة أو أي إنسان آخر أن يفرض معاني للكلمات غير المعاني الشائعة الاستخدام. وكان أجدى بالفلاسفة أن يحاولوا فهم ما يفعله العلماء، عندما يقولون أنهم يفسرون الأشياء، وذلك بدلاً من اتهامهم بالخطأ. وإذا كان لا بد لي مسبقًا أن أُعَرِّف التفسير في الفيزياء فإنني أقول: «التفسير في الفيزياء هو ما يفعله الفيزيائيون ثم يتنفسون بعده الصعداء»، غير أن التعريفات المسبقة ليس لها فائدة تذكر (بما في ذلك هذا التعريف).

وعلى حد علمي فإن هذا التعريف قد أصبح مفهومًا لفلاسفة العلوم، على الأقل منذ الحرب العالمية الثانية. وهناك عدد كبير من المراجع حول طبيعة التفسير أصحابها فلاسفة مثل «بيتر أكينشتاين» Peter Achinstein و«كارل همبل» Carl Hempel و«فيليب كيتشر» Philip Kitcher و«ويزلي سالمون» Wesley Salmon ومن قراءتي في هذه المراجع اقتنعت تدريجيًا أن الفلاسفة على الطريق الصحيح في هذا الشأن: فهم يحاولون الوصول إلى إجابة على السؤال: «ما الذي يفعله العلماء عندما يفسرون شيئًا ما؟» وذلك بمراقبة ما يفعله العلماء في الواقع.

يقول العلماء المتخصصون في العلوم البحتة (وليس التطبيقية) إن رسالتهم هي تفسير الأشياء، ولذلك فإن فهم طبيعة التفسير لها أهمية كبرى عندهم، تماما مثل أهميتها للفلاسفة. وتبدو هذه المهمة أسهل بعض الشيء في الفيزياء (والكيمياء) عنها في العلوم الأخرى. فبينما يواجه فلاسفة العلوم الحوادث الفردية، يهتم الفيزيائيون بتفسير القواعد العامة للفيزياء. فالبيولوجيون ورجال الأرصاد الجوية والمؤرخون يهتمون بأسباب الأحداث الفردية مثل اختفاء الديناصورات أو العاصفة الثلجية التي حدثت سنة ١٨٨٨ أو الثورة الفرنسية... الخ، بينما لا يهتم الفيزيائيون بحادث فردي إلا إذا كان له مدلول عام مثل اكتشاف النشاط الإشعاعي من حادثة فردية (تعرض ألواح فوتوغرافية إلى «ضوء غير مرئي» رغم وجود هذه الألواح في الظلام). وقد حاول فيليب كيتشر أن يبعث إلى الحياة من جديد فكرة أن تفسير أي حادث هو إرجاعه إلى أسبابه. لكن الأسباب كثيرة، فما هي بالتحديد الأسباب التي يتحدث فيليب كيتشر عنها من بين العدد اللانهائي من الأشياء التي قد تؤثر في أي حادث(٢)؟



ويمكن أن نُعَرِّف الفرق بين التفسير ومجرد الوصف - في مجال الفيزياء - بقولنا: «نحن نفسر قاعدة فيزيائية عندما نثبت إمكانية استنتاجها من قاعدة فيزيائية أخرى سابقة عليها (أي أكثر أصولية)». ومعنى كل كلمة في هذا التعريف موضع تساؤل. لكنني سأركز هنا على ثلاث كلمات تمثل في رأيي أكبر الصعوبات: «سابقة عليها أو أصولية» و«استنتاج» و«قاعدة». فكلمة استنتاج لا توحي باتجاه معين، فقد يحدث أن تتمكن من استنتاج قاعدة فيزيائية معينة من أخرى أحدث منها أو العكس. وأفضل مثال على ذلك هو العلاقة بين قوانين نيوتن وقوانين كبلر. فكل واحد منا يعرف أن نيوتن لم يكتشف القانون الذي ينص على تناقص قوى الجاذبية مع مربع المسافة فقط ولكنه اكتشف كذلك قانون الحركة والذي يوضح كيف تتحرك الأجسام تحت تأثير جميع أنواع القوى. وقبل ذلك بقليل كان كبلر قد توصل إلى ثلاثة قوانين لحركة الكواكب: ينص القانون الأول على أن الكواكب تتحرك في مدارات بيضاوية توجد الشمس في مركزها. وينص القانون الثاني على أن الخط المار من الشمس إلى أي كوكب يمسح مساحات متساوية في أزمنة متساوية أثناء دوران الكوكب حول الشمس. أما القانون الثالث فينص على أن مربع زمن دورة الكوكب حول نفسه يتناسب مع مكعب أطول قطر في المسار البيضاوي للكوكب.

ومن الطبيعي أن نقول بأن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر. غير أن قوانين الجاذبية لنيوتن - تاريخيًا - قد تم استنتاجها من قوانين كبلر عن حركة الكواكب. وقد استخدم كل من «إدموند هالي» و«كريستوفر رين» و«روبرت هوك» العلاقة التي وضعها كبلر بين مربع زمن دورة الكوكب حول نفسه ومكعب القطر لاستنتاج قانون التربيع العكسي للجاذبية. ثم طور نيوتن هذا الاستخدام ليطبق على المدارات البيضاوية. وعندما تقوم اليوم بدراسة الميكانيكا فإنك تتعلم كيف تستنتج قوانين كبلر من قوانين نيوتن وليس العكس. ونحن نشعر في أعماقنا أن قوانين نيوتن أكثر أصولية من قوانين كبلر، وفي هذا السياق فإن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر وليس العكس. وهكذا نجد أنه من الصعب الحكم بأن إحدى قواعد الفيزياء أكثر أصولية من الأخرى.

وقد يكون من المغري القول بأن الأكثر أصولية هو الأكثر شمولاً. وربما تكون محاولة «كارل همبل» هي أفضل المحاولات لتعريف التفسير الذي يقصده العلماء، فقد ذكر في مقالة مشتركة مع «باول أوبنهايم» ظهرت سنة ١٩٤٨: «تفسير ظاهرة عامة هو تصنيفها تحت قانون أكثر عمومية»، إلا أن ذلك لا يقلل من الصعوبة. ويستطيع المرء أن يقول أن قوانين نيوتن، مثلاً، لا تتحكم فقط في حركة الكواكب ولكنها تتحكم كذلك في المد والجزر على الأرض، وفي الثمار التي تسقط من الأشجار وغيرها. وليس صحيحًا أن قوانين كبلر تتعامل مع مدار حركة الكواكب المحدود فقط، فهي تتحكم كذلك في حركة الإلكترونات حول النواة، حيث الجاذبية غير ذات موضوع، لكن قوانين الميكانيكا ما زالت قابلة للتطبيق. ولذا فإن قوانين كبلر - بشكل أو بآخر - تحمل عمومية ليست في قوانين نيوتن.

وهكذا يصبح منافيًا للعقل أن نقول بأن قوانين كبلر تفسر قوانين نيوتن في الوقت الذي استكان فيه كل إنسان إلى مقولة أن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر.

ويعد هذا المثال عن قوانين كبلر ونيوتن مفتعلاً إلى حد ما، فليس هناك شك حقيقي بشأن أيهما يفسر الآخر؟ أما في حالات أخرى فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة من ذلك. وسنلجأ هنا إلى مثال آخر: عند تطبيق ميكانيكا الكم على نظرية النسبية العامة لأينشتاين، نجد أن الطاقة والعزم في مجال الجاذبية تكونان على شكل حزم أو مجموعات من جسيمات لا كتلة لها (مثل جسيمات الضوء - الفوتونات) تعرف باسم «الجرافيتونات». ويؤدي تبادل هذه الجرافيتونات إلى التأثيرات الخاصة

بالجاذبية، والتى تنبأت بها النسبية العامة. ومن جهة أخرى فإن نظرية الأوتار (أحدث النظريات فى نشأة الكون) قد تنبأت بوجود جسيمات مثل الجرافيتونات تماماً. وهكذا، فهل تفسر النظرية النسبية العامة وجود الجرافيتونات؟ أم هل يفسر وجود الجرافيتونات النظرية النسبية العامة؟ فى الواقع نحن لا نعرف الإجابة. وعليه فإن مستقبل الفيزياء يعتمد على إجابة السؤال الآتى: هل ستقوم فيزياء المستقبل على الهندسة الزمكانية (ذات الأبعاد الأربعة: ٣ للمكان وبعد واحد للزمان) كما فى النسبية العامة، أم تقوم على بعض النظريات مثل نظرية الأوتار، التى تتنبأ بوجود الجرافيتونات؟

وتواجه فكرة اعتبار التفسير هو الاستنتاج صعوباتٍ عندما نتعامل مع القواعد (أو المبادئ) الفيزيائية التى تتجاوز القواعد (أو المبادئ) التى تم استنتاجها منها. وتعطينا الديناميكا الحرارية - علم الطاقة والاتزان ودرجة الحرارة - مثالاً على ذلك. فقد نجح «لودفيج بولتسمان» فى استنتاج قوانين الديناميكا الحرارية (بعد صياغتها فى القرن التاسع عشر) من الميكانيكا الإحصائية، وهى فيزياء الأجسام الكبيرة (الماكروية) التى تتكون من عدد كبير من الجزيئات المفردة. وقد تم الاعتراف على نطاق واسع بتفسير بولتسمان للديناميكا الحرارية بواسطة الميكانيكا الإحصائية على الرغم من معارضة عدد قليل من الفيزيائيين أصحاب النظرة القديمة لقوانين الديناميكا الحرارية باعتبارها مبدأ فيزيائياً حراً قائماً بذاته وأساسياً كأى مبدأ أساسى آخر. وأخيراً تمكن «جاكوب بيكنشتاين» و«ستيفين هوكينج» فى القرن العشرين من تطبيق الديناميكا الحرارية على الثقوب السوداء (مواقع فى الكون شديدة الجاذبية حتى أن أشعة الضوء لا تستطيع الإفلات منها، من هنا التسمية بالثقوب السوداء)، لا لأنها تتكون من عدد كبير من الجزيئات ولكن ببساطة لأنها تملك سطحاً لا يستطيع أى جسيم أو شعاع أن يفلت منه إلى الخارج. وهكذا تبدو الديناميكا الحرارية وقد تجاوزت الميكانيكا الإحصائية للأنظمة متعددة المكونات، والتى تم استنتاجها أصلاً منها.

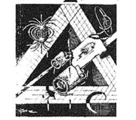
وقد يكون هناك ما يفيد أن قوانين الديناميكا الحرارية ليست أصولية (أو أساسية) مثل مبادئ النسبية العامة أو نظرية النموذج القياسى للجسيمات الأولية (نظرية ظهرت فى الستينيات من القرن العشرين). ومن المهم هنا أن نوضح الفرق بين أمرين: فمن جهة تعتبر الديناميكا الحرارية نظاماً معترفاً به ومؤكداً يسمح لنا باستنتاجات مثيرة من بضعة قوانين بسيطة. وتنطبق هذه القوانين على الثقوب السوداء والمراجل البخارية وعلى أنظمة أخرى عديدة. ومن جهة أخرى نرى أن هذه القوانين نفسها لا تنطبق على جميع الحالات، فهى لا تعنى شيئاً إذا طبقناها على ذرة مفردة. غير أن الديناميكا الحرارية نفسها ليست تفسيراً لأى شىء.

وفى هذا المقام فإننى لا أرى فرقاً كبيراً بين الديناميكا الحرارية والهندسة الإقليدية (الهندسة المستوية)، ففى النهاية تنطبق الهندسة الإقليدية على تنوع هائل من الظروف. فلو اتفق ثلاثة أشخاص على قياس مجموع زوايا المثلث لوجدوا أنها ١٨٠ درجة. وسنحصل على مجموع ١٨٠ درجة لزوايا المثلث سواء كان مصنوعاً من قضبان من الصلب أو مرسوماً بالقلم الرصاص على صفحة من الورق. وهكذا قد يبدو أن الهندسة أكثر أصولية من علم البصريات أو الميكانيكا. غير أن الهندسة الإقليدية عبارة عن نظام معترف به ومؤكد من الاستدلالات (الاستنتاجات) يقوم على فروض قد تنطبق وقد لا تنطبق فى حالات معينة. ونحن نعرف من النظرية النسبية أن الهندسة الإقليدية لا تنطبق فى مجال الجاذبية، لكنها مع ذلك تعتبر من التقريبات الجيدة فى المجال الضعيف لجاذبية الأرض، فقد توصل إقليدس إليها وهو موجود فى مجال جاذبية الأرض. وعندما نستخدم هندسة إقليدس لتفسير أى شىء فى الطبيعة، فإننا نعتمد ضمناً على النسبية العامة لتفسير الهندسة الإقليدية فى الحالات موضع الدراسة.



وإذا بدأنا الحديث عن الاستنتاج فإننا نقحم أنفسنا فى معضلة أخرى، فمن الذى يجرى هذا الاستنتاج؟ وقد اعتدنا القول بأن شيئاً ما يفسر شيئاً آخر دون أن نتمكن من استنتاجه فى واقع الأمر. فمثلاً بعد أن تطورت ميكانيكا الكم فى منتصف العشرينيات من القرن الماضى، وعندما أصبح فى الإمكان حساب الطيف الذرى (أطوال الموجات وشدة الأشعة الممتصة أو المنبعثة من ذرات عنصر ما) وطاقة الربط فى الهيدروجين (الطاقة التى تربط الذرات ببعضها فى الجزيئات) بشكل مفهوم وواضح لأول مرة، اعتقد كثير من الفيزيائيين أن الكيمياء يمكن تفسيرها بواسطة ميكانيكا الكم ومبدأ التجاذب الكهروستاتيكى بين الإلكترونات وأنوية الذرات. وأعلن فيزيائى فى شهرة «باول ديراك» أن كل الكيمياء قد أصبحت الآن مفهومة. وكانوا لم يتمكنوا بعد من استنتاج الخواص الكيميائية لأى جزىء فيما عدا أبسط الجزيئات وهو الهيدروجين. وكان الفيزيائيون على يقين بأن كل الخواص الكيميائية ما هى إلا تداعيات لقوانين ميكانيكا الكم وتطبيقها على الأنوية والإلكترونات.

وقد أيدت خبرتنا هذا الرأى، فاليوم نستطيع أن نستنتج خواص جزيئات على درجة عالية من التعقيد - ليست فى درجة تعقيد البروتينات أو «دنا» (الحمض النووى الشهير) - لكن إلى حد ما جزيئات عضوية معقدة، وذلك بإجراء حسابات متقدمة على أجهزة الكمبيوتر باستخدام ميكانيكا الكم ومبدأ التجاذب الكهروستاتيكى. ويستطيع أى



فيزيائي تقريبًا الادعاء بأن الكيمياء يمكن تفسيرها بواسطة ميكانيكا الكم والخواص البسيطة للإلكترونات وأنوية الذرات. لكننا لن نتمكن من تفسير الظاهرة الكيميائية ككل بهذا الشكل أبدًا، وبذلك لن تختفي الكيمياء وستصمد كعلم مستقل. ولا يسمي الكيميائيون أنفسهم بالفيزيائيين، فلهم مجلاتهم العلمية الخاصة بهم وخبراتهم المختلفة عن الفيزيائيين. ومن الصعب التعامل مع الجزيئات المعقدة بالطرق الخاصة بميكانيكا الكم، لكننا مع ذلك نعلم أن الفيزياء تفسر سلوك المواد الكيميائية. وليس هناك تفسير لذلك في مراجعنا أو مقالاتنا العلمية، إنه في الطبيعة، فقوانين الفيزياء تتطلب وجود مواد كيمائية لتظهر سلوكها وخواصها المعروفة.

وهناك ملاحظات مماثلة في مجالات أخرى من العلوم الطبيعية: فنحن نملك نظرية مؤكدة للقوى النووية القوية كجزء من النموذج القياسي - وهذه القوى هي التي تشد وتربط كلا من الجسيمات في النواة والجسيمات المكونة لتلك الجسيمات - وتسمى كروموديناميكا الكم. ونعتقد أنها تفسر السبب في وجود كتلة للبروتون (الجسيم الأساسي في نواة الذرة وهو موجب الشحنة). وتنتج كتلة البروتون من القوى القوية التي تمارسها الكواركات (الجسيمات المكونة للجسيمات الأساسية) على بعضها. وقد يكون من المهم أن نعترف بأن شيئًا ما قد تم تفسيره ولو في حدود ضيقة. أما مسألة حساب كتلة البروتون فإنها لن تساهم في تقدم فهمنا لقوانين الطبيعة، لأننا بالفعل نفهم القوى النووية القوية بشكل جيد يكفي لمعرفة أننا لن نحتاج إلى قوانين جديدة في هذا الحساب.



وهناك مشكلة أخرى، إذا أخذنا التفسير على أنه الاستنتاج: ففي بعض الحالات يمكن أن نستنتج شيئًا دون أن نفسره. قد يبدو ذلك غريبًا، لكن لنقرأ القصة الآتية: عندما بدأ الفيزيائيون جديًا في التعامل مع نظرية الانفجار العظيم (Big Bang) (نظرية نشأة الكون من انفجار الزمان والمكان وتحول الإشعاع إلى مادة)، فإن أحد الأشياء التي حسبوها كان إنتاج عناصر الضوء خلال الدقائق القليلة الأولى لتمدد الكون. وقد طوروا مصفوفة ضخمة من المعادلات التفاضلية لهذا الغرض ثم عالجوها بالكمبيوتر. وعندما قام كل من «جيمس بيبلز» و«روبرت واجونر» و«وليم فولر» و«فريد هويل» بحل هذه المعادلات، اتضح أنه بعد بضع دقائق من الانفجار كان ربع الكون على شكل هليوم أما الباقي فقد كان كله تقريبًا هيدروجينيًا مع نسبة بالغة الضآلة من العناصر الأخرى.

ولو افترضنا أن تمدد الكون أصبح أسرع مما كان عليه فالمتوقع أن تقل نسبة الهليوم فيه، لكن الحسابات أظهرت أن نسبة الهليوم ترتفع مع زيادة سرعة التمدد(!!!). وتفسير ذلك ليس صعبًا مع أنه لا يظهر في الكمبيوتر بسهولة. فبينما كان الكون يتمدد ويبرد في الدقائق الأولى، كانت التفاعلات النووية تؤدي إلى تكون الأنوية المعقدة من البروتونات والنيوترونات الأولية. لكن نظرًا لانخفاض كثافة الكون نسبيًا فإن هذه التفاعلات كانت تحدث على مراحل وفي تتابع: أولاً باتحاد بعض البروتونات والنيوترونات لتعطي نواة الهيدروجين الثقيل (الديوتيريوم)، ثم بعد ذلك باتحاد نواة الهيدروجين الثقيل بالبروتونات أو النيوترونات أو مع أنوية أخرى من نفس النوع لتكوين نواة أثقل مثل الهليوم. لكن أنوية الديوتيريوم رقيقة وضعيفة التماسك نسبيًا، لذلك فإنها لا تتكون إلا بعد أن تنخفض درجة الحرارة إلى حوالي بليون درجة (ألف مليون) في نهاية الدقائق الثلاث الأولى من لحظة الانفجار العظيم. وخلال هذا الوقت كانت النيوترونات تتحول إلى بروتونات تمامًا كما يحدث في معاملنا اليوم.

وعندما انخفضت درجة الحرارة إلى هذا الحد (بليون درجة) وأصبحت باردة بما يكفي أنوية الديوتيريوم للتماسك، كان قد تم اقتناص جميع النيوترونات لتكوين أنوية الديوتيريوم ثم اتحاد هذه الأنوية لتعطي الهليوم الذي يتميز بثبات أنويته بشكل خاص. ويتطلب تكوين نواة الهليوم زوجًا من النيوترونات وزوجًا من البروتونات، ولذا فإن عدد أنوية الهليوم التي تكونت في ذلك الوقت كان بالضبط نصف عدد النيوترونات المتبقية. وبذلك فإن عدد النيوترونات التي تحللت قبل أن تنخفض درجة الحرارة إلى بليون درجة هو الأمر الحاسم الذي حدد كمية الهليوم المتكونة في الكون المبكر. وكلما كان التمدد أسرع انخفضت درجة الحرارة أسرع، وأصبح الوقت ضيقًا بالنسبة للنيوترونات لتتفكك، وكلما زاد عدد المتبقي منها وبالتالي زاد إنتاج الهليوم. هذا هو التفسير لما جاءت به حسابات الكمبيوتر.



ومع أنني قلت إن الفيزيائيين يهتمون فقط بتفسير القواعد العامة، إلا أنه ليس واضحًا تمامًا ما هي القاعدة وما هو مجرد الحدث؟ ويعطينا كبلر مرة ثانية مثالاً على ذلك. وكبلر معروف اليوم بقوانينه الأساسية الثلاثة عن حركة الكواكب، إلا أنه عندما كان شابًا كان يحاول تفسير أقطار مدارات الكواكب بواسطة تصميم هندسي معقد يتضمن متعدد أضلاع منتظمًا. ونحن نضحك من ذلك اليوم لأننا نعرف أن بعد الكواكب عن الشمس يعكس أحداثًا وقعت عندما تكونت المجموعة الشمسية. ونحن لذلك لا نحاول تفسير أقطار مدارات الكواكب عن طريق استنتاجها من بعض القوانين الأساسية.

وهناك تفسير إحصائي بشكل ما للمسافة بين الشمس والأرض[3]، فلو سألت: لماذا تقع الأرض على مسافة مائة مليون ميل من الشمس وليس مائتي مليون أو خمسين مليون ميل مثلاً أو أبعد أو أقرب، فإن الإجابة قد تأتي على النحو التالي: لو كانت الأرض أقرب كثيرًا من الشمس لكانت أسخن كثيرًا بالنسبة لنا، ولو كانت أبعد لكانت أبرد كثيرًا. وكما هو واضح فإن ذلك تفسير جد سخيف، لأننا نعرف أن المجموعة الشمسية عندما تكونت لم تكن تعلم مسبقًا بحياة الإنسان. غير أن هذا التفسير قد لا يكون سخيفًا تمامًا، لأن هناك عددًا لانهائيًا من الكواكب في الكون، ولو كانت شريحة ضئيلة منهم موجودة على مسافات مناسبة من نجومها، ولها كتلة وتركيب كيميائي مناسبان يسمحان بنشوء الحياة، إذن لن تكون مفاجأة أن تتساءل المخلوقات الموجودة عن المسافة بين كوكبهم ونجمه، وسيجدون أنهم يعيشون على واحد من كواكب تلك الشريحة الضئيلة.

ويطلق على هذا النوع من التفسيرات اسم «البشري» Anthropic، وكما نرى فإنه لا يقدم نظرة مفيدة بشكل واف عن فيزياء المجموعة الشمسية. لكن، قد تصبح هذه التفسيرات البشرية مهمة جدًا عند تطبيقها على العالم.

ويفكر علماء الكون - بشكل متزايد - في أن الانفجار العظيم (Big Bang)، وهو تمدد الكون الذي نعيش فيه، قد يكون واحدًا من عدد كبير من الانفجارات التي حدثت مشتتة هنا وهناك في عالم مهول أكبر، تمامًا مثلما أن الأرض واحد من كثير من الكواكب. وهم يفترضون ما هو أبعد من ذلك، فيقولون أن بعض الثوابت المفترضة في الطبيعة قد تكون لها قيم مختلفة في هذه الانفجارات العظيمة المختلفة، وقد تتخذ بعض ما نسميه قوانين الطبيعة الآن أشكالاً مختلفة. وبناء على ذلك فقد يكون للسؤال: لماذا تتخذ قوانين الطبيعة التي نكتشفها والثوابت التي نقيسها في الطبيعة هذا الشكل وهذه القيم؟ مجرد تفسير لاهوتي - أي أنه مع هذا النوع من الانفجارات العظمى فقط يحتمل أن يوجد أحد ما ليسأل هذا السؤال.

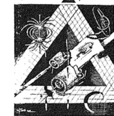


وإنني أتعشم ألا نكون مدفوعين إلى اللجوء لهذا النوع من التوضيح وتسبيب الأسباب، وأننا سنكتشف يومًا ما منظومة فريدة من قوانين الطبيعة التي ستفسر: لماذا تكون الثوابت الطبيعية على ما هي عليه؟ وعلينا أن نتذكر دائمًا أن ما نسميه قوانين الطبيعة وثوابت الطبيعة قد يكون مجرد سمات نشأت نتيجة أحداث عشوائية في الانفجار العظيم الذي تصادف وجودنا فيه، مع وجود أمور قسرية (مثل المسافة بين الأرض والشمس) ووجود مدى تتراوح فيه هذه السمات لتتمكن الكائنات من الظهور وطرح السؤال حول ماهيتها الكائنة عليها. وعلى العكس فمن المحتمل أن نعتبر بعض الظواهر مجرد أحداث عشوائية، بينما هي في الواقع مجرد إظهار أو تعبير عن مبادئ فيزيائية أساسية. وفي ذلك قد تكمن الإجابة عن سؤال تاريخي ظل يحيرني سنوات طويلة: لماذا كان «أرسطو» (وكثيرون غيره من الفلاسفة الطبيعيين؛ وبالذات «ديكارت») قانعًا بنظرية للحركة لا تزودنا بأية طريقة للتنبؤ بوضع القذيفة أو موضع أي جسم يسقط في أية لحظة أثناء طيرانه؟ وهو تنبؤ من النوع الذي تزودنا به قوانين نيوتن. وتبعًا لأرسطو فإن المواد تميل إلى الحركة تجاه أوضاعها الطبيعية - فالوضع الطبيعي للتربة إلى أسفل وللنار إلى أعلى، أما الماء والهواء فيشغلان موضعًا وسطًا بين ذلك، لكن أرسطو لم يحاول حتى الحديث عن سرعة هبوط قطعة من التربة إلى أسفل أو طيران شرارة من النار إلى أعلى. وأنا لا أتساءل لماذا لم يكتشف أرسطو قوانين نيوتن؟ - فمن الواضح أن شخصًا ما كان عليه أن يقوم بهذا الاكتشاف. وقد حاز نيوتن قصب السبق في ذلك. وما يزعجني هو: لماذا لم يشعر أرسطو بعدم الرضا لأنه لم يعرف كيف يحسب مواضع القذائف في أية لحظة على طول مسارها. بل إنه حتى لم يتصور أن هذا الأمر يمثل مشكلة يجب حلها.

وأغلب الظن أن ذلك قد حدث لأن أرسطو كان يفترض أن سرعة حركة الأشياء تجاه مواضعها الطبيعية مجرد أمر عشوائي يتم بالصدفة ولا يخضع للقواعد. ولا نجد تعميمًا حول هذا الأمر (اللهم إلا أن الأجسام الثقيلة تسقط أسرع من الأجسام الخفيفة)، والشيء الوحيد الذي يقبل التعميم كان مسألة الاتزان - حيث تستقر الأشياء. وقد يعكس ذلك ما كان معروفًا عن الفلاسفة الهلينيين من تَرَفُّع عن



يقول العلماء المتخصصون في العلوم البحتة وليس التطبيقية إن رسالتهم هي تفسير الأشياء، ولذلك فإن فهم طبيعة التفسير لها أهمية كبرى عندهم، تمامًا مثل أهميتها للفلاسفة



التغيير (ازدراء للتغيير) على نطاق واسع، كما هو واضح في أعمال «بارامينيداس» الذي كان موضع إعجاب أفلاطون أستاذ أرسطو. كان أرسطو بالطبع على خطأ، لكنك لو تخيلت نفسك في زمانه، لرأيت كم هو أمر غير واضح أن تكون الحركة محكومة بقواعد رياضية دقيقة يمكن اكتشافها. وعلى حد علمي فإن هذا الأمر قد ظل غير مفهوم حتى بدأ «جاليليو» في قياس الزمن الذي تستغرقه الكرات لتقطع المسافات المختلفة على سطح مستو مائل. ولا شك أنها واحدة من المهام العظمى للعلم أن يعلم ما هو الحدث وما هي القاعدة، والتي لا نعلم مسبقًا كيف نميز بينهما.

ها أنا قد قمت بتفكيك وتحليل الكلمات: «أساسي أو أصولي» و «يستنتج» و«قاعدة أو مبدأ»، فهل تركت أو أهملت شيئًا فيما اقترحته حول ما نعنيه بكلمة «تفسير» في الفيزياء، وهي استنتاج قاعدة أو مبدأ ما من قاعدة أو مبدأ أكثر أصولية؟ نعم، لقد تركت شيئًا، لكنه في إطار تاريخي فقط، إنه النظرة المستقبلية للعلم. فنحن نتحرك دائمًا في اتجاه صورة مقنعة للعلم. ونتعشم أن نصل في المستقبل إلى فهم لكل الأمور المنتظمة التي نراها في الطبيعة، على أساس من بضع قواعد (أو مبادئ) بسيطة وقوانين للطبيعة يمكن استنتاج كل الأمور المنتظمة الأخرى منها. وستصبح هذه القوانين هي التفسير لأية قاعدة أو مبدأ مهما كان (مثل النموذج القياسي والنسبية العامة) بحيث يمكن استنتاجها مباشرة من هذه القوانين، وستصبح هذه القواعد التي استنتجناها مباشرة التفسير لأية قاعدة أو مبدأ يستنتج منها، وهكذا. وعندما نحصل في النهاية على هذه النظرية الختامية سنعرف بالتأكيد ما هو المبدأ أو القاعدة وما هو الحدث، وأي حقائق الطبيعة مقصور على أية قاعدة أو مبدأ، وأي المبادئ أساسي وأيها أقل أساسية ويمكن تفسيرها بواسطة المبادئ الأساسية.

والآن وبعد أن بذلت قصارى جهدي في الحديث عما إذا كان العلم يستطيع أن يفسر أي شيء، فإنني سأعيد صياغة السؤال ليصبح: هل يستطيع العلم أن يفسر كل شيء؟ الإجابة واضحة : لا. فستكون هناك دائما حوادث لن يستطيع أحد تفسيرها، ليس لأنها غير قابلة للتفسير إذا عُرِفت كل الظروف التي أدت إلى حدوثها بدقة، ولكن لأننا لن نتمكن أبدا من معرفة كل هذه الظروف. فهناك أسئلة من قبيل: لماذا أصبحت الشفرة الجينية (الوراثية) على ما هي عليه بالضبط؟ أو لماذا ضرب مذنب كوكب الأرض منذ ٦٥ مليون سنة في مكان محدد بالضبط وليس في مكان آخر؟ وستظل هذه الأسئلة إلى الأبد خارج قبضتنا. ولن نتمكن من تفسير: كيف قتلت رصاصة أطلقها «جون ويلكنر» الرئيس لنكولن بينما طاشت الرصاصة التي أطلقها البورتوريكي المتعصب ولم تصب الرئيس ترومان. وقد نستطيع تفسير ذلك جزئيًا فقط إذا كان هناك دليل على أن ذراع الرامي قد اصطدمت بشيء ما لحظة الضغط على الزناد، لكن هل حدث ذلك بالفعل؟ إننا لا نعلم. فكل المعلومات من هذا النوع تُفْقَد في ضباب الزمن. وتعتمد الأحداث على مصادفات لا نملك أن نسترجعها أبدًا. وقد نحاول تفسيرها إحصائيًا: فمثلا قد نقول بنظرية مفادها أن الممثلين في منتصف القرن التاسع عشر كانوا في الأغلب رماة جيدين (أصابت رصاصة أحدهم الرئيس لنكولن)، بينما كان المتعصبون البورتوريكيون في منتصف القرن العشرين رماة سيئين على الأرجح. لكن إذا لم تكن تملك إلا عددًا محدودًا من الأحداث والمعلومات فسيكون إجراء التحليل الإحصائي صعبًا. ويحاول الفيزيائيون تفسير الأشياء التي لا تعتمد على المصادفة، لكن في العالم الحقيقي يعتمد معظم ما نحاول فهمه على المصادفات.

وفيما عدا ذلك، فإن العلم لن يتمكن أبدًا من تفسير مبادئ الأخلاق. ويبدو كأن هناك هوةً سحيقة لا يمكن إقامة جسر فوقها تفصل بين التساؤلات من النوع «يكون» والتساؤلات من النوع «يجب». وقد نتمكن من تفسير: لماذا يعتقد الناس أنه يجب عليهم القيام ببعض الأشياء؟ أو لماذا تطور الجنس البشري ليشعر أن هناك أمورًا يجب القيام بها وأمورًا أخرى لا يجب إجراؤها، لكن ما زال الباب مفتوحًا لنتجاوز هذه القواعد الأخلاقية التي قامت على أساس بيولوجي. فقد يكون نوعنا قد تطور بطريقة تجعل الرجال يلعبون أدوارًا مختلفة عن النساء ـ فالرجال تصطاد وتحارب بينما النساء تلد وترعى الصغار ـ لكننا نستطيع محاولة جعل كل أنواع العمل متاحة للنساء كما هي للرجال. ولا يمكن استنتاج المبادئ الأخلاقية ـ التي تدلنا على ما يجب أن نفعله وما لا يجب أن نفعله ـ من معرفتنا العلمية.

كما أن هناك حدودًا لليقين في تفسيراتنا، وأعتقد أننا لن نتيقن أبدا من أي منها. فكما أن هناك نظريات رياضية عميقة تبين استحالة إثبات صحة علم الحساب، كذلك لن نتمكن من إثبات صحة أكثر قوانين الطبيعة أصولية بواسطة الرياضيات. ولا يزعجني ذلك، لأننا حتى لو كنا قد عرفنا أن قوانين الطبيعة سليمة رياضيًا، فإننا سنظل غير متيقنين من أنها قوانين صحيحة. وعندما اخترت في لحظة من حياتك أن تكون فيزيائيًا وليس متخصصًا في الرياضيات فإنك قد تخلصت من قلقك حول موضوع التيقن.



وأخيرًا يبدو واضحًا أننا لن نتمكن أبدًا من تفسير أكثر القواعد العلمية أصولية. (ربما يكون ذلك هو السبب في أن بعض الناس يقولون أن العلم لا يقدم التفسيرات، لكن وبهذا المنطق فإنه لا يوجد أي شيء آخر يقدم التفسيرات). وأعتقد أننا سنصل في النهاية إلى منظومة من القوانين الطبيعية البسيطة والعالمية، وهي قوانين لا يمكن تفسيرها. وإني أتخيل أن النوع الوحيد من التفسيرات (إذا لم يكن مقدرًا لنا أن نجد منظومة أكثر عمقًا من القوانين، والتي ستزيح السؤال إلى الخلف لا أكثر) هو الذي سيبين أن الصحة الرياضية تتطلب هذه القوانين. لكن من الواضح أن ذلك مستحيل، لأننا نستطيع أن نتخيل منظومات من قوانين الطبيعة تامة الصحة ـ على حد علمنا ـ من الناحية الرياضية، لكنها لا تقدم وصفًا للطبيعة كما نشاهدها.

فمثلا إذا أخذت النموذج القياسي للجسيمات الأولية ونحيت جانبًا كل شيء ما عدا القوى النووية القوية والجسيمات التي تؤثر فيها، وهي الكواركات (Quark) والجليونات (Gluons) فإن ما سيتبقى هو النظرية المعروفة باسم «الكروموديناميكا الكمية». ويبدو أن «الكروموديناميكا الكمية» سليمة رياضيًا بذاتها، إلا أنها تصف كونًا مسلوبًا منه كل شيء ولا يوجد به سوى الجسيمات النووية فقط ـ وليس هناك ذرات أو أناس. أما إذا نحيت جانبًا ميكانيكا الكم والنسبية فإنك تستطيع أن تضع تنوعا هائلا من قوانين الطبيعة السليمة منطقيًا. مثل قوانين نيوتن التي تصف عددًا قليلاً من الأجسام التي تدور حول بعضها بشكل لانهائي (تبعا لهذه القوانين) مع عدم وجود أي شيء آخر في الكون، وعدم إمكانية حدوث أي شيء. وهذه النظريات سليمة منطقيًا، لكنها جميعًا مسلوبة القوة. وربما يكمن الأمل العظيم في تفسير نهائي في اكتشاف منظومة من القوانين النهائية للطبيعة وإثبات أن هذه هي النظرية الوحيدة السليمة منطقيًا، والغنية بما يكفي مثلا لتسمح بوجودنا. وقد يحدث ذلك في قرن أو اثنين، وساعتها أعتقد أن الفيزياء ستكون قد وصلت إلى منتهى حدود مقدرتها على التفسير. ■

من الطبيعي أن نقول بأن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر. غير أن قوانين الجاذبية لنيوتن - تاريخيًا - قد تم استنتاجها من قوانين كبلر عن حركة الكواكب

هوامش

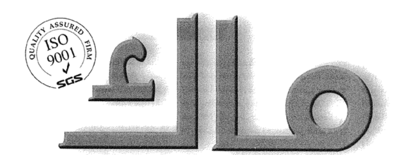
(١) هذه المقالة في الأصل محاضرة ألقيت في ملتقى حول «العلم وحدود التفسير» في أمهرست في الخريف الماضي.

(٢) يورد الفلاسفة مثالاً حول صعوبة تفسير الأحداث بواسطة الأسباب. لنفترض أننا اكتشفنا إصابة عمدة المدينة بشلل نصفي، فهل يمكن تفسير ذلك بكونه كان مريضًا بمرض الزهري منذ بضع سنوات ولم يعالج منه في حينه؟ والصعوبة التي تواجه هذا التفسير هي أن معظم الذين لم يعالجوا من الزهري لا يصابون بالشلل النصفي. ولو قمت بمتابعة تسلسل الأحداث منذ إصابة العمدة بالزهري وحتى إصابته بالشلل النصفي فستكتشف الكثير من الأمور التي لعبت دورًا رئيسًا: فقد يكون أحد الميكروبات المسببة للزهري قد تطور بشكل أو بآخر، وقد يكون العمدة قد عاني من نقص في الفيتامينات. من يعلم؟ ومع ذلك فلدينا شعور بديهي أن الزهري الذي أصاب العمدة هو التفسير لإصابته بالشلل النصفي، وهو بالقطع الأمر المناسب سياسيًا.

(٣) لفت الأستاذ «هانكينسون .R.J» من جامعة تكساس انتباهي إلى مثال قديم من هذه التفسيرات يعود إلى «جالينوس». ولما كان «جالينوس» قد تناول الموضوع قبل «كوبيرنيكوس» ب ١٤٠٠ سنة، فقد كان معنيًا بتفسير موضع الشمس وليس الأرض (كانت الأرض هي مركز الكون في نظرهم). يقارن جالينوس في أحد أعماله «حول فائدة أجزاء الجسم» بين موضع الشمس وموضع قدم الإنسان في طرف الساق. فكل من الشمس والقدم قد وضعها الخالق في المكان الذي يجعل لها أعظم فائدة. ومع أن هذه التفسيرات اللاهوتية ليست من صميم العلم الحديث، إلا أن تشبيه «جالينوس» كان أعظم مما يتصور. فكما أن الأرض واحد من عدد مهول من الكواكب، تتحدد مسافاتها من نجومها بمحض الصدفة، فهكذا وضع القدم الذي جاء نتيجة عدد مهول من مصادفات الطفرات أثناء تطور أسلافنا من الفقاريات. فلو كان كائن ما قد وُضعت قدمه في فمه، إذن لما نجا ليمرر جيناته لذريته، تمامًا مثل الكوكب الذي تكثف بالمصادفة قريبًا جداً أو بعيدًا جداً من نجمه فإنه لن يصبح بيتًا للفلاسفة.

عن مجلة:
The New York Review, May 31, 2001, pp 47-50

ترجمة : فتح الله الشيخ



سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال

شرقى

مطبوع

سجاد أطفال

مشايات

قطع موكيت

دواسات حمام

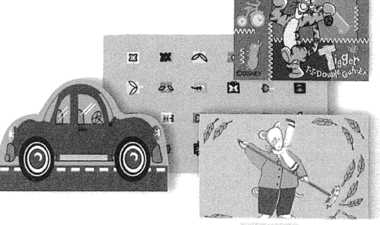


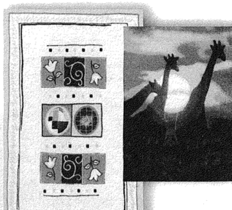
مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com





عرائس جزائرية

زينب الميلى

تختلف الثقافات وتختلف الأزمنة.. وتبقى الدمية «العروسة» لعبة الأطفال الأولى فى الشرق والغرب وفى الماضى والحاضر وربما المستقبل. وهذه صفحات من كتاب يصدر قريبًا، وقد جاء الكتاب نتاج جهد كبير لصاحبته «زينب الميلى» امتد لسنوات عديدة جابت فيها بلدها الجزائر لتوثق بالقلم والصورة تراثًا فريدًا فى طريقه للاندثار.

المحرر

خيرة

مناطق كثيرة من الجزائر تسمى بناتها بهذا الاسم، وقد تسمى «أم الخير» أو أخويرة للتدليل.

يطلقون هذا الاسم تبركًا وتفاؤلا بأن تكون خيرة أو أم الخير مصدر خير للعائلة عسى أن يولد بعدها «على رأسها» ولد أو عدد من الذكور.

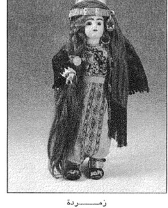
كما يتفاءلون بوفرة المحصول الزراعى عند إطلاق هذا الاسم: أو اسم «الخير» على الذكر.

هى عروسة قد تكون من الحضنة أو من الصحراء.

عادة تزيِّن أم الولد المختتن منتشرة هناك: ترتدى أم هذا المطهَّر كامل زينتها التى لبستها يوم عرسها، ما عدا «الذراية» أو «التغميزة»، كما يلبس الولد الذى سيختتن كامل لباس يوم الختان.

يعد مكان خاص فى الغرفة، تبسط فيه الزرابى والمرقوم.

تجلس أم «المختتن» ابنها فى حجرها، ولا تنهض أو تترك هذا الولد ينهض إلا حينما تسمع الزغرودة التى تطلقها الجدة إيذانا باقتراب مجىء «الطهار» والرجال.



زمـــــردة

يؤتى بقصعة من الخشب أو جفنة من الفخار وبها ماء بارد توضع فيه الرجل اليمنى لأم «المختتن» بعد أن ينزع منها فردة الخلخال. يقال إن ذلك يخفف عنها شدة الخوف على ولدها، ويبعد عنه شبح النزيف.

فخطر النزيف قائم، نظرًا للأساليب البدائية التى تستعمل فى الختان. لم يكونوا يعرفون تعقيم السكين، ومنهم من يستعمل الصوفة المحروقة والتى بها زبل وروث البقر، لوقف النزيف.

بمجرد وصول «الختان» تنزع رجل الأم من الماء، وتلبس لها فردة خلخالها، وتترك الغرفة ويسلم ابنها للطهَّار بحضور رجال الأسرة، وما أن ينتهى من عمله وتطلق زغرودة انتهاء «العملية» حتى تولم الوليمة ويأتى المدعوون ويتبرعون بالنقود للولد.

زمردة

اسم يطلق على البنت فى المناطق التى عرفت نزوحًا من الأندلس، خاصة بعد سقوط غرناطة.

تضع على رأسها منديلا، يسمونه محرمة، من الحرير التركوازى اللون. وتضع «تاجًا»، وهو نوع من الجبين عليه بصمات الأتراك. وهو يرمى على الجزء الخلفى من الرأس بطريقة تجعله يسترسل على الظهر مثل البخنوق. ويسمونه «عبروق» فى الشرق الجزائرى أو الترصيع، كما يسمى فى العاصمة وفى مليانة، أو الطرق حسب تسمية أهل الشام.

ترتدى بدعية، وهى جاكيت من القطيفة المطرَّزة، ولها أكمام تختلف عن أكمام المناطق الأخرى، فهى مطرزة بنوع من الخرز يسمى السمسم تعود النازحون على استعماله مع اللون الأسود الذى يفضلونه غالبا على غيره من الألوان.

سروالها يشبه لحد بعيد السروال التركى، ومطرز بخيوط من الحرير على الساتان أو القطيفة. تنتعل حذاء يغلف بقماش القطيفة الأحمر غالبا، وهو نوع من الربحية يلبس يوم الزفاف.

شعر العروسة: لا يضفر غالبا، بل يترك منسابا، وغالبا يكون طويلا لأنه لم يعرف المقص. ولعل سبب ذلك ما يروى عن عائشة - رضى الله عنها - التى أوصت النساء بشعرهن خيرًا. وتطويل الشعر والحرص على جماله موجود فى كل المناطق الجزائرية.

عبروقها صنعته من معدن الفضة، وطرزته على قماش التيلو القديم الذى كان موجودا قبل هجمة «النايلون والبليستار».

رسومه: استوحيتُها من رسوم قطع العبروق الذى كانت النسوة يصنعنه لبناتهن كما يتبرعن به للولى الصالح تنفيذا لنذر.

أغلب رسوم العبروق يتوسطها محراب، وبعض الرسوم الأخرى ما زالت موجودة عند النمامشه وميزاب، وجبال أعمور.. ويسمونها «كب وقعد».

مصوغها: يتكون، بالإضافة للجبين، من صيغة تلبسها العاصمية فى رقبتها، هى عبارة عن عقد يسمى «خيط الروح» لالتصاقه بالرقبة والعنق، فهو لا يلبس واسعًا، بل يكون على مقاس الرقبة بالضبط؛ ومن الناس عندنا من يطلق اسم الروح على العنق والرقبة.

لكن التقليد هنا أن خيط الروح هذا يلبس يوم الزفاف على الرأس، لذا نراه موضوعًا مع التاج.

فى أذنيها ترتدى نوعًا من الأقراط يسمونه بـ «لفلايك»، والفلوكة هى الزورق الصغير، ولعل هذه التسمية مأخوذة من شكلها المستطيل. صدرها تملؤه عقود مختلفة الأشكال والطول، علما بأن كل صيغتها مصنوعة من الذهب الخالص.

أعراس من الجزائر
زينب الميلى
القاهرة ـ دار الشروق (يصدر قريبا)

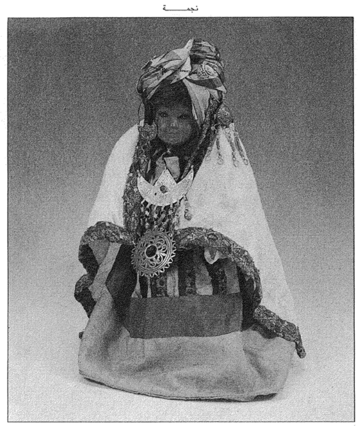


خيـــرة



العــارفــة

نجمة



غوثية



العارفة

اسم يطلق على البنات في أولاد نايل، ويقصدون به أن حاملته عارفة بشئون النساء والرجال.

المرأة في هذه المنطقة من الجزائر متحررة نسبيًا، كما هو الشأن في أولاد عبدي بالأوراس.

مشطة شعرها تكاد تكون متميزة. تلوى شعرها وتجعله على شكل عش العصافير خاصة يوم الزفاف، ثم تضع عليه غطاء يسمح للشعر من الأمام بأن يكون بدون غطاء. ثم يزين بصيغة جميلة، ويكون لحبات من الزجاج الأخضر والأحمر والأزرق حضور كبير.

توضع فوق رأسها قطعة من قطن التيلو، وتدار تلك القطعة على رقبتها. عقدها يتكون من الفضة المختلفة الأشكال والأحجام. وبها أخرى على شكل حجاب، وأخرى لوضع التمائم، وأخرى من خرز أصفر خاص يشبه حبات العمبر الأصفر، إلا أنه خال من الرائحة يسمونه اللوبان الذكر. ويقال عن هذا اللوبان إن به مغناطيسًا خاصا يجذب الشعر ولا يتركه يتساقط على الملابس.

ملحفتها حسب الإمكانات المادية للعائلة، أحيانا من الحرير، وأخرى من الكتان، وفي الشتاء من الصوف. تمسكها كغيرها من الملاحف ذات التأثير الروماني، تمسكها على الأكتاف بخلالات ومدور. ومن الأسفل بها زينة.

تتصرف البنت هنا قبل الزواج كما يحلو لها، لكن بعد الزواج لا يكلمونها ولو بكلمة بريئة مثل تحية الصباح، لأنها صارت «في رقبة راجل»، اللهم إلا إذا كانوا من أعز وأصدق أصدقاء الزوج.

غوثية

عروسة من وهران، اسمها لا أدري أهو مأخوذ من كلمة الغوث والاستغاثة أم الغيث والمطر.

غطاء رأسها يختلف بعض الشيء عن غطاء المناطق الأخرى. «تعصب» رأسها بمناديل كغيرها من النساء، وبعد ذلك أي في الأخير تأخذ محرمة ناعمة ومن لون مغاير للون المحارم الأخرى، تثنيها وتطبقها بحيث تكون أعرض بعض الشيء من عرض الشريط العريض، وتضعها كـ«تقريطة» فوق المحارم الأخرى، وتجعل عقدتها من الخلف، وتتركها مسترسلة من الخلف والظهر أيضا.

ترتدي في أذنيها أقراطا يسمونها بـ «لونايس»، وهو اسم مأخوذ من أيام الشدة، أي حينما تباع للضرورة تؤنس وحدة صاحبتها ولا تهرب عنها الصواحب. ثم إن الأقراط تؤنس الخد. هاته العروسة هي الوحيدة التي تكون ملابسها من القماش «الدانتيل»، ربما لقربها من إسبانيا المشهورة بصنعه. تلبس يوم عرسها اللون الوردي؛ وترتدي تحت هذا الفستان كغيرها من نساء المدن قميصًا داخليًا أبيض اللون هو قميص ليلة الدخلة؛ بياضه يبين حمرة دم البكارة. في جيدها سلسال خاص وعريض تتدلى منه قطعتان من الذهب تشبه بعض الشيء «قالونات العساكر»، يسمونه في وهران صيغة «كرفاش بولحية».

في يديها ترتدي أساور من ذهب، فالفضة عندها غير محببة.

نجمة

اسم نجمة كثير الاستعمال في الجزائر، وعند أهل الصحراء خاصة.

معروف عن البدوي أنه يتقن الاهتداء بالنجوم دون دراسة لها. أي يتعلم ذلك من المشاهدة وما يسمعه من تجارب الأولين.

يهتدي في سيره بها. وإذا طرق بابه ليلا ضيف ينادي طالبا للاستضافة: «ضيف النبي»، لا يجيبه صاحب البيت بشيء قبل أن يرفع رأسه للسماء، فإن ظهرت به نجمة (أظن أنها نجمة الصبح) يسمونها هم «نجمة أيس أي إياس» يرد على طالب الضيافة، لقد طلعت عليك نجمة أيس. آنذاك يواصل الضيف سيره.

يستمد الجزائري بعض أسماء البنات من السماء: نجمة، ثريا، شقت، ضوت، الضاوية، ضياء، شمسة، قمرة إلخ..

نجمتنا عروسة من ورقلة يحمل رأسها عدة محارم من الحرير الزاهي اللون، فيقال «عروسة معكسة ومشلوشة» بالمحارم، تتدلى من أذنيها أقراط من فضة مزركشة تزينها حبيبات أسفل القرط. كما تزين رأسها بنواش من الفضة به مرجان.

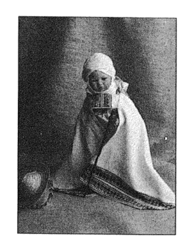
تحلي جيدها بعدة عقود يتوسطها هلال به حجرة حمراء، وأخرى بها حرز، ملحفتها من كتان برتقالي اللون وبه تقاليم زرقاء من الحرير تحتوي على حميلة، مما يدل على أن عائلتها ميسورة الحال.

بخنوقها مصنوع من الصوف الأبيض الناعم وبه تطريز وزركشة من خيطان الحرير والصوف.

بوقرة

اسم يطلق على الوليد الذي يولد أيام القر الشديد، والبرد القارس المصحوب برياح باردة مع تساقط الثلوج بكثرة.

في الشرق الجزائري عامة وفي الأوراس والنمامشة خاصة، الولد الذي يولد في أيام البرد الشديد هذه يسمونه بوقرة. أما إن كان المولود بنتا فلا تحمل هذا الاسم، بل يسمونها باسم ثلجة. وإن كان الموسم موسم مطر يسمونها نوة، تبركًا بأن تكون السنة خصبة.



بوقـــرة

قميـــــر

بوقــرة هذا يرتدى برنوســا أبيض، وبه زيقـات «تقليمـات» من تحت، أى على جناحى البرنوس، وكذلك على «التصديرة».

البربر بصفة عامة لا يسمون البرنوس برنوسًا إذا لم تكن به ممطرة لتحمى الرأس من رذاذ المطر على رأسه، ويسمونها: طربوشة، وفى مناطق أخرى يسمونها «قلمونة».

وجود المظلة معه وكذلك عصاته يدل على أنه ابن عائلة تحترف رعى الغنم والماعز.

«فالسارح» ـ كما يسمونه فى هذه المنطقة ـ مضطر إلى الاحتماء بالمظلة التى يضعها فوق رأسه، وهم يصنعونها من الحلفاء أو الخزف لترد عنهم ضربات الشمس القاسية. يضعون لها «مشدا» يسمونه «العلاج» ليثبت المظلة على الرأس حتى لا تاخذها الرياح بعيدًا عن رأسه.

قـــمـــيـــر

عروسة من عين البيضاء، وهذا الاسم ماخوذ من اسم قمرة، وللتدليل والتصغير يسمونها قمير.

فوق رأسها تضع تعصيبة تكون من الحرير الناعم، ويسمونها محرمة شامية، ربما نسبة للمناديل التى تصنع فى الشام.

تضع خرصا يسمى المشرف. وهم فى هذه المنطقة يلبسون الذهب والفضة؛ فهو حسب إمكانات العائلة: إما يكون من الفضة المغطوسة فى الذهب، وإما يكون من الذهب أو من الفضة.

عقدها يحتوى على حبات من المرجان، وخامسات من الذهب أو الفضة. وهو طويل، يصل أحيانا طوله إلى السرة.

ترتدى القندورة من قماش يسمونه حرير التيرى تيرى، ومطرز بخيوط من الفضة، وله ثقوب آخذة أشكالا متناسقة. دون شك هاته التسمية آتية من الكلمة الفرنسية تيرى تيرى، أى اقتل اقتل، يعنى جمالها يقتلنى.

أكمامها من حرير ناعم، يسمونه حرير الماء لشدة شفافيته.

أساورها يسمونها النبيلة أو المقياس.

قدماها وكذلك يداها مخضبة بحنة العرس، وفى رجليها ترتدى خلخالا يسمونه الرديف.

راسها وظهرها مغطى بعبروق مطرز بالفضة، وبعض رسومه أخذت من رسوم السجاد، وأخرى من عبروق مناطق أخرى. ■

لمـــــاذا اغـــتـنـت أمـــم

صنـــــع الله إبراهيـــــم

في منتصف الستينيات ترجم «عبد العظيم أنيس» كتاب «بنوك وباشوات» Bankers and Pashas لأستاذ التاريخ والاقتصاد الأمريكي «دافيد لاندز» (نشرته دار المعارف سنة ١٩٦٦)، عندما لاحظ تفرده بين الكتب الغربية التي تناولت تاريخ مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فهذه الكتب، باستثناء كتاب (تيودور روزشتاين) «خراب مصر»، حفلت أساسًا بالجانب السياسي وبالدور الشخصي للحكام، دون الجانب الاقتصادي. أما «لاندز»، فقد استخدم الأرشيف السري لمراسلات اثنين من كبار الممولين الفرنسيين قاعدة لرسالته من أجل نيل الدكتوراه، التي نشرها بعد تأميم قناة السويس ١٩٥٦ بسنتين، وفضح فيها أعمال النهب التي قامت بها شركة قناة السويس والممولون الإنجليز والفرنسيون والألمان والنمساويون واليونانيون لخزانة مصر وفلاحيها، والأساليب الماكرة التي التجأوا إليها لدفع البلاد إلى هاوية الإفلاس ثم الرقابة الثنائية حتى مؤامرة الاحتلال البريطاني.

لكن «لاندز» لم يكن ذلك المؤرخ الموضوعي الذي ينحاز إلى جانب الحقيقة انحيازًا مطلقًا. فهو يقول في نهاية الكتاب: «كان معظم الأوروبيين في مصر يعيشون وفقًا للمبادئ.. غير أن الجميع كانوا متفقين على أن المجتمع المصري متخلف.. وأن مقاييس السلوك المقبولة في أوروبا - قيم الأمانة والتعامل العادل والتعقل، إلخ. التي تشكل على الأقل المبدأ في العلاقات الاجتماعية والمالية في الغرب - ينبغي أن تعدل حتى تناسب ظروف هذه البيئة الغريبة».

وقد لاحظ «عبد العظيم أنيس» بحق في تقديمه لترجمة الكتاب «أن المؤلف، رغم كل منهجه العلمي وعرضه الصريح وأمانته التاريخية، لم يبرأ من تأثير الدعاية الاستعمارية». ولعل هذا التعليق هو أخف ما يمكن قوله اليوم بشأن كتابه الأخير، الذي نعرضه هنا.



ينتمي كتاب «ثروة الأمم وفقرها» الذي جاء في ٦٥٠ صفحة مستندًا إلى أكثر من ١٥٠٠ مرجع، إلى تلك المحاولات الموسوعية التي ميزت كتابة التاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين. فبعد انحسار التيار الوصفي، الذي قام على سرد الأحداث، بدأ البحث عن تفسير لها لا يقتصر على دور الشخصيات وإنما يتعداه إلى رؤية شاملة للتطور. وقاد هذا المسعى إلى الانفتاح على العلوم الأخرى وفي مقدمتها الاقتصاد وعلم النفس والتكنولوجيا بل والبيولوجيا. وتجلى هذا الاتجاه في أعمال رائدة «لأرنولد توينبي» و«هاوبسباوم» الإنجليزيين و«برودويل» الفرنسي. والواقع أن كتاب لاندز الأخير يتقاطع في أكثر من موضع مع مجلد برودويل الضخم عن الحضارة المادية. وهو يحاول أن يجيب عن سؤال رئيسي: لماذا اغتنت بعض الأمم وافتقرت غيرها؟

ومنذ البداية يحاول المؤلف التقليل من أثر النهب الاستعماري في هذا التباين بين مصائر الأمم. بل ويقطع بأن الاقتصاديات الأوروبية لم تكسب على الإطلاق من المستعمرات. ولا يمل من اتهام المعادين للإمبريالية والرأسمالية والعنصرية والرق (ويسمي على رأسهم إدوارد سعيد وسمير أمين ونعوم شومسكي وحليم بركات) بأنهم «اعتذاريون». وإذا كان يعترف أحيانًا كثيرة بآثام النظام الغربي في حق بقية الشعوب، فإنه لا يلبث أن يتملص من نتائج هذا الاعتراف. فمستوطنو الجزائر الفرنسيون كانوا أبرياء لأنهم أحبوا شعبها وطبيعتها وصدموا عندما ووجهوا بالكراهية من جانب الوطنيين! والهولنديون والإنجليز كانوا يسعون إلى التبادل لا الاحتلال لكنهم رفضوا أن يتعرضوا للسرقة والاستغلال بواسطة التجار والرسميين المحليين، وعندما واجهوا المتاعب طلبوا العون من حكوماتهم ونماذج التنمية المستقلة «دون كيخوتية».

ورغم أنه زار مصر عدة مرات أثناء إعداد كتابه الأول وبعد ذلك، ويعرف الكثير عن تاريخها وحاضرها، فإنه يتجنب بالمرة الإشارة إلى المشروع الناصري والعدوان الإسرائيلي الذي أجهضه. ولا تجد على طول مئات الصفحات، التي تعرضت بالتفصيل للإمبرياليات الأوروبية، أية إشارة ولو عابرة للإمبريالية الأمريكية، ربما لأنه يعتبر أن ظاهرة الإمبريالية تلاشت في النصف الثاني من القرن العشرين. ولن تجد كلمة واحدة عن فيتنام، التي استنزفها الفرنسيون ودمرها الأمريكيون. الأمر نفسه بالنسبة للاستيطان اليهودي ودوره في تعطيل تنمية الشرق الأوسط فهو لا يشير إلى إسرائيل إلا مرة واحدة عندما يقول عن العرب: «لو لم تكن إسرائيل موجودة لأمسكوا برقاب بعضهم البعض».

والحقيقة أن هناك خيطاً رفيعاً يمتد على طول الكتاب يثير الظنون. فهو يستهل سطره الأول بواقعة موت «ناتان روتشيلد»، أغنى رجل في العالم سنة ١٨٣٦ بسبب التهاب بسيط في قاعدة العمود الفقري، ثم يفيض في الحديث عن دور اليهود في تأسيس الحضارة الغربية، وكيف أن مفهوم الملكية الفردية يعود إلى العصور التوراتية وانتقل منها إلى التعاليم المسيحية، وأن عداء اليهود للأوتوقراطية تشكل في مصر والصحراء حيث دافع «موسى» عن نفسه قائلاً إنه لم يأخذ حماراً واحداً من أحد ولم يؤذ أحداً. وأن هذا التقليد هو الذي ميَّز الإسرائيليين عن بقية الممالك المحيطة بهم وبالتأكيد أكسبهم عداء حكامها!! وأن اضطهادهم على يد الأسبان هو أحد عوامل انهيار إمبراطوريته الأخيرتين. وعندما يذكر عرضًا ضحايا الحرب العالمية الثانية لا يلبث أن ينوه، دون ضرورة يفرضها السياق، بأن بينهم ستة ملايين يهودي، ذلك الرقم العتيد موضع الخلاف.



وربما يتصل بذلك عدم دقته في استخدام مصطلح «الإسلام». يقول مثلاً: «إن خطأ الإسلام الأكبر كان في رفض المطبعة التي رأى فيها أداة محتملة للكفر والإلحاد». ولو صح هذا لكان خطأ. لكن الإسلام في الحقيقة لا شأن له بذلك. فهو الدين الذي كان أمر القراءة أول التعاليم التي جاء بها. العثمانيون هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة في زمان ومكان معينين.

كل ذلك لا يقلل من أهمية الكتاب لمن يحاول تكوين نظرة شاملة للتاريخ وتحليل اللحظة الراهنة في مسيرة البشرية. فهو حافل



لا تجد على طول مئات الصفحات، التي تعرضت بالتفصيل للإمبرياليات الأوروبية، أية إشارة ولو عابرة للإمبريالية الأمريكية، ربما لأنه يعتبر أن ظاهرة الإمبريالية تلاشت في النصف الثاني من القرن العشرين. ولن تجد كلمة واحدة عن فيتنام، مثلا، التي شكل كفاحها ضد الفرنسيين ثم الأمريكيين أحد أهم تطورات نصف القرن الماضي. الأمر نفسه بالنسبة للاستيطان اليهودي ودوره في تعطيل تنمية الشرق الأوسط

نحن نعيش في عالم من عدم المساواة مقسم إلى ثلاثة أنواع من الأمم: الذين ينفقون كثيرا على محاولة تخفيض أوزانهم، ومن يأكلون ليعيشوا، ومن لا يعرفون مصدر الوجبة التالية

The Wealth and Poverty Of Nations
(ثروة الأمم وفقرها)
by David Landes,
w.w.Norton.1998.

بكثير من المقارنات واللمحات المهمة والذكية بخصوص محركات التقدم، والعوامل الذاتية في دوام التخلف. وفي هذا الجانب الأخير تكمن أجل فائدة له.

الفجوة الهائلة:

كان «ناتان روتشيلد» عند وفاته في التاسعة والخمسين من عمره. ولأن المضادات الحيوية لم تكن قد توفرت بعد ولا حتى مضادات الجراثيم والبكتريا مات الرجل، الذي يستطيع شراء أي شيء، من جراء إصابة عادية يمكن اليوم شفاؤها بزيارة بسيطة إلى أي صيدلية. الحكمة أن الطب حقق تقدما هائلا منذ عصر «ناتان» لكن الأهم هو ما تحقق من تقدم على صعيد الوقاية وخاصة الحياة النظيفة. وكان للصناعة الفضل في ذلك باختراعها للقماش القطني الرخيص القابل للغسل الذي حل محل صوف نادرا ما كان لابسوه يغسلونه فضلا عن أن تنظيفه جيداً أمر صعب. ومع القماش القطني الإنتاج الواسع للصابون المصنوع من الزيوت النباتية. ولأول مرة تمكن الرجل العادي من لبس الملابس الداخلية التي كانت حكرا على الأغنياء إذ صار باستطاعته أو استطاعتها أن تغسلها بالصابون بل وتستحم أيضا رغم أن كثرة الاستحمام كانت تعتبر في أوروبا علامة على القذارة.

العامل الثالث في انخفاض المرض والوفيات هو التغذية الأفضل. وكل هذا التقدم نبع من مكاسب تطبيق العلم والمعرفة على التكنولوجيا الأمر الذي يعطي الأمل في المستقبل لولا أن ثمار المعرفة لم توزع بشكل عادل، حتى بين الأمم الغنية. فنحن نعيش في عالم من عدم المساواة مقسم إلى ثلاثة أنواع من الأمم : الذين ينفقون كثيرا على محاولة تخفيض أوزانهم، ومن يأكلون ليعيشوا ، ومن لا يعرفون مصدر الوجبة التالية.

إن الفارق في الدخل اليوم بالنسبة للفرد بينه في أغنى أمة صناعية مثل سويسرا وبينه في أفقر أمة غير صناعية مثل موزمبيق هو ٤٠٠ :١. ومنذ قرنين ونصف قرن كانت الفجوة بين أغنى البلاد وأفقرها ٥:١ وبين أوروبا وشرق آسيا أو جنوبها حوالي ٢:١.

كيف يمكن تقصير هذه الفجوة ؟ فكر آخرون في هذه الأمور وقدموا إجابات متنوعة ، وانقسم أغلبهم إلى مدرستين ، فيقول الأوروبيون: نحن أشطر وأفضل تنظيماً وأكثر إقبالاً على العمل، أما الآخرون فهم جهلة متعالون، كسولون ومتخلفون يؤمنون بالخرافات. المدرسة الثانية تقلب الأمر: الأوروبيون عدوانيون، لا يرحمون، شرهون، طماعون، معدومو الضمير، منافقون. وسنرى كيف أن هناك نصيباً من الصحة في كل من النظرتين.

ولطالما ربط الفلاسفة بسهولة بين البيئة والمزاج الشخصي (البارد والساخن ، التدبر الرصين والفوران الباحث عن المتعة) ووزعوا الفضائل طبقا لذلك، إلى أن انقلبت الآية وأصبح أنصار الأفروأمريكية السود يفرقون بين شعوب الشمس الخلاّقين السعداء وشعوب الثلج الباردين غير الإنسانيين. هكذا تلوثت الجغرافيا البشرية بالعنصرية مما أدى إلى هزيمتها واختفائها من أقسام الجامعات الأمريكية.

لكن حقائق الجغرافيا لا يمكن إنكارها.

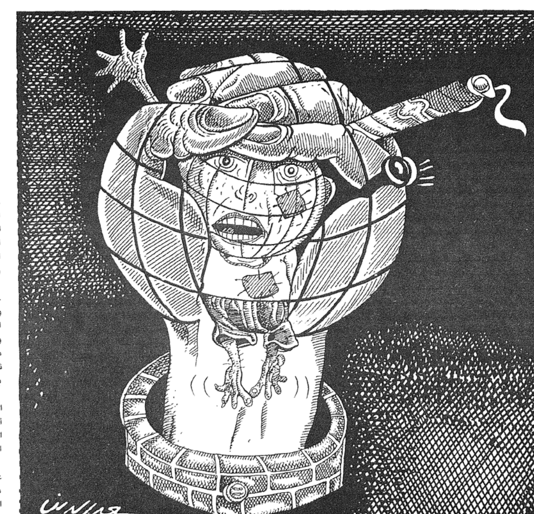
فعلى خريطة للعالم عن الإنتاج أو الدخل بالنسبة للفرد سنجد البلاد الغنية واقعة في مناطق معتدلة وخاصة في النصف الشمالي والبلاد الفقيرة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. ولا يمكن إنكار التأثيرات المباشرة للبيئة مثل المناخ والمياه إلى آخره على مصائر البلدان. لكن المؤكد أن هناك عوامل أخرى أدت إلى هذا الوضع.

فقد أعطت الجغرافيا لأوروبا الغربية رياحا دافئة وأمطاراً خفيفة و مياها دائمة ومعدلات تبخر منخفضة أي مجموعة العوامل التي تؤدي إلى جودة المحاصيل وتربية الماشية ونمو غابات الخشب الثقيل. لماذا إذن تخلفت أوروبا عن النمو عدة آلاف من السنين بعد مصر وسومر؟ الإجابة مرة أخرى هي الجغرافيا.

مكنت الظروف الطبيعية المواتية الأوروبيين من تربية الماشية دون أن يضطروا إلى الانتقال بعيداً بحثاً عن المرعى. والنتيجة حيوانات أكبر حجماً وأقوى على عكس حيوانات الاستبس والصحراء. مما أعطى ميزة لفرسان «شارل مارتل» سنة ٧٣٢ على الفرسان العرب في فرنسا وأوقف التوسع الإسلامي نحو الغرب. وبعد أربعمائة سنة كانت هذه الميزة نفسها سبباً في نهاية مملكة الصليبيين في القدس على يد صلاح الدين، بجياده ضئيلة الحجم خفيفة الحركة.

لكن الأوروبيين ربحوا على المدى البعيد. فالحيوانات كبيرة الحجم تعني ميزة في العمل الشاق والنقل كما تعني مخصبات أكثر للأرض وزراعة أكثر كثافة وبالتالي طعاماً أوفر وأخيرا إنساناً أطول وأقوى لا يعاني من الأوبئة التي تفشت في الصين والهند.

... وافتقرت أخرى؟



وماذا عن الصين؟ لقد كانت أكثر رواد النمو نجاحاً. فمنذ عدة آلاف من السنين تبين رؤساؤهم العلاقة بين «العدد والغذاء والقوة». وتجلت حنكتهم السياسية من تعبئة الزراع المحتملين وزرعهم في الأراضي الصالحة للزراعة وتخزين الحبوب لإطعام جيوش المستقبل. ولهذا صار من الضروري حفر القنوات لتوفير مياه الري ووسيلة نقل الحبوب. وأدى ذلك إلى اكتشاف الأرز. وعندما حل القرن الخامس الميلادي كان الصينيون قد حققوا ثورة زراعية وحلت ثورة ثانية بين القرنين الثامن والثالث عشر إذ ضاعفوا إنتاج الارز عدة مرات اعتمادا على قوة العمل البشري لا على الأرض. وأصبحت الصين القوة الزراعية الأولى في العالم بمنافس وحيد محتمل هو الهند.

كان للاعتماد شبه الكامل على الأرز نتائج حسنة وسيئة على صعيد التغذية والأمراض. وعلى التاريخ الصيني كله . فلم يجد الصينيون حاجة لاستخدام العبيد الأجانب ومن ناحية أخرى تطلبت إدارة المياه سلطة مركزية وهو الأمر الذي لاحظه «مونتسكيو» ثم «هيجل» و«ماركس» وأسماه «فيتفوجل» بالاستبداد الشرقي.

من المؤكد أن أوروبا كانت محظوظة. لكن الحظ ليس إلا بداية. من يتأمل التاريخ منذ ألف سنة لن يتنبأ أبداً بمصير عظيم لهذه الرقعة من الطرف الغربي للبسيطة الأوراسية.

في القرن العاشر كانت أوروبا خارجة من عذاب طويل من الغزو والنهب على يد أعداء من كل جانب، من الفايكنج إلى المغاربة المسلمين. وبمرور الزمن استقرت القبائل الشمالية والمجرية وحلت

لماذا اغتنت أمم وافتقرت أخرى

الممالك محل مخيمات الرحل الحربية. وبدأت أوروبا طريق النمو والتطور الذى اتخذ طريقا مختلفا عن بقية الحضارات: حضارة الاستبداد الشرقى الفارسية مثلا وحضارة «الديموقراطية» اليونانية.

وظهرت فى أوروبا المدينة شبه المستقلة ذاتيًا التى لم يظهر مثلها خارج أوروبا الغربية بالرغم من انتشار المدن فى بقاع العالم. وتميزت بانها حكومات تجار وقادرة على فرض الوضع الاجتماعى والهوية السياسية لمواطنيها. وهى حقوق جوهرية لممارسة النشاط التجارى وللتحرر من أى تدخل خارجى. الأمر الذى جعلها بوابة للحرية وثقبًا فى نسيج القنانة السائد فى الريف.

وكان من حظ أوروبا أن سقطت روما وانفصل العلمانى عن الدينى. فأفلتت من السيطرة على الفكر التى كانت لعنة فى الإسلام. أما الصين فكانت مجتمعًا يتسم بالثبات، وجعلها إحساسها بالاكتمال والتفوق معادية لكل معرفة خارجية مهما كان نفعها.

تمتعت أوروبا بميزة أخرى هى لا مركزية السلطة مما جعلها آمنة من غزو الضربة الواحدة. وابتداء من القرن الحادى عشر عرفت فترة طويلة من الزيادة السكانية والنمو الاقتصادى حتى منتصف القرن الرابع عشر عندما اجتاحها الطاعون الذى التهم نصف السكان. لكن القرن ونصف القرن التاليين شهدا إعادة بناء وتقدمًا تكنولوجيًا ثم شعورًا بالقوة أدى إلى بدء الاستكشافات وغزوات ما وراء البحار. استند هذا التطور إلى ثورة اقتصادية لم يشهدها العالم منذ العصر النيوليثى بين ٨٠٠ و٣٠٠٠ قبل الميلاد الذى اخترعت فيه الزراعة واستئناس الماشية، أى مصادر الطاقة. بالمثل كانت ثورة العصور الوسطى الاقتصادية: التجديد فى تقنية الزراعة باستخدام محراث العجلة ذى الشفرة الحديدية العميقة. وسرعان ما انجرت السلسلة: طاحونة الهواء التى أوجدت هولندة، طوائف التجار والحرف التى منعت تنافس السوق ثم تقسيم العمل وأخيرا تدهور قيود نظام الطوائف.

تحقق التوسع الاقتصادى لأوروبا العصور الوسطى بفضل سلسلة من التجديدات والتنظيمات جاء أغلبها من أسفل. واخترعت جماعة التجار أشكالاً جديدة من الارتباط والتعاقد وتبادل الاستثمارات وضماناتها وتسهيلات الدفع. لقد ولد عالم «آدم سميث» قبل عصره بخمسة قرون.

الاختراع:

عندما كتب «آدم سميث» عن هذه الأمور فى القرن الثامن عشر أشار إلى أن تقسيم العمل وتوسيع السوق شجعا على الابتكار التكنولوجى. وهذا ما حدث فعلا فى عصور أوروبا الوسطى، أكثر العصور ابتداعًا فى التاريخ على عكس الفكرة السائدة عن هذه الفترة كفاصل مظلم بين عظمة روما وتألق عصر النهضة. ويمكن التدليل على ذلك بأمثلة قليلة: العجلة المائية، النظارة التى ضاعفت العمر الإنتاجى للحرفيين المهرة ومكنت من ابتكار الأدوات الدقيقة، الساعة الميكانيكية، الطباعة، البارود الذى حصل عليه الأوروبيون من الصين فى نهاية القرن الثالث عشر.



لقد استوعب الإسلام وطور منجزات الشعوب التى غزاها. وحتى ١١٠٠ م كان العلم والتكنولوجيا الإسلاميان متفوقين إلى أقصى مدى على أوروبا. كان الإسلام معلم أوروبا. ثم حدث خطأ. هوجم العلم الإسلامى بواسطة المتشددين وانحنى أمامهم. وعندما غزا المسلمون فارس فى ٦٣٧ وصادفوا كمية هائلة من الكتب والمؤلفات العلمية كتب «سعد بن أبى وقاص» إلى «عمر بن الخطاب» «يسأله السماح بتوزيعها على المسلمين بين الغنائم. ورد عليه عمر يأمره بإلقائها فى النهر.

طوال خمسة قرون كتب أعظم علماء العالم باللغة العربية، لكن هذا الازدهار لم يساهم فى التطور البطىء الذى تميزت به التكنولوجيا فى الإسلام. والحضارة الوحيدة التى كان بوسعها تجاوز الإنجاز الأوروبى هى الصين. لكنها عجزت عن ذلك بسبب غياب السوق الحرة وحقوق الملكية وبسبب القيم الكبرى للمجتمع (استبعاد النساء من سوق العمل). أما أوروبا فقد عرفت لذة البحث، لذة الجديد والابتداع. وكانت لذلك أسباب:

- الاحترام اليهودى المسيحى للعمل اليدوى «فالله لم ينقذ نوحا إنما أمره بأن يبنى لنفسه سفينة».
- الإجماع اليهودى المسيحى على إخضاع الطبيعة للإنسان(!!)
- الإدراك اليهودى المسيحى للزمن الخطى الذى يتقدم أو يتراجع بينما ظنته مجتمعات أخرى دائريًا يعود إلى المراحل الأولى ليبدأ من جديد.
- السوق.

الافتتاح العظيم:

بينما كان العالم سنة ١٩٩٢ يستعد للاحتفال بالعيد الخمسمائة لاكتشاف أمريكا على يد «كولومبوس»، ضاعت البهجة. فالرجل الذى كان رمزًا لإنجاز تاريخى وولادة عالم جديد أصبح مصدرًا للحرج السياسى. ذلك أن الكثيرين لم يروا فى أدميرال البحار بطلاً و لا فى وصول الأوروبيين إلى العالم الجديد اكتشافًا يستحق الاحتفال بذكراه.

يحتوى الهجوم على كثير من الحقيقة وكثير من الهراء. جانب الحقيقة يتمثل فى المصير التعس للشعوب المحلية (٢٥ مليون نسمة) التى عوملت بوحشية وسادية وأزيل تسعة أعشارها من الوجود بالميكروبات والفيروسات التى أحضرها الأوروبيون معهم دون دراية. وجرد الباقون من أراضيهم وثقافتهم وكرامتهم.

الهراء فى أسئلة من نوع: العالم الجديد كان موجودًا دائما فكيف يمكن أن يكتشفه كولومبوس؟ الأهالى المحليون هم الذين اكتشفوا أراضيهم من زمن بعيد عندما عبر الآسيويون إلى أمريكا الشمالية. ما حدث فى عام ١٤٩٢ هو أن الشعوب المحلية هى التى اكتشفت كولومبوس.

بالطبع اكتشفوه كما اكتشفهم. فاللقاء يتم بين جانبين. لكن الحملة على الأوروبيين هى قضية سياسية الهدف منها خلق الشعور بالذنب واستثارة الضمائر وتبرير طلب التعويضات. والأفضل أن نسأل: ماذا حدث ولماذا؟

هناك قانون للعلاقات السياسية: عندما تشعر مجموعة من الأمم بأنها قوية لدرجة تكفى لفرض نفوذها على مجموعة أخرى وتحقيق المكاسب من ذلك لا تتورع عن ممارسة قوتها. وإذا لم تفعل قامت شركاتها وأفرادها بالمهمة.

الإمبريالية إذن تعبر عن نزوع بشرى عميق. هكذا تحولت أوروبا بعد قرون من الاضطهاد والقمع والذبح على يد الغزاة إلى الهجوم ابتداء من القرن الحادى عشر وتحت راية الدين فى البداية. هُزمت الحضارة وانتصرت القوة. ففى ١٢٣٦ سقطت قرطبة التى كانت أعظم مركز تعليمى فى أوروبا وتبعتها إشبيلية عاصمة الأندلس الاقتصادية الكبرى وأخيرًا غرناطة فى ١٤٩٢. وتواصلت نزعة الغزو وتشابكت مع الغنائم: الذهب والتوابل والحرير الصينى. وهى بضاعة كان التجار المسلمون يسيطرون عليها.

أراد كولومبوس الذهاب إلى آسيا عن طريق الغرب. لكنه عثر على عالم جديد.. شعوب عارية ما زالت تعيش فى العصر الحجرى. لكنه لم يجد ذهبا أو حريراً أو توابل وكى لا يفقد استمرار اهتمام البلاط الأسبانى بدعم رحلاته أكد لهم أن العالم الجديد صالح لمزارع قصب السكر وتربية الماشية، وبدأ إحلال الماشية محل البشر وجلب العبيد من أفريقيا للعمل فى مزارع السكر.

سُرعت عملية إفراغ الأرض من السكان المحليين بالمذابح والقسوة البربرية والقنوط. كان الأسبان يبقرون بطون الحوامل ويتراهنون على من يستطيع فصل الجسد من وسطه بضربة سيف واحدة، ويحطمون رؤوس الأطفال على الصخور ويحرقون الناس أحياء باسم المسيح ورسله. هؤلاء الضحايا هم الذين وصفهم كولومبوس بأنهم «أبرياء» أعطونا كل ما لديهم.. ولا يرغبون فى ممتلكات الآخرين. اطلب منهم أى شىء فيقدمونه لك بل ويطلبون منك أن تأخذ ما تشاء». هؤلاء كان القنوط يدفعهم إلى الانتحار ووأد الأطفال بل وتجنب العلاقات الجنسية لتلافى الإنجاب.

ما نوع هؤلاء البشر، الأسبان؟ الإجابة فى الاختيار الاجتماعى والتاريخ. من ناحية اجتذب نوع المغامرات المنتظرة فى العالم الجديد أكثر أفراد المجتمع الأسبانى إقدامًا وجوعًا ولؤمًا. ويضيف «تودوروف»: «ليس فى بربرية الأسبان شىء بدائى أو حيوانى، إنها الطبيعة الإنسانية تماما التى أعلنت مقدم العصر الحديث».



بعد كولومبوس جاء «كورتيز» الذى قضى على امبراطورية «الأزتيك». لكن هذه الامبراطورية انهارت لأسباب أعمق. كانت بناء هشًا ساده الطغيان ومزقته النزاعات وأوشك على الانهيار قبل أن يصل الأسبان بالسيوف والخناجر الأكثر فعالية من هراوات الأزتيك ومقالعهم. فضلا عن الميكروبات والجراثيم.

وأضعف من مقاومة الأزتيك قيادة مترددة، إذ حار الامبراطور «موكتزوما» طويلا فى تحديد طبيعة الغزاة: هل هم بشر أم آلهة؟ وتكررت نفس القصة مع امبراطورية الإنكا التى كانت أكبر امبراطوريات العالم الجديد وتمتد ٤٠٠٠ كيلومتر، لكنها لا تعرف العجلة أو السفينة.

أما التوسع التجارى والسياسى الأوروبى فى المحيط الهندى وشرق آسيا فتولاه البرتغاليون. الأمر الذى يجعلنا نتساءل: ماذا لو لم يكن القرن السادس عشر فترة فوضى وتشوش سياسى فى آسيا، وحروب فى الهند بين الولايات المحلية والغزاة التركمان، وعزلة صينية؟

بين عامى ١٤٠٥ و١٤٣١ أرسلت الصين سبع رحلات بحرية لاستكشاف مياه إندونيسيا والمحيط الهندى بسفن تجاوزت فى روعتها وضخامتها الأساطيل البرتغالية التى جاءت بعد ذلك. لكن هذه الرحلات لم تتمخض عن شىء. ففى ١٤٣٠ استسلم

> **إن الفارق فى الدخل اليوم بالنسبة للفرد بينه فى أغنى أمة صناعية مثل سويسرا وبينه فى أفقر أمة غير صناعية مثل موزمبيق هو ٤٠٠ :١. ومنذ قرنين ونصف قرن كانت الفجوة بين أغنى البلاد وأفقرها ١:٥ وبين أوروبا وشرق آسيا أو جنوبها حوالى ١:٢**

الامبراطور الجديد لضغط الكونفوشيوسيين الذين كانوا يحتقرون التجارة ويعتبرون الزراعة المصدر الحقيقى الوحيد للثروة. كما أن الخزانة كانت تعانى من تكلفة نقل العاصمة إلى بكين وبناء سور جديد للمدينة وقصر فخم من ألف غرفة. فما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كان من يبنى سفينة بأكثر من شراعين يتعرض لعقوبة الموت. وبعدها بربع قرن خُولت سلطات الشواطئ تدمير أى سفينة تخرج إلى المحيط والقبض على أصحابها.

هذا التخلى عن برنامج الرحلات العظمى كان جزءا من سياسة انغلاق ونقطة تحول كبرى فى التاريخ الصينى. لماذا حدث هذا؟ لأن الصينيين كانوا يفتقرون إلى الفضول. وعلى عكس الأوروبيين لم يحركهم الجشع أو العاطفة. أصبحت العزلة هى الصين.

السكر والعبيد:

كان الصليبيون قد اكتشفوا عندما استولوا على قبرص أن صناعة السكر العربية تعتمد على عمل العبيد المجلوبين من شرق أفريقيا. ولما كان من غير الممكن استرقاق المسيحيين فإن السود متوفرون. فهناك شك فى أنهم من البشر أصلا ولديهم أرواح يمكن استخدامهم إذن لكن بعيداً عن أوروبا. فى مزارع السكر بالعالم الجديد.

جُلب العبيد الأفريقيون بعشرات الألوف، وبلغ عددهم عشرة ملايين على مدى ثلاثة قرون. ذلك غير من ماتوا فى الطريق من لحظة الاختطاف ويقدر عددهم بخمسة ملايين أخرى.

وقد نوقش طويلا دور زراعة قصب السكر فى نمو الاقتصاد الأطلنطى وتصنيع أوروبا. قيل إن أرباح تجارة العبيد واستغلال عملهم روت حديقة الرأسمالية الناشئة. وأصبحت بريطانيا بالذات أول أمة صناعية ترتفع فوق ظهور عبيدها السود التى مزقتها السياط. لكن هل كانت الثورة الصناعية ستجهض لو لم تعتمد على عمل العبيد؟ لا.. لأن التغيرات الجوهرية فى الطاقة (الفحم والبخار) والتعدين تمت بمعزل عن النظام الأطلنطى (السكر والعبيد) وكان هذا أيضاً شأن محاولة مكننة نسج الصوف.

كانت الصناعة ستتطور بالتأكيد بدون الرق وإنما ببطء. فمن الصعب الادعاء بأن توسيع السوق نتيجة أرباح المزارع كان ضرورياً وكافياً لإحداث ثورة صناعية، كما أنه من الصعب أيضاً إنكار التأثير الإيجابى لهذه الأرباح عليها.



جاء الإنجليز إلى المحيط الهندى قبل الهولنديين فى نهاية القرن السادس عشر. جاءوا فى البداية كنهابين ومحتالين ثم تحولوا إلى التجارة. ولكى لا يصطدموا بالهولنديين اتجهوا شمالا نحو الهند فى ضربة حظ. فى البداية استقروا فى «بومباى» ثم انتقلوا إلى «مدراس» وفى ١٦٩٠ شيدوا مدينة تجارية فى «كالكتا» ثم لجأوا إلى القوة. وغير انتصارهم تاريخ الهند. فنتيجة له دفع الهنود لشركة الهند الشرقية والبحرية الإنجليزية تعويضات تقدر اليوم بمليار دولار أمريكى. وحصلت الشركة على أراض واسعة وصار رئيسها حاكما لمستوطنات البنغال.

قادت الهند إلى الصين. فقد شهد القرن الثامن عشر شهية الأوروبيين إلى السلع الصينية: الخزف والحرير الخام والشاى. وكان الأوروبيون يدفعون بالذهب والنقد اللذين يحصلون عليهما من أسبانيا والبرازيل واليابان، ثم بدأوا يبحثون عن وسيلة تبادل أيسر وأرخص. لكن الصينيين لم يكونوا يرغبون فى شىء من صناعة غيرهم. ووجد الإنجليز الحل فى الأفيون الذى يزرع فى البنغال.

كان مطلع القرن التاسع عشر بمثابة بداية ونهاية فى آن واحد. فقد شهد تصفية شركة الهند الشرقية الهولندية، إلغاء تجارة الرق الإنجليزية عبر الأطلنطى، ذروة واضمحلال كنز السكر، نهاية النظام القديم فى فرنسا، ونهاية عصر الامبراطورية القديمة. العصر الجديد سيشهد فقدان أوروبا السيطرة على أراضى ما وراء البحار (أسبانيا أساساً) لصالح السيطرة الاقتصادية التى ستشق طريقها إلى مناطق كانت منيعة فى السابق مثل الصين واليابان بينما تخلق فى غيرها نوعا جديدا من الدولة على صورتها (الهند وإندونيسيا).

محرك هذا التحول كان الثورة الصناعية التى بدأت فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر وأنجزتها بعض البلدان فاغتنت ولم تنجزها بلدان أخرى فظلت فقيرة. هذه العملية بدأت قبل ذلك فى عصر الاكتشافات.

ففتح العالم أدى إلى تبادل أشكال الحياة فى نصفى الأرض. الذرة التى اكتشفها الأوروبيون فى العالم الجديد أصبحت مادة رئيسية فى المطبخ الإيطالى والبطاطس حلت محل الخبز فى بعض الأماكن وبالمقابل جلبت أوروبا للعالم الجديد السكر والحبوب والحصان والماشية والجدرى والحمى الصفراء والملاريا والدفتريا والتيفوس والسل والسيلان. أما أمراض العالم الجديد نفسه فلا نعرف غير واحد منها فقط: الزهرى الذى أسماه الفرنسيون بالمرض الإيطالى والألمان بالمرض الفرنسى.

هكذا جلبت الهجرة الاختيارية والإجبارية (الرق) بين المحيطات موتاً كثيراً للعالم وثروات للأوروبيين. والمثير للسخرية أن الأمتين اللتين استهلتا هذه العملية، أسبانيا والبرتغال، باءتا بالخسران. هنا تتمثل التيمات الكبرى للتاريخ الاقتصادى ونظريته. فكل نماذج النمو تؤكد على أهمية رأس المال. وقد وفرته الامبراطورية لأسبانيا والبرتغال فى شكل خام كنقود يمكن استثمارها أو إنفاقها. وفضلت إسبانيا إنفاقها على الكماليات والحروب. وفعلت ذلك بكرم شديد لأن الثروة لم تكن متوقعة ولم تحصل عليها بكدها. ولم تحدث الصناعة الأسبانية. فلم يعد الأسبان مضطرين لإنتاج الأشياء لأنهم كانوا قادرين على شرائها. وما أن انتهى تدفق الذهب فى منتصف القرن السابع عشر حتى أصبح العرش الأسبانى غارقا فى الديون وبدأت البلاد انحدارها الطويل، أما شعوب أوروبا الشمالية فقد شيدت بنيانا على العمل.

جذب تقدم الشمال على الجنوب دائما الاهتمام. لماذا يسقط البعض من القمة ويصعد آخرون؟ وربما كان أكثر التفسيرات استفزازا هو الذى قدمه «ماكس فيبر» فى ١٩٠٤: البروتستانتية والكالفينية بالذات شجعت على صعود الرأسمالية الحديثة أى الصناعية بتكريسها أخلاقيات معينة للسلوك اليومى: العمل الشاق المثابر، الأمانة، الجدية.



رفض كثيرون هذا المنطق. وذهب بعضهم إلى أن صعود الرأسمالية هو الذى أتى بالبروتستانتية وأن الاقتصاد الإنجليزى لم ينطلق فى القرن السادس عشر إلا عندما تضاءل النفوذ الدينى وحلت العلمانية محله. وهذا غير صحيح فعلى المستوى الأمبريقى تبين السجلات الدور القيادى الذى لعبه التجّار والصنّاع البروتستانت وعلى المستوى النظرى جوهر الأمر هو خلق نوع جديد من البشر: عقلانى، منظم، مثابر، منتج. وهى صفات عممتها البروتستانتية بين معتنقيها. وليس معنى هذا أن نموذج «فيبر» المثالى يوجد فقط لدى الكالفينيين. فكرته أنه فى ذلك المكان والزمان (شمال أوروبا فى القرون ١٦ - ١٨) ساعدت الديانة على ظهور نوع من الشخصية خلق أسلوباً جديداً للإنتاج هو الرأسمالية (الصناعة).

لماذا أوروبا؟

تمخضت سلسلة من الاختراعات فى القرن الثامن عشر عن تحول صناعة القطن البريطانية إلى نوع جديد من الإنتاج - نظام المصنع (عمال معا فى مكان واحد تحت الإشراف) تستخدم مصدرا مركزيا غير بشرى للطاقة. بدون هذا المصدر المركزى يكون لدينا مجرد مانيفاتورة. هذه هى الثورة الصناعية.

لماذا أوروبا بالتحديد وبريطانيا دون غيرها؟

الإجابة على الشطر الأول من السؤال هى: تراكم المعرفة ثم الاختراق، تجاوز العتبات والحدود. لقد لاحظنا انقطاع التقدم الإسلامى والصينى وتشريع هذا الانقطاع مؤسساتياً. وكان الأمر على العكس فى أوروبا: تراكم مستمر على ثلاثة أسس:

١- الاستقلال الذاتى المتزايد لعملية التساؤل والبحث الذهنى. فقد كانت يد الكنيسة مغلولة بالدعاوى المنافسة للسلطات العلمانية.

٢- إيجاد منهاج، أى خلق لغة للبرهنة والإثبات متفق عليها ومفهومة. لابد من التجربة المهدفة: بدلا من أن ننتظر لنرى شيئا يحدث، نحدثه! وتطلب هذا قفزة فكرية وتبديدا للخرافة: أدوات قياس وحساب وتلسكوب.

٣- اختراع الاختراع، أى تحويل البحث إلى عملية روتينية.

لماذا بريطانيا؟ ليست الإجابة عسيرة. ففى بداية القرن الثامن عشر احتلت بريطانيا المقدمة فى الإنتاج وفى التجائها إلى الوقود الإحفورى وفى تكنولوجيا الفروع الجوهرية للثورة الصناعية: النسيج والحديد والطاقة بالإضافة إلى كفاءة الزراعة التجارية والنقل. التفوق المبكر فى هذه الفروع كان نفسه إنجازا فلم يعطه لها الله ولم يحدث صدفة وإنما كان نتيجة العمل والإبداع والخيال والإقدام والمخاطرة.

وكانت لبريطانيا ميزة مبكرة أيضا هى كونها أمة: وحدة واعية بذاتها تتميز بهوية مشتركة والمساواة فى الوضع المدنى منذ صدور «الماجناكارتا» فى عام ١٢١٥.

ولكن لماذا لم تكن الهند؟ يلقى المؤرخون الهنود اللوم على بريطانيا: كانت الهند مزدهرة إلى أن ظهر الغزاة على المسرح وتدخلوا فى السياسات الداخلية وأثاروا النزاعات وحالوا دون تحول «كراخانات» الورش ذات الميكنة البدائية إلى مصانع حديثة. ثم منعوا الحماية الجمركية تحت شعار التجارة الحرة بل وفرضوا الضرائب على المنتج الهندى لإفساح المجال أمام الخيوط والأقمشة الإنجليزية.

الحقيقة أن التحول إلى الآلات لم يكن منتظرا فى الهند. فمثل هذه القفزة كانت تتطلب انتقالا من المهارات اليدوية المبثوثة فى الطفولة داخل حوانيت منغلقة، والمرتبطة بالهوية، ومن تقسيم للعمل على أساس الجنس والعمر. كما كانت تتطلب خيالاً خارج نطاق الثقافة الهندية وتجربتها الفكرية.

لقد وفدت الثورة الصناعية على عالم فارغ نسبياً بالمقارنة مع الكثافة السكانية التى نعرفها اليوم. وكانت أكبر التخوم فى الانتظار عبر البحار: الأمريكتان أساساً الشمال البريطانى سابقا و الجنوب الأسبانى البرتغالى سابقا. أراض غنية بالثروات الطبيعية. لكن النتيجة جاءت مختلفة فى سياق التكنولوجيا الصناعية الجديدة. فقد جاءت الولايات المتحدة فى الوضع الأفضل. وقال البعض إن الطبيعة هى التى حددت أسبقية النمو. لكن الباحثين قدموا حديثاً تفسيراً جغرافياً أكثر تركيباً يربط الظروف الطبيعية بالثقافة والمؤسسات.

أين يكون الدافع إلى التغيير حينما يكون المجتمع مقسماً بين قليل من ملاك الأراضى المميزين وكتلة ضخمة من

كان للاعتماد شبه الكامل على الأرز نتائج حسنة وسيئة على صعيد التغذية والأمراض. وعلى التاريخ الصينى كله. فلم يجد الصينيون حاجة لاستخدام العبيد الأجانب ومن ناحية أخرى تطلبت إدارة المياه سلطة مركزية. وهو الأمر الذى لاحظه «مونتسكيو» ثم «هيجل» و«ماركس» وأسماه «فيتفوجل» بالاستبداد الشرقى

لماذا اغتنت أمم وافتقرت أخرى



لقد استوعب الإسلام وطور منجزات الشعوب التي غزاها. وحتى ١١٠٠م كان العلم والتكنولوجيا الإسلاميان متفوقين إلى أقصى مدى على أوروبا. كان الإسلام معلم أوروبا. ثم حدث خطأ. هوجم العلم الإسلامي بواسطة المتشددين وانحنى أمامهم



العاملين الفقراء التابعين وربما غير الأحرار؟

لم تكن هذه حالة الولايات المتحدة الشمالية أو كندا: مناخ قصير الزراعة على إنتاج محدود من الحبوب، ملكيات صغيرة، أراض شبه مجانية وقوة عمل نادرة مما أدى إلى أجور مرتفعة. كان هذا المجتمع مهد الديموقراطية والمشروع. فالمساواة تنتج تقديرا للذات وطموحا واستعدادا لدخول السوق والتنافس فيها. روح الفردية والمشاكسة. الملكيات الصغيرة شجعت الاكتفاء الذاتي التقني وعقلية الاعتماد على النفس فلكل مزرعة ورشتها وأدواتها ومبتكراتها.



هكذا وجدت التكنولوجيا الجديدة للثورة الصناعية أرضا خصبة في المستعمرات الأمريكية ولم تكد الجمهورية تولد حتى كان «صامويل سلاتر» يقوم بتركيب أول آلة للغزل في «رود أيلاند». لكن الإبداع الأمريكي الحاسم لم يكن آلة معينة وإنما صيغة للإنتاج: استجابة خلاقة لشيئين: سوق متحررة من التفضيلات المحلية والإقليمية والفوارق الطبقية السائدة في أوروبا وبالتالي جاهزة لقبول سلع موحدة النمط. الشيء الثاني هو ندرة العمالة.

وضع «النظام الأمريكي» مستويات للإنتاجية أمام بقية العالم الصناعي. وقادت كل تكنولوجيا جديدة إلى غيرها: ساعات الحائط والبنادق إلى ساعات اليد وآلات الحياكة وهلمجرا، وأصبحت الزراعة صناعة. وأدى كل هذا إلى اجتثاث السكان الأصليين (بمساعدة التكنولوجيا: الأسلحة الجديدة) عدة مرات لإفساح الطريق أمام القادمين الجدد والمتعطشين إلى الأراضي.

في ١٨٧٠ صار للولايات المتحدة أكبر اقتصاد في العالم. وخلق «النظام الأمريكي» للصناعة، سواء كان هذا حسناً أو سيئاً، عالماً جديداً من استهلاك لا يرتوي. فلأول مرة في التاريخ صار بوسع الناس العاديين أن يتطلعوا إلى امتلاك السلع الصعبة المنال: ساعات، دراجات، تليفونات، راديوهات، أجهزة منزلية، سيارات. وتم تيسير كل ذلك بابتكارات في التسويق: شراء التقسيط، الأوكازيونات، حق إعادة السلعة واستبدالها. الاستهلاك الكبير جعل الإنتاج الكبير ممكناً ومربحاً والعكس صحيح.

لم تقدح البدايات الصناعية في أمريكا الجنوبية زناد الثورة الصناعية. فلم تكن الظروف الطبيعية والاجتماعية مواتية. وأرجع الباحثون الاعتذاريون فشل النمو في أمريكا اللاتينية بالمقارنة مع الشمالية إلى آثام الأمم القوية والغنية، وأطلقوا على ذلك اسم «التبعية» التي تعني حالة من الدونية لا يملك المرء فيها السيطرة على قدره فيفعل ما يمليه عليه الآخرون. وضرب هؤلاء المثل بتجربة باراجواي، الجمهورية الشاسعة المعتقلة في غابات تبعد مئات الأميال عن البحر.

وقعت باراجواي بعد الاستقلال مباشرة تحت سيطرة الديكتاتورية ابتداء من عام ١٨١٤: مزيج من الاستبداد الخيّر والطغيان الشعبوي. فأول ديكتاتور، دكتور «جاسبار دي فرانسيا»، كان يعقوبيا متطرفا سعى إلى إنشاء جمهورية المساواة. كان يجسد الإرادة الشعبية. وعندما كان يستقبل قرويا هنديا يفعل ذلك بترحيب واهتمام. عكس ما يفعله إذا استقبل برجوازيا أو مالكاً. أليس هذا تمييزا طبقيا صارخا؟ أراد الديكتاتور أن يبني على أساس الطابع المحلي، وأن يقمع النخبة الأسبانية القديمة. ومن أجل هذا الهدف منع البيض من التزاوج فيما بينهم وفرض عليهم أن يتزاوجوا مع الهنود والمولّدين والسود.

وأراد خليفتاه، «لوبيز» الأب والابن، تحويل البلاد إلى «سبارطة» متنورة: المدرسة الأولية إلزامية ومجانية ابتداء من سن السابعة يرتدي معلموها ملابس رسمية. «فلوت» لكل تلميذ مما يذكرنا بالأهمية التي أكدها أفلاطون على الموسيقى وبدورها في مدارس «محمد علي» بمصر في نفس الفترة.

وتعاقدوا على قوارب ومحركات بخارية ومجمع صناعي (به مسبك حديد) وترسانة. ودفعوا ثمن المشتريات من حصيلة الصادرات الضئيلة ومن قروض متواضعة من بانى سفن لندني. استوردوا أيضا الأسلحة الأوروبية، قديمة وصغيرة. وبنوا قلاعاً لمواجهة احتمال الحرب. وأخذ الجيران بدورهم يتسلحون خاصة البرازيليين.



ليس من السهل تحديد من بدأ. لكن عام ١٨٦٤ شهد تحالفا من البرازيل والأرجنتين وأوروجواي تمكن من سحق الوباء بعد ثلاث سنوات من المقاومة مات «لوبيز» وابنه في نهايتها مع سبعين بالمائة من السكان.

اليابان: بدلا من الشخصية المُروَّضة، الهادئة، الذليلة، المستكينة التي جعلت من الصينيين رعايا جاهزين للاستبداد، تميز اليابانيون بالنشاط والاستقلالية وروح الفكاهة. هكذا وصفهم رحالة إنجليزي في ١٨٣٤.

آمن الصينيون بأنهم مركز العالم ولهذا استقبلوا الأوروبيين بالمحاصرة كأنهم وباء. أما اليابانيون (الذين اعتبروا أنفسهم أيضا شعبا مختارا) فقد أدركوا على العكس القوة الجبارة لهؤلاء الأغراب (تجلت في إسقاط الطيور أثناء تحليقها) فاستقبلوهم بأذرع مفتوحة وتسابقوا على معرفة أسرارهم. بل وعلى التحول إلى المسيحية مما أثار فزع البوذيين والكونفوشيوسيين. فجرى حظر هذه الديانة في ١٦١٢ وقمع معتنقيها. وفي البداية لم يؤثر هذا على التجارة لكن التأثير لم يلبث أن تصاعد حتى وصل إلى العزلة التجارية والثقافية وإلى تثبيت النظام الاجتماعي والسياسي ومنع الاختلاف ووضع حدود فاصلة بين المراتب الاجتماعية. وجرى مع كل هذا استبعاد لكل ما هو أجنبي: الأشياء والمعرفة.

نفس ما حدث في الصين لكن بنتيجة مختلفة. فقد ظل الصينيون كما هم في الجوهر بينما تغير اليابانيون ـ المتعلقون بالماضي ـ لدرجة حملت معها إمكانية التصنيع.

لم تكن في اليابان كالفينية، لكن تجارها تبنوا أخلاقيات عمل مماثلة. العمل لا الثروة هو المفتاح ومنذ البداية قرروا تجاوز السلع الاستهلاكية إلى صناعة الآلات والمحركات والسفن والقاطرات والموانئ. ولعبت الحكومة دورها في ذلك بتمويل عمليات الاستكشاف في الخارج وإحضار الخبراء الأجانب وإقامة المباني والتركيبات اللازمة والمشاركة في المشروعات التجارية. لكن الأهم هو موهبة وتصميم الوطنيين اليابانيين الذين كانوا مستعدين لتغيير مهنهم ومسيرة حياتهم من أجل القضية العامة، وقنعوا بأجور بائسة وعمل متواصل بلا يوم راحة. أضف إلى ذلك نوعية العاملين وخاصة المهرة منهم الذين تشكلت مهاراتهم من خلال عمل الفريق تحت إشراف دقيق. كل هذا صنع المعجزة اليابانية: نسخة يابانية من أخلاق «ماكس فيبر» البروتستانتية.

خطأ التاريخ

لا أحد يستطيع فهم الأداء الاقتصادي للأمم الإسلامية دون أن يدرس تجربة الإسلام كعقيدة وثقافة. الإسلام الذي يعني الخضوع لله هو إحدى ديانات العالم العظمى. ولد في العراء كسابقيه التوحيديين. وحمل جماعة صغيرة من المحاربين البدو إلى سيطرة واسعة وسريعة. خلال قرن من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢ قوض المحاربون العرب أمم وامبراطوريات الشرق الأوسط، واجتاحوا العالم غربا حتى الأطلنطي. وبعد فترة استراحة هضم اندفعت جيوش جديدة إلى الشرق: الهند وما وراءها.

هذا الانفجار للعقيدة والإيمان كان استباقاً لقوة الاجتياح الأوروبي الإمبريالي التالي الذي كان أوسع وأعمق وفرض تقويمه على العالم.

الفارق الدقيق بين الموجتين من السطوة هو موقع التكنولوجيا. فقد اعتمد الإسلام على الوسائل القديمة برجال جدد. على الحماس القتالي لفرسان سريعي الحركة، آمنوا بأن الله والتاريخ يقفان إلى جانبهم فتغلبوا على أتباع ورعايا غير مبالين لامبراطوريات استبدادية. أما الاجتياح الأوروبي (الإمبريالية) فاستند إلى تفوق في السلاح دافعه هو الربح. غنائم ونهب نعم، لكن ربح مستمر. كان اندفاعا أقوى بسبب أساسه المادي.



وابتداء من لحظة الذروة في ١١٨٧ بدأ انحدار الإسلام. ما ذوى هو القوة والسيطرة لا العقيدة. ومع حلول القرن السابع عشر تجلى بوضوح انتقال ميزان القوة العالمية.

مكانان كان فيهما الصدام بين العقائد والامبراطورية حاسما لمجرى التاريخ. الهند التي بدأ فيها الإنجليز التهام الأراضي والعوائد والسيادة. والامبراطورية العثمانية التي قُيدت يدا سلطانها بادعاءات الجيران والانبعاث القومي لرعاياه المسيحيين.

ويعتبر دوام أجل الامبراطورية العثمانية من الألغاز. فبعد قرنين ونصف قرن من التوسع من ١٣٠٠ ـ ١٥٥٠ كان لا بد أن يؤدي انحدارها إلى تصفيتها في عدة عقود. لكن الاحتضار استمر ثلاثة قرون. كيف أمكن لجثة حية، تعفنت كافة أجزائها، أن تستغرق كل هذا الوقت كي تموت؟

العوامل معروفة. لم يكن العثمانيون مخترعين وإنما مقلدين. أدركوا قيمة المدفع لكنهم اعتمدوا على الفنيين المسيحيين في سبكه. وعلى مر الزمن انعكست العلاقات التجارية بين أوروبا والمشرق. ووجد المنتجون المحليون في تركيا صعوبة في منافسة المشترين الأوروبيين للمواد الخام.

«لكن خطأ أتباع الإسلام الأكبر كان في رفض المطبعة التي رأوا فيها أداة محتملة للكفر والإلحاد»، الأمر الذي عزل المسلمين عن نهر المعرفة الرئيسي. ونتيجة لهذه العزلة الفكرية والتخلف التقني والتبعية الصناعية، مال ميزان القوى الاقتصادية باطراد ضد العثمانيين. الشيء الوحيد الذي أنقذها من التحلل السريع هو عدم فعاليتها وفساد

قادتها ومصالح الدول الأقوى. في هذه الظروف دقت الثورة الصناعية مسامير نعش الصناعة التركية.

وبالرغم من ذلك كان لقطعة من الامبراطورية العثمانية عبر البحر المتوسط رأي آخر. إنها مصر التي نامت طويلا في ظل المماليك حتى نسيت العجلة ، التي سبق أن طارد بها فراعنتها الغزاة . ولم تغير الحكومة التركية كثيرا من أمور البلاد إلى أن تولى أمرها «محمد علي».

تمتع محمد علي ، على خلاف المحاربين التقليديين، برؤية أكبر وبالخيال الملازم لها. لم ير في مصر ولاية فترة محدودة وإنما ضيعة شخصية ومجالا للتنمية والتطور. ورأى هذا التطور كعملية شاملة تشمل الزراعة والصناعة والتعليم. وأيضا، لسوء الحظ، برنامجا للاسلحة. وليحقق كل هذا استقدم الفنيين الأجانب.

بين هؤلاء الفنيين الفرنسيين وأكثرهم أهمية كان «لويس ـ ألكسيس جوميل» الذي طور لمصر في ١٨٢٢ القطن الذي عرف باسمه. تميز هذا القطن بتيلة طويلة رفيعة وقوية صالحة للغزل ومناسبة لصناعة أدق الخيوط وأكثرها نعومة. ولم تمض سنتان حتى تم تصدير أكثر من ١١ مليون كيلوجرام منها وبلغت نصف صادرات مصر في ١٨٣٥.

سددت هذه الصادرات كلفة الطموحات الاقتصادية والعسكرية لمحمد علي . وجاء الباقي من محاصيل أخرى ، بيعت مثل القطن من خلال وكالات رسمية: احتكارات الدولة.

وابتداء من عام ١٨٢٠ انصب الجزء الأكبر من هذه المداخيل في جهد تعليمي وصناعي ضخم: كل ما هو ضروري لإحلال الواردات وتغذية آلة حرب متنامية، بل سعى محمد علي إلى استقلال أعمق بشراء الآلات الأوروبية وتقليدها في مصر.



كانت رؤية محمد علي «دونكيخوتية» غير واقعية أدت إلى إغضاب المصالح الصناعية والتجارية الأوروبية . كانت أول محاولة من مجتمع متخلف غير غربي لبناء اقتصاد صناعي حديث.. بالأمر من أعلى. وسقط المشروع العظيم عندما بدأ تنفيذ المعاهدة التي فرضت حرية التجارة.

أصحاب الاتجاه «التقدمي» يرون في ذلك وأدًا لثورة مصر الصناعية أو على الأقل تعطيلا لها لمدة قرن كامل. لكن السؤال هو : هل كانت مصر محمد علي جاهزة لثورة صناعية؟ لا. فمشاكل مصر كانت أعمق من كل هذا. وحتى الآن فإن الجهود الصناعية المصرية تتعثر لأسباب لا تختلف عن أيام محمد علي. لقد تم نقل التكنولوجيا، لكن المجتمع والثقافة المصريين لم يتغيرا كثيرا في الأساسيات التي تحدد الكفاءة والأداء. لم تكن مصر جاهزة وقتذاك ، فهل هي الآن؟

لم تحقق مجتمعات الشرق الأوسط الأخرى ما هو أفضل. فاعلى دخل بين البلاد العربية الإسلامية يوجد فقط لدى منتجي النفط ومصدريه. أما غيرهم فلم يحقق شيئا. حتى بين دول «الأوبك» لم تتمخض الثروة عن تحول اقتصادي . المقارنة المثلى تكون مع أسبانيا القرنين السادس عشر والسابع عشر.لقد بادل أثرياء النفط الذهب الأسود بالنقود التي أعادوها إلى البلاد التي دفعتها . اشتروا أسهما كثيرة وقليلة في منشآت الأمم الصناعية المتقدمة. وبنوا أيضاً بيوتاً جميلة وفنادق وقصوراً واشتروا سيارات كبيرة وأراضي في الخارج حيث يمكنهم حماية ثرواتهم وممارسة السلوكيات التي لا تقبلها بلدانهم. دفعت السعودية ،بكل صحراواتها، الكثير لتستورد رمال الشواطئ من استراليا ! والأكثر مضيعة هو استثمار هذه البلدان الضخم في الأسلحة والمفترض أن أغلب هذه الاستثمارات تهدف إلى شراء صداقة صنّاعها.

لم تطور هذه البلدان اقتصادًا متقدمًا، ومثل أسبانيا الأمس اشترت مهارات وخبرات الآخرين بدلا من أن تتعلم صناعة الأشياء بنفسها. هذه البلدان دون استثناء، غنيها وفقيرها، بلاد استيراد، وقادة غير مسئولين. لا حلول وإنما إسعاف أولي وإدارة للأزمة وبدلا من التماس الشرعية عن طريق التحسين المادي ، يتفاخر القادة العرب بانتصارات على الاستعمار والصهيونية ولو بقميص الجهاد الدموي. لن يتحقق بها ازدهار ولو نجحت «عملية السلام». فالمرض أكثر عمومية من النزاع العربي الإسرائيلي. وهو يكمن في الثقافة التي لا تولد قوة عمل عارفة وقادرة، تواصل رفض التقنيات والأفكار الجديدة التي تأتي من العدو الغربي (المسيحي)، لا تحترم المعرفة التي يحرزها البعض عن طريق الدراسة في الخارج أو الحظ الحسن بالداخل. إن نسبة الأمية فضيحة وهي أعلى لدى النساء. وهذا وحده يومئ إلى مجتمع يعطي المرأة وضعًا متدنيًا، وهو أمر له علاقة واضحة بالمواقف التي زرعها الإسلام وخاصة إسلام العالم العربي. إذ يتم تحقير المرأة وإهانتها منذ لحظة الميلاد. وجودها نفسه كارثة وجسدها خطيئة.

هل هناك خطأ ما متأصل في الإسلام؟ لا. الإسلام متعدد الأوجه. فهو عالمي ويضم مجتمعات وأجزاء من مجتمعات وثقافات متباينة. وفي نصوصه المقدسة تعاليم عديدة ، بعضها متناقض يمكن استخدامه لأي هدف. له ككل الديانات جوهر نقي وصلب. وفي مجتمع من الذكورية المتطرفة يصبح المزيج مادة متفجرة. من هنا سرعة الالتجاء إلى العنف: ذبح للمعارضين الدينيين في سوريا، ثورة وقمع في إيران، استبداد أوتوقراطي في العراق والسودان ، غازات سامة ضد الأكراد في العراق، حملة إبادة في الجنوب الأسود للسودان، اغتيالات عشوائية ومنظمة في باكستان ومصر والجزائر.

لقد بدأت الإمبراطورية الأوروبية عبر البحار في القرن الخامس عشر . وانتهت بدرجة أو أخرى في النصف الثاني من القرن العشرين. خمسة قرون من السيطرة ، لكنها ظاهرة عابرة في المجرى الأكبر للتاريخ العالمي.

إنها ظاهرة ترجع إلى فجر التاريخ . لكن البعض يصر على أنها نتاج للرأسمالية الحديثة بينما يكذب التاريخ هذا الزعم.

لقد وصف الراديكاليون الموجة الاستعمارية للقرن التاسع عشر بأنها نتيجة الشره الرأسمالي وبأنها كانت ضرورية لازدهار أوروبا. التهمة الأولى حقيقية جزئيا . فالشراهة الآن مطلقة العنان، وليست بالضرورة شراهة رأسمالية بقدر ما هي ظاهرة إنسانية .أما التهمة الثانية فهي هراء. فلم تكسب الاقتصاديات الأوروبية على الإطلاق من الملحقات الجديدة مهما قيل عن دور المستعمرات في توفير سوق للبلد الأم. هل لابد من الاستيلاء على بلد ما لإيجاد سوق؟

وعلى العكس شهدت الاقتصاديات الإمبريالية السابقة ازدهارا لم تعرفه من قبل، بينما واجهت أغلب المستعمرات السابقة صعوبة في السير. ذلك أن سادتها السابقين لم يعلموها الكثير .

لقد حققت أمم العالمين الثالث والرابع نتائج متنوعة للغاية منذ الاستقلال . من النجاحات الباهرة في شرق آسيا إلى نتائج مختلطة في أمريكا اللاتينية إلى تراجع صارخ في بورما وأغلب أفريقيا .وهذا التنوع يرينا أن الاستعمار في حد ذاته ، بل والرق نفسه ، لا يحتمان الفشل. فما هو كشف الحساب الختامي: هل كانت الإمبريالية خيراً أم شراً؟

هل كان بوسع الأمم المتخلفة اقتصادياً أن تنمو وتتقدم بصورة أسرع لو لم تقع في براثن الاستعمار؟ تقوم هذه الحجة على افتراض أن هذه الشعوب كانت ستظل آمنة من الاستغلال المحلي والأجنبي ، قادرة على أن تتعلم وتتغير. والحجة المعاكسة تستند إلى التاريخ: الإمبريالية لم تحل دون بعض المستعمرات وتطوير مراكز مستقلة ذاتيا وتعلم واختراع تقنيات الاقتصاد الصناعي: المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية ، فنلندة عندما كانت جزءا من روسيا القيصرية ، النرويج تحت سيطرة السويد، وهونج كونج تحت سيطرة بريطانيا.

وبالمقارنة بالنجاح الذي تحقق في دول شرقي آسيا يبدو بقية العالم كدراسة في الحركة البطيئة مركزها أفريقيا تحت الصحراء.

إن ٢٢ من أفقر ٢٥ بلدًا توجد اليوم في أفريقيا . ويعيش ٥٤ بالمائة من الأفريقيين تحت خط الفقر. ولهذا أعلنت الأمم المتحدة بالتعاون مع البنك الدولي عن خطة لجمع ٢٥ مليار دولار في السنوات العشر التالية للاستثمار في التنمية الأفريقية. فماذا يمكن أن يفعل هذا المبلغ؟ ابتداء من عام ١٩٩٤ بلغت ديون الأمم الأفريقية ٣١٣ مليار دولار. معنى هذا أن الـ٢٥ مليار دولار ستكفي لدفع فائدة هذه القروض لسنة واحدة.

إلى أين نحن متجهون ؟

يتطلع البعض إلى ثورة تصحح الأخطاء وتعمم السعادة. الاشتراكيون الماركسيون والشيوعيون من هذه الفئة رغم كثرة إشاداتهم بالعلم. البعض الآخر يشعر بالحنين إلى عالم المجتمعات البدائية المشاعي بغير دولة.

وبينما نجد المؤرخين لا أدريين بشأن المستقبل ، فإن المتشائمين الفعليين ، من اقتصاديين ورجال أعمال ، يميلون إلى التفاؤل: سيواصل العالم تقدمه نحو مزيد من الثراء، وسيلحق الفقراء بالأثرياء ، وتصبح جزر النمو قارات كاملة وستحل المعرفة المشاكل وتتغلب على الصعاب المادية والاجتماعية وفي مقدمتها الأخطار التي تهدد البيئة . هكذا كانت الأمور وهكذا ستكون.



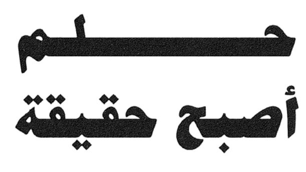
إذا كنا تعلمنا شيئا من تاريخ التنمية الاقتصادية فهو أن الثقافة هي المحك. والمقصود هو القيم الداخلية والتوجهات التي تتحكم في سلوك شعب معين. أنصار تدخل الدولة لم يستسلموا بعد، فهم يريدون القوة والثروة وعدالة التوزيع والكفاءة. ويعترض الكلاسيكيون الجدد ، فإشارات السوق هي الحقيقة الوحيدة التي يمكن الارتكاز عليها. ومع ذلك فآدم سميث نفسه أدرك أن الدولة ستتولى بعض المهام (الدفاع والشرطة) بصورة أفضل من المنشأة الخاصة . فها هي في كوريا وتايوان بل واليابان تقدح الزناد وتوجه نشاط السوق. السجل إذن مختلط وتدخل الدولة قد يكون خيراً أو شراً.

هناك قانون للعلاقات السياسية: عندما تشعر مجموعة من الأمم بأنها قوية لدرجة تكفي لفرض نفوذها على مجموعة أخرى وتحقيق المكاسب من ذلك لا تتورع عن ممارسة قوتها. وإذا لم تفعل قامت شركاتها وأفرادها بالمهمة

إن عملية الانتقاء تمضي في طريقها. فحرّك المسعى من أجل العمالة الرخيصة الوظائف من البلاد الغنية إلى الفقيرة، أو بعضها على وجه الدقة. وصفق الاقتصاديون والأخلاقيون لهذا الانتقال باعتباره عاكساً للميزة المقارنة. ومع ذلك لا يرحب الأمريكيون والألمان بتوظيف الماليزيين والمكسيكيين لأن من فقدوا وظائفهم غير سعداء وهم الذين يصوتون في الانتخابات ويتظاهرون ويحدثون الشغب.

الميزة المقارنة لليوم ربما لن تكون صالحة للغد. هل الحماية مشروعة فقط للصناعات الوليدة؟ ليست لهذه الأسئلة إجابات بسيطة واضحة. الدعوة إلى سياسة حكومية نشيطة أمر واتخاذ الإجراءات السليمة وتنفيذها أمر آخر. ومع ذلك هناك أمر واحد جلي. الاتجاه الحالي للانتشار الصناعي العالمي سوف يتمخض بالنسبة للبلاد الغنية عن هبوط مستوى الأجور وزيادة الهوة بين الدخول أو ارتفاع مستوى البطالة.

بوسع البلاد الغنية الصناعية بالتأكيد أن تدافع عن نفسها بالانتقال إلى فروع جديدة تخلق وظائف جديدة. لكن ماذا بشأن الفقراء المتخلفين المجردين من أي مزايا؟ يقول التاريخ إن أنجح علاج للفقر يأتي من الداخل. الأمر الأساسي هو العمل، النمو المعافى، الأمانة، الصبر، العناد والمثابرة.. تكرار المحاولة.



يقدر عدد المصابين بالأمراض المزمنة الناتجة عن تلف بعض الأعضاء البشرية فى العالم بمئات الملايين، وتتراوح أنواع هذه الأمراض بين خطيرة تؤدى إلى الوفاة وليس لها علاج ناجح مثل فشل الكبد الناتج عن إصابته بفيروسات كبدية أو أمراض متوطنة كالبلهارسيا، أو بعض أمراض المناعة. أما البعض الآخر من الأمراض فهى تسبب إعاقة مزمنة مثل الإصابة بالشلل الرعاش أو مرض الزهايمر الذى تذبل فيه خلايا المخ ويصبح الإنسان غير قادر على تذكر أو حتى معرفة أقرب الناس إليه، وهو المرض الذى أصاب ريجان الرئيس الأمريكى الأسبق. وبعض الأمراض التى تعوق الإنسان عن الحركة مثل إصابات العمود الفقرى أو النزيف فى المخ والتى ينتج عنها شلل نصفى.

وهناك بعض الأمراض التى تؤدى إلى مضاعفات على المدى الطويل مثل مرض السكر الناتج عن فشل الخلايا التى تفرز الأنسولين من البنكرياس. ويقدر عدد المرضى المصابين بالسكر فى العالم بأكثر من مائة وعشرين مليون مريض. ويتكلف علاجه فى الولايات المتحدة وحدها أكثر من مائة مليار دولار سنويًا.

ويكون الحل فى بعض الحالات المرضية مثل الفشل الكبدى أو الكلوى هو نقل الأعضاء السليمة لتحل محل المصابة. وعملية نقل الأعضاء لها مشاكل كبيرة أهمها أن عدد الأعضاء المتوافرة للنقل قليلة جدًا مقارنة بأعداد المرضى المطلوب لهم هذا النوع من العلاج، والمشكلة الأخرى أن نقل الأعضاء من الأقارب أو المتبرعين قد يشكل خطرًا على صحة وحياة المتبرع وفى حالة النقل من حديثى الوفاة فتلزم ذلك شروط وموافقات ومواصفات كثيرة تجعل من هذا التبرع مشكلة صعبة التحقيق، لذا كان استنساخ الأنسجة وتصنيع قطع الغيار فتحًا كبيرًا وجديدًا فى عالم الطب سوف يؤدى إلى ثورة وانقلاب فى علاج الأمراض المزمنة ويؤدى إلى إطالة عمر الإنسان مع تمتعه بصحة جيدة.



وجميع الأمراض التى سبق ذكرها أمراض مزمنة خطيرة وعلاجها الحالى يتم بطرق ذات فاعلية محدودة ربما توقف تقدم المرض أو تساعد على تخفيف أعراضه ومضاعفاته، وكان على العلماء أن يفكروا فى علاج غير تقليدى بعد أن ثبت عدم وجود علاج حقيقى للأنسجة التى دمرها المرض. ومن المنطقى أن يتساءل الأطباء والمرضى لماذا لا نستبدل هذه الأنسجة المريضة بأخرى جديدة وسليمة وليست مصابة بالمرض؟ بالطبع يبدو هذا رائعًا، فبدلاً من الإصلاح وإعادة الإصلاح عدة مرات لطلمبة زيت متهالكة للسيارة فلماذا لا نغير الطلمبة ونحل المشكلة جذريًا. وفى حقيقة الأمر، فإن الإنجازات البشرية الطبية التى حققت نجاحًا باهرًا كانت كلها نتاج أفكار ثورية غير تقليدية، فبدلاً من البحث عن علاج لفيروسات الجدرى تم إنتاج مصل لقاح للوقاية من المرض الذى حل المشكلة نهائيًا وانتهى المرض من العالم تمامًا بل وقررت منظمة الصحة العالمية إلغاء التطعيم ضد الجدرى فى العالم بعد أن كان المرض يقتل عشرات الملايين من البشر كل عام.

وإزاء الطريق المسدود لعلاج الأمراض السابقة لابد أن يكون هناك حل مبتكر ألا وهو استحداث خلايا مماثلة لخلايا الجزء المريض أو الميت من جسم الإنسان. والسؤال التالى: من أين لى بهذه الخلايا؟ والإجابة من الخلايا الجذرية.

ما هى الخلايا الجذرية؟

هى خلايا إذا زُرعت بنجاح داخل المعمل نتج عنها مزرعة من الخلايا تتكاثر بسرعة فائقة إلى مالا نهاية وتنتج مئات الآلاف من الأجيال من نفس الخلايا ومتى نجحت عملية انقسامها فى المزرعة بالمعمل تستمر إلى نهاية الكون ولا تموت أبدًا وتبقى سليمة حية نشيطة ولا تهرم أبدًا وتنتج الملايين والبلايين من الخلايا المماثلة. وهذه الخلايا قادرة على التحول إلى ٢١٠ أنواع مختلفة من الخلايا وهى التى تتكون منها أنسجة جسم الإنسان.

ما هى مصادر الخلايا الجذرية؟

المصدر الأول:

هو من البويضة المخصبة فى المعمل، فعند إجراء عملية أطفال الأنابيب. يتم تنشيط التبويض عند السيدة بإعطائها حقنًا تحتوى على هورمون الغدة النخامية ثم تلتقط البويضات بإبرة عن طريق المهبل بمساعدة الموجات الصوتية ويتم تخصيب البويضات بالحيوانات المنوية للزوج، وبعد ١٨ ساعة تكون البويضات قد خُصِّبَت وتبدأ البويضات المخصبة فى الانقسام ويتم نقلها إلى رحم السيدة بعد ٤٨ إلى ٧٢ ساعة، وذلك بحد أقصى ثلاث بويضات مخصبة. وفى حالات كثيرة يتبقى عدد كبير من البويضات المخصبة يمكن تجميده ونقله لرحم السيدة فى فترات لاحقة. وبعض السيدات يرفضن مبدأ تجميد الأجنة، وفى هذه الحالات يتم التخلص من الأجنة الفائضة، وبدلاً من ذلك يمكن أن تستمر رعايتها فى الحضّانة ويستمر انقسامها إلى عدد أكبر من الخلايا. وفى حوالى اليوم الخامس بعد الإخصاب تتكون مجموعة من الخلايا فى طرف الجنين هى التى تستخدم فى إنشاء مزرعة الخلايا الجذرية.

ومن المعروف أنه فى أحوال كثيرة أثناء إجراء عملية أطفال الأنابيب تكون هناك أجنة زائدة على الحاجة تستخدم كبداية لإنشاء المزرعة.

المصدر الثانى:

يوجد جزء صغير فى الجنين يتكون منه أثناء تطور نمو الجنين، الخصيتان أو المبيضان وتستخلص خلايا هذا الجزء من الجنين فى حالات الإجهاض التى تتم لأسباب طبية والفترة المناسبة لذلك هى التى يتراوح فيها عمر الجنين بين خمسة وتسعة أسابيع.

المصدر الثالث:

قد أمكن حديثًا استخراج الخلية الجذرية من الإنسان والحيوان المكتمل النمو ولكن بكميات ضئيلة وذلك من بعض أجزاء الجسم مثل الجهاز الدموى والليمفاوى الموجود فى النخاع، وقد اكتشفت الخلايا أيضًا فى أجزاء أخرى من الجسم ويبدو أن قدرة الخلايا المستخرجة من الإنسان أقل قدرة على الانقسام والتحول إلى خلايا متخصصة مقارنة بالخلايا الجذرية المنتجة من الأجنة.

متى تكونت أول مزرعة للخلايا الجذرية؟

وبالرغم من أن الأفكار والتجارب الأولى بدأت فى الستينيات من القرن العشرين، إلا أن الطفرة الحقيقية حدثت فى منتصف التسعينيات وفى عام ١٩٩٨، فى نفس الوقت أعلن عن نجاح تكوين مزرعتين للخلايا الجذرية فى الولايات المتحدة. الأولى فى جامعة ويسكنسن بفريق يرأسه الدكتور تومسون واستخلص الخلايا من جنين مخصب فى المعمل عن طريق أطفال الأنابيب وفائض عن حاجة المريضة. أما المزرعة الثانية فهى من جامعة جون هوبكينز ويرأس الفريق العلمى الدكتور جيهارت، وفى هذه الحالة أخذت الخلايا الجذرية من جنين أجهض فى الأسبوع الثانى للحمل. وحتى الآن فإن الدول التى استطاعت معاملها النجاح فى زراعة الخلايا الجذرية معدودة على الأصابع ويبين الجدول المرفق أسماء الدول وعدد المراكز العلمية وعدد مزارع الخلايا الجذرية.

البلاد التى بها مراكز علمية ويوجد بها مزارع خلايا جذرية

الدولة	المراكز المعملية	عدد المزارع
السويد	٢	٢٤
أمريكا	٤	٢٠
الهند	٢	١٠
استراليا	١	٦
إسرائيل	١	٤

هل للخلايا الجذرية فوائد أخرى؟

بالإضافة إلى استخدامها فى استبدال الأنسجة المصابة لبعض الأمراض المزمنة كقطع

غيار آدمية يمكن أن يؤدى هذا التطور العلمى إلى إجراء تجارب الأدوية الحديثة وهى مازالت فى طور التجارب الأولية على هذه الخلايا للتأكد من أنها لا تحدث ضرراً على خلايا الإنسان، وفى حالة ثبوت أنها غير ضارة تبدأ التجارب على الحيوان ثم الإنسان، وبهذا يمكن أن توفر شركات الدواء أموالاً طائلة ووقتًا وجهدًا طويلاً.

وهناك فائدة مهمة أخرى وهى أننا إذا استطعنا الوصول إلى معرفة أسرار طريقة انقسام الخلايا الجذرية فيعنى ذلك أنه يمكننا الوصول إلى اكتشاف أسباب نوعين مهمين من الأمراض سببهما هو وجود مشكلة فى طريقة انقسام الخلايا. النوع الأول هو التشوهات الخلقية والتى تنتج عن عدم انضباط الانقسام فى فترة معينة أثناء نمو الجنين داخل الرحم. والمرض الآخر هو السرطان والذى تنقسم الخلايا فيه بدون رابط وبسرعة فائقة. فإذا عرفنا أسرار وأسباب انقسام الخلايا الجذرية فى المزرعة المعملية قد نجد مفتاحًا لاكتشاف علاج هذين المرضين الخطيرين المحيرين.

ما هى المشاكل التى يمكن أن يقابلها نسيج الخلايا الجذرية فى المعمل؟

هذه الخلايا تقوم بالانقسام بصفة دائمة وبأعداد هائلة، وحيث إن هذه الخلايا فى الأصل كان من المقرر أن تنتج أنسجة الجنين المختلفة، فيحدث كثيرًا أن تتحول بعض هذه الخلايا تلقائياً داخل النسيج المعملى للخلايا الجذرية إلى خلايا متخصصة كخلايا الجلد أو العظام أو الأسنان أو أى شىء آخر، وذلك بدون إعطاء إشارة كيميائية لها تطلب منها ذلك. وهذه مشكلة كبيرة لأنه من الأهمية بمكان أن يستمر النسيج من الخلايا الجذرية الأولية البدائية نقيًا حتى يعطيه الباحث الأمر بواسطة إشارات كيميائية خاصة بالتحول إلى نسيج معين محدد مثل نسيج كبدى أو نسيج خلايا عصبية، وذلك لاستخدامه فى علاج مريض عنده مرض معين. ووجود أنواع أخرى من الخلايا المتخصصة داخل هذا النسيج يمنعنا من استخدامه لأننا لا نستطيع مثلاً أن ننقل بعض خلايا العظام أو الأسنان فى الكبد مثلاً وذلك ضمن خلايا الكبد التى ننقلها للمريض، وتجرى الأبحاث المكثفة حاليًا لإيجاد حل لهذه المشكلة، وتتلخص الحلول فى الآتى:

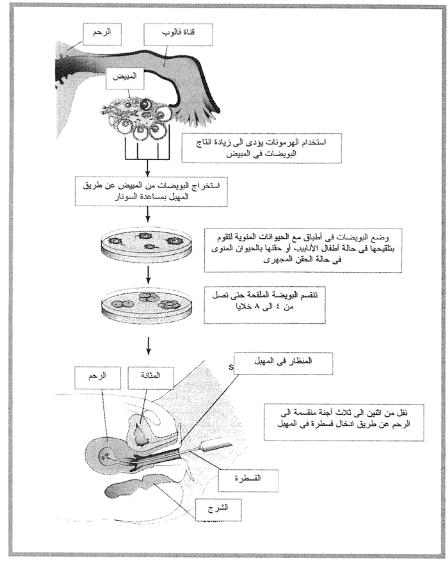
١ ـ فرز الخلايا المطلوبة وعمل نسيج نقى منها، ويتم ذلك باستخدام ميكروسكوب فلورسنت خاص أو باستخدام الخواص الطبيعية للخلايا كوزن الخلية مثلاً.

٢ ـ باستخدام مواد وسوائل مغذية للخلايا تحفز التحول إلى نوع واحد من الخلايا وتمنع التحول إلى أكثر من نوع.

٣ ـ باستخدام خصائص فى الجينات الموجودة فى الخلايا تجعل فصلها ممكنًا.

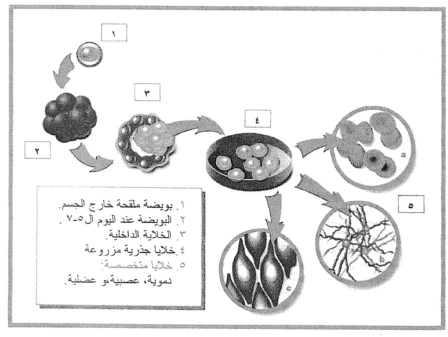
هل تم نقل الخلايا الجذرية للجسم بنجاح؟

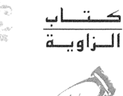
لقد تم استخدام هذه الطريقة بنجاح فى الفئران، فمثلاً تم تحويل جزء من مزرعة خلايا جذرية إلى نسيج خلايا عصبية وتم حقنه فى مخ الفار وتفاعل النسيج فى المخ وأصبح جزءًا منه وبالتالى نجح فى علاج شلل ناتج عن إصابة العمود الفقرى للفار، فقد استطاعت الخلايا العصبية المنقولة أن تحل محل الخلايا المصابة فى العمود



خطوات عملية أطفال الأنابيب حتى نقل الأجنة للرحم

نمو الأجنة الفائضة التى لم تنقل للرحم داخل الحضانة، ثم استخلاص الخلايا الجذرية غير المتخصصة وتكوين مزرعة منها ثم تحويلها إلى خلايا متخصصة حسب الحاجة فى المعمل.







كتاب الزاوية

دلائل الإعجاز
عبد القاهر الجرجانى

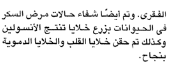
يقول العلامة الكبير الراحل محمود محمد شاكر محقق كتاب «دلائل الإعجاز» إن المؤلف عبد القاهر الجرجانى أراد بهذا الكتاب أن يؤسس علمًا جديدًا لم يسبقه إليه الأئمة الذين كتبوا فى «البلاغة» وفى «إعجاز القرآن» لكنه (أى الجرجانى) لم يسر فى بناء كتابه سيرة من يؤسس علمًا جديدًا من حيث الأناة فى التبويب والتقسيم والتصنيف فقد كان فى عجلة من أمره وكأن منازعًا كان ينازعه عند كل فكرة يريد أن يجليها ببراعته وذكائه وسرعة لمحه وبقوة حجته ومضاء رأيه.

ويشير شاكر إلى أنه توصل بعد بحث جاد إلى أن الجرجانى قصد من هذا الكتاب مخالفة رأى قاضى القضاة المعتزلى عبدالجبار العالم الكبير فى علم الكلام والأصول والذى يصفه بأنه من أصحاب اللفظ. ويدور كتاب دلائل الإعجاز على رد وإبطال كلام عبد الجبار بأن المعانى لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ. وأن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ولكن تظهر بالضم بطريقة معينة أى فى الفقرات.

والجرجانى هو الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجانى الأديب النحوى والفقيه الشافعى والمتكلم الأشعرى ومن أشهر كتبه «أسرار البلاغة» وقد توفى على الأرجح عام ٤٧١ أو ٤٧٤ هجرية. ويعتقد العلامة محمود محمد شاكر أن الجرجانى كتب كتابه فى أواخر حياته بدليل أن نسخة الكتاب تشير إلى أن المؤلف كان يوشك على إعادة النظر فى كتابه لكن القدر لم يمهله.

وقد صدر الكتاب المحقق فى طبعة خاصة من مكتبة الخانجى لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كان استنساخ الأنسجة وتصنيع قطع الغيار فتحًا كبيرًا وجديدًا فى عالم الطب، سوف يؤدى إلى ثورة وانقلاب فى علاج الأمراض المزمنة ويؤدى إلى إطالة عمر الإنسان مع تمتعه بصحة جيدة



الفقرى. وتم أيضًا شفاء حالات مرض السكر فى الحيوانات بزرع خلايا تنتج الأنسولين وكذلك تم حقن خلايا القلب والخلايا الدموية بنجاح.

هل يمكن بدء علاج الإنسان بالخلايا الجذرية؟

يحتاج الأمر لمزيد من الأبحاث للإجابة عن بعض الأسئلة وإيجاد حلول لبعض المشاكل، أول وأهم هذه الأسئلة هو:

هل سيقوم الجهاز المناعى للإنسان برفض هذه الخلايا وعدم التجاوب معها كما يحدث فى زراعة الأعضاء الآن والتى تستلزم تعاطى أدوية مكلفة طوال العمر لإضعاف المناعة. بالنسبة للحيوانات لم يتم حدوث أى رد فعل مناعى، وهناك بوادر ترجح احتمال ألا يقوم جسم الإنسان بطرد هذه الخلايا لأنها خلايا بدائية قد لا يتعامل معها كجسم غريب.

ولكن العلماء يقومون بأبحاث كثيرة حاليًا لإيجاد طرق للتصرف فى حالة نشاط الجهاز المناعى للإنسان ضد هذه الخلايا.

* وفى حالة ثبوت أن للخلايا الجذرية أو ناتجها من الخلايا النوعية نشاطًا مناعيًا، عندئذ يمكن تحديد فصائل الأنسجة الجذرية التى تنمو فى المعمل بحيث تنقل الأنسجة المتوافقة مع فصيلة أنسجة المريض ويمكن تجميد هذه الأنسجة فى المعمل وإنشاء بنك به جميع فصائل الأنسجة بحيث ينقل للمريض الفصيلة المناسبة عند الحاجة.

* يمكن باستخدام الهندسة الوراثية تغيير الجينات الموجودة داخل النسيج المعملى بحيث لا يحدث أى تفاعل مع جسم الإنسان أيًا كانت نوعية فصيلة الأنسجة، وفى هذه الحالة يمكن نقل هذا النسيج لأى مريض.

* استنساخ الخلايا من المريض نفسه، وذلك بأخذ بويضة من سيدة متبرعة حيث تفرغ من نواتها التى تحمل الصفات الوراثية لها ثم يتم دمج نواة من خلايا المريض تحمل صفاته الوراثية فى هذه البويضة المفرغة وتؤخذ الخلايا الجذرية من هذه البويضة الملقحة بعد انقسامها، وفى هذه الحالة تكون الخلايا الجذرية من إنتاج المريض، ولها كل صفاته الوراثية والمناعية، ثم يتم تطويرها إلى خلايا الكبد أو خلايا الجهاز العصبى ثم نقلها للمريض نفسه لعلاج العضو المصاب، وبذا لا يحدث طرد لهذه الأنسجة. هذه الطريقة بالرغم من أنها نظريًا ممكنة وبالرغم من نجاحها فى الحيوانات إلا أنه يبدو أن هناك فترة من الزمن ضرورية قبل التأكد من تطبيقها فى الإنسان، وذلك بعد التغلب على بعض الصعاب.

* تمكن العلماء من تطوير الجهاز المناعى للإنسان بحيث لا يقوم بإنتاج أجسام مضادة تؤدى إلى طرد الخلايا والأنسجة المزروعة وتتعايش معها وقد نجح ذلك فى بعض الحيوانات ومن المتوقع فى المستقبل أن يمكن تطبيقه على الإنسان.

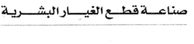
ما هى المخاطر والمضاعفات المحتملة لنقل الخلايا الجذرية للإنسان؟

الخطر الأول: هو رفض الجسم للخلايا وطردها، وقد ذكرنا الطرق المختلفة لمنع ذلك.

الخطر الثانى: هو أنه مثلاً عند نقل الخلايا العصبية للمخ قد يكون النسيج المنقول مختلطاً به بعض الخلايا الجذرية التى لم تتحول إلى خلايا عصبية وقد تبدأ هذه الخلايا الجذرية فى التحول لخلايا وأنسجة مختلفة كخلايا الكبد والأسنان مثلاً، مما يؤدى لحدوث ورم حميد من هذه الخلايا. ويمكن تفادى هذه المشكلة باستخدام خلايا جذرية قد تمت معالجتها بالجينات بحيث يمكن تدميرها فى حالة تحولها إلى أورام بواسطة أدوية معينة، ويمكن أيضًا تطوير بعض الخلايا المتخصصة بحيث تكون لها القدرة على تدمير هذه الخلايا حيث تنقسم لتكوين هذه الأورام.

وبالرغم من أن العلاج بالخلايا الجذرية لايزال فى دوره التجريبى، إلا أنه يستخدم فى علاج السرطان حاليًا فى الإنسان، فبعد أخذ جرعات كبيرة بالعلاج الكيميائى يتم قتل جميع خلايا السرطان، ولكنها أيضًا تقتل الخلايا الحيّة المهمة وأكثرها حساسية هى خلايا النخاع والتى تنتج كرات الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية. وقد تمكن العلماء فى هذه الحالات من حقن هذه الخلايا الجذرية داخل النخاع لتبدأ دورة جديدة وتظهر الكرات الحمراء والبيضاء ويعود إنتاج الدم لطبيعته بعد زراعة النخاع، وهذه العملية تجرى بنجاح منذ عدة أعوام.

وقد تم حديثًا استخلاص خلايا جذرية من أجزاء الجسم المكتمل فى الإنسان والحيوان مثل النخاع وأمكن تحويل هذه الخلايا إلى خلايا الكبد والأمعاء والجلد. وفى الفئران تم إصلاح نسيج القلب وأوعيته الدموية باستخدام الخلايا الجذرية المستخرجة من فار بالغ وتم بنجاح أيضًا تكوين خلايا الكبد وخلايا العضلات، ويعطى هذا أملاً فى علاج بعض الأمراض الخطيرة



حلم أصبح حقيقة

كفشل الكبد أو الكلى وكذلك ضمور العضلات فى الإنسان.

وقد أمكن علاج اثنى عشر مريضًا عندهم شلل بسبب جلطة فى المخ باستخدام الخلايا الجذرية التى تم تحويلها إلى خلايا الجهاز العصبى وحدث تحسن ملموس فى هذه الحالات. وفى مثال آخر أمكن أيضًا تغطية جزء من الجلد تمت إزالته بسبب وجود أورام أو حروق وكان ذلك بواسطة جلد مصنَّع من الخلايا الجذرية فى المعمل، وتم ذلك بنجاح كامل فى حالتين. وحدث أيضًا بعض التقدم فى علاج مرض الروماتويد ومرض الذئبة الحمراء بواسطة الخلايا الجذرية المستخدمة من نخاع المريض.

الرأى الأخلاقى والدينى:

كان رد الفعل للهيئات والجمعيات الدينية فى العالم يشوبه الحذر والتمزق بين وجهتى نظر، الأولى تقول أن الأديان جميعها تحض على المسئولية الأخلاقية فى شفاء المرضى وإزالة آلامهم ومتاعبهم، وبالتالى كان عليها أن تشجع هذا الكشف العظيم لتكتمل أبحاثه ويمكن استخدامه للبشر بفاعلية حيث يشفى مريض السكر والشلل والسرطان وروماتيزم المفاصل وغيرها. غير أن هذه الهيئات الدينية أيضًا ممزقة بين هذه الفوائد العظيمة وبين الموافقة على استخدام الخلايا الجذرية المستخلصة من الأجنة البشرية الفائضة من حالات أطفال الأنابيب أو من حالات الإجهاض فى الأسابيع الأولى من الحمل.

وتشجيع هذه الأبحاث يحمل قيمة كبيرة فى تحسين فرص رعاية الإنسان والمحافظة على صحته، وفى نفس الوقت يعطى الضوء الأخضر للعلماء بأهمية حرية البحث العلمى، وأن ذلك لا يتعارض مع الآراء الفلسفية والدينية المختلفة.

وجاء التقرير المشترك للجمعية الأمريكية للتقدم العلمى ومعهد المجتمع المدنى ليؤكد أن البحث العلمى فى مشروع الخلايا الجذرية له آثار مستقبلية مهمة فى علوم البيولوجيا، وسوف يعطى فرصة لعلاج أمراض مزمنة ليس لها علاج ناجح فى الوقت الحالى. ومن الصعب فى الوقت الحالى التكهن بمدى فائدة العلاج بالخلايا الجذرية على المجتمع ولكننا قد رأينا كيف أنقذت الملايين من الأرواح باكتشاف التطعيم ضد الجدرى مثلاً. وقد يكون للعلاج بالخلايا الجذرية أثر مماثل على الحياة البشرية فى المستقبل.

وناشدت الهيئة وسائل الإعلام بأن تقوم بعمل حملة إعلامية تثقيفية للمهتمين من الشعب عن المشروعات البحثية للخلايا الجذرية وفائدتها المستقبلية حتى يتكون رأى عام شعبى يؤيدها من جمهور عريض من الشعب.

ومن المعروف أن أى تكنولوجيا حديثة دائمًا ما تثير قلقًا وخوفًا على المجتمع من أن هذا التقدم العلمى قد يؤثر على الحياة وقد تكون له أضرار على الحياة الاجتماعية والأخلاقية. ولابد من وجود فئة من العلماء والمثقفين تكون عندهم نظرة مستقبلية ثاقبة تنظر إلى الأمام وإلى الفائدة الحقيقية للمجتمع بعد إدخال هذه التكنولوجيا. وطالبت هذه الهيئة الحكومة الأمريكية بإعادة النظر فى القرار السابق بمنع تمويل أبحاث الخلايا الجذرية لأن ذلك سيؤدى إلى تقدم أسرع فى هذا المجال.

ومن المعروف أن هناك قطاعًا من المجتمع الأمريكى محافظ بدرجة شديدة ولا يوافق على بعض أنواع هذه الأبحاث ولكن المهم هو رأى القطاع الأكبر من الشعب.

وبالرغم من القيود المفروضة من الحكومة الأمريكية الفيدرالية بمنع التمويل إلا أن ذلك لم يمنع المؤسسات والجامعات والشركات الخاصة من تمويل هذه الأبحاث. حتى نجح الدكتور جيمس واطسون من جامعة وسكنسن فى عام ١٩٨٨ فى إنتاج أول مزرعة للخلايا الجذرية. وقد قررت اللجنة الصحية فى مجلس النواب الأمريكى الموافقة على إمكانية تمويل أبحاث الخلايا الجذرية فى يناير ٢٠٠١.

وفى ٩ أغسطس عام ٢٠٠١ قرر الرئيس الأمريكى بوش إلغاء القرار السابق بمنع تمويل الأبحاث فى مجال الخلايا الجذرية والموافقة على تمويل الأبحاث من الأموال الفيدرالية. وقد جاء هذا القرار مخالفًا لوعوده خلال الحملة الانتخابية بعدم تمويل هذه الأبحاث تحت ضغط اليمين الأمريكى المحافظ الذى يؤيده.

وقد كانت الموافقة على التمويل الفيدرالى لهذه الأبحاث نتيجة لشعور أمريكا بأنها قد تصبح خارج المنافسة فى هذا المجال الحيوى والذى عند حدوث طفرات فى العلاج به سيكون له عائد رأسمالى ضخم يصل إلى مئات المليارات من الدولارات ولا يمكن أن تسمح أمريكا لأوروبا وبعض الدول الأخرى بالانفراد بهذه السوق المستقبلية المحتملة. وقد قال بوش مفسرًا قراره بأن الأجنة المجمدة التى أُخذت من الخلايا الجذرية لم تكن تستعمل على أية حال، وهل من الأخلاق ألا نستخدمها فى أبحاث تفيد الإنسان؟ وكخطوة أولى قدم ٢٥٠ مليون دولار للبحث العلمى فى مجال الخلايا الجذرية.

ويبدو أن هناك اتجاهًا عامًا فى العالم لتشجيع البحوث فى هذا المجال وأن الشعب والحكومات ورجال الدين الذين أصبحوا أكثر تفهمًا لوجهة نظر العلماء التى تقول بأن هذه الأبحاث لا تتعارض مع فلسفة الأديان بل هى الاتجاه الصحيح فى الطريق المهم لمساعدة الإنسان وعلاجه. ■



دلائل الإعجاز

فى الكلام على من زهد فى رواية الشعر

من زعم أن ذمَّهُ للشعر من أجل ما يَجِدُ فيه من هَزْل وسُخْف وكذب وباطل، فينبغى أن يَذُمَّ الكلامَ كُلَّه، وأن يُفَضِّلَ الخَرَسَ على النُّطْق، والعيَّ على البيان. فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه، والذى زَعَم أن ذَمَّ الشعر من أجله وعاداه بسببه فيه أكثَرُ، لأن الشعراء فى كل عصر وزمان معدودون، والعامَّة ومن لا يقول الشعر من الخاصة عَدِيدُ الرمل. ونحن نعلم أن لو كان منثور الكلام يُجمَعُ كما يُجْمَع المنظوم، ثم عَمَدَ عامدٌ فجمع ما قيل من جنس الهزل والسخف نثرًا فى عصر واحد، لأربَى على جميع ما قاله الشعراءُ نظمًا فى الأزمان الكثيرة، ولغَمَرَه حتى لا يظهر فيه. ثم إنَّك لو لم تَرْوِ من هذا الضرب شيئًا قطُّ، ولا تحفظ إلا الجِدَّ المَحْضَ، وإلا مَا لا مَعَاب عليك فى روايته، وفى المحاضَرة به، وفى نسخه وتَدْوينه، لكان فى ذلك غنى ومَندوحةٌ، ولَوَجَدْتَ طلبتك ونلْتَ مُرادك، وحصل لك ما نحن ندعوك إليه من علم الفصاحة، فاختَرْ لنفسك، ودع ما تكرَهُ إلى ما تُحب. هذا، وراوى الشعر حَاك، وليس على الحاكى عَيْبٌ، ولا عليه تَبِعةٌ، إذا هو لم يَقْصِد بحكايته أن ينصر باطلاً، أو يسوء مُسْلمًا، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار. فانظر إلى الغرض الذى له رُوِى الشعر، ومن أجله أُرِيدَ، وله دُوِّن، تَعْلَمْ أنك قد زُغْتَ عن المنهج، وأنك مُسِيءٌ فى هذه العداوة، وهو العصبية منك على الشعر. وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفُحْشُ، وفيها ذكْرُ الفعل القبيح، ثم لم يَعِبهم ذلك، إذ كانوا لم يَقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يُريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله.



المشهد الأمريكى فى أستراليا

محمد يوسف عدس

في يوم الثلاثاء الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، نقلت شاشات التليفزيون إلى الناس فى كل ركن من أركان الأرض اثنتى عشرة ساعة من دراما مذهلة مروِّعة، وصفها أحد الكُتّاب الأستراليين بأنها أقرب إلى سيناريو يوم القيامة، وقال آخر: «كأن قوة عظمى شنت هجوماً نووياً مفاجئاً على الولايات المتحدة».

فجّرت الواقعة زلزالاً من الهلع والاضطراب انداح من مركزه فى نيويورك إلى كل شبر فى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى العالم كله.. حتى «أستراليا» تلك الجزيرة / القارة.

وتمثلت ذروة هذا السيناريو بصورة نشرتها صحيفة «كانبرا تايمز» الأسترالية على صدر الصفحة الأولى تحت عنوان كبير: «صناعة رئيس»، أما الصورة فكانت لجورج دبليو بوش يعتلى كومة من أنقاض مركز التجارة العالمى رافعًا بيده العلم الأمريكى وحوله عمال الإنقاذ، وكانت خلاصة الكلام المنشور والتحليلات المصاحبة له أن جورج دبليو بوش ارتفع بين عشية وضحاها من رئيس عادى فاز فى انتخابات الرئاسة بحفنة من الأصوات ثار حولها جدل كبير، إلى رئيس حقيقي وزعيم لشعبه وقائد فذ يوشك أن يقود الأمة فى معركة ضد أعدائها، وهو أمر لم يكن بوش نفسه يتوقعه أو يحلم به.. تقول الصحيفة إن هذا الانطلاق الصاروخى للرئيس بوش صنعته - فى حقيقة الأمر - هذه الأنقاض التى كان يعتليها.



ونشير هنا إلى عوامل بعينها جعلت تأثير الفجيعة الأمريكية على الشعب الأسترالى ربما أقوى منه فى أى مكان آخر.. من أهم هذه العوامل أربعة:

الأول: الكتلة السكانية الأساسية للشعب الأسترالى تتألف من العنصر الأنجلوساكسونى، ويتوزع الانتماء الدينى فى أستراليا بين الكنيستين الرئيسيتين الأنجليكانية والكاثوليكية، ومن ثم يشترك الأستراليون والأمريكيون فى أصول عرقية ودينية وثقافية واحدة.

الثانى: صحيح أن أستراليا لاتزال تتبع من الناحية السياسية للتاج البريطانى، فالملكة إليزابيث هى ملكة أستراليا ويمثلها الحاكم العام فى كانبرا، إلا أن الشعب الاسترالى يرى أن نموذج الحياة الأمريكية مثله الأعلى الذى يحاول أن يحتذيه.

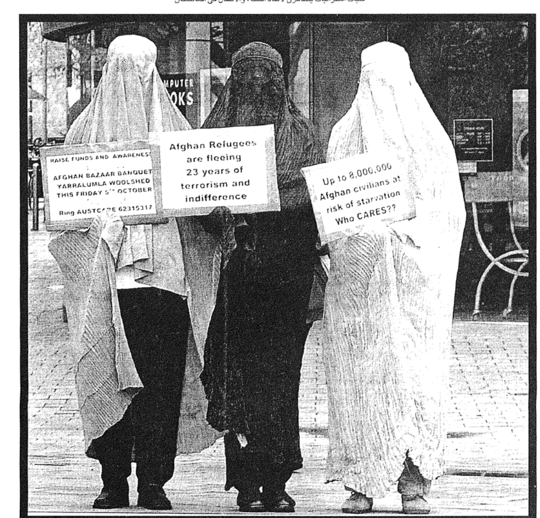
الثالث: تعرضت أستراليا فى الحرب العالمية الثانية لخطر الهجوم اليابانى الذى اكتسح فى زحفه على جنوب شرق آسيا جيوش الإمبراطورية البريطانية، والقوات المسلحة الأمريكية التى كانت تحتل جزر الفلبين المستعمرة الأمريكية الوحيدة فى هذه المنطقة.

وعندما لاذت بريطانيا بالفرار شعرت أستراليا بأنها فى مهب الريح أمام عدو كاسح لا قبل لها به، ولكن سرعان ما عاد الجنرال الأمريكى مكارثر ليضع قدمه فى أستراليا كخطوة أولى فى طريق زحفه إلى الفلبين ومنها إلى اليابان نفسها، وبذلك تحررت أستراليا من الخطر اليابانى.

ومن ثم لا ينسى الأستراليون هذا التاريخ ولاهذا الفضل للقوات الأمريكية المنقذة.

الرابع: تُعانى أستراليا من عقدة كامنة، فالشعب الأسترالى يشعر بانتمائه العرقى والثقافى للغرب ولكن يجد نفسه - جغرافيًا - فى قلب شعوب آسيوية ملونة، وهذا مصدر خوف دفين يتغلغل إلى الأعماق، خصوصاً أن أستراليا تشعر أنها محط أطماع إقليمية من جانب جيرانها الأقربين مثل إندونيسيا وجيرانها الأبعدين مثل الصين واليابان. وكذلك كانت أستراليا - ولاتزال - عبر تاريخ سياستها

فتيات استراليات يتظاهرن لانقاذ النساء والأطفال فى أفغانستان



الخارجية تتأرجح بين قطبين: الانتماء الغربي والانتماء الآسيوي الجغرافي.

كان الانتماء الجغرافي يتغلب أحيانًا في السياسة الخارجية خصوصًا تحت الحكومات العمالية وكان يتزعم هذا الاتجاه «جوف ويتلام» رئيس الوزراء الأسبق الذى كانت له مشروعات تعاون مشهورة فى المنطقة، وكانت له صداقات قوية مع رؤساء دول جنوب شرق آسيا، وعلى النقيض منه تماماً «جون هوارد» رئيس الحكومة الحالية المحافظة، الذى أحدث بسياسته وتدخله العسكرى فى جزيرة تيمور شرخًا داميًا بين أستراليا وإندونيسيا، حيث رفضت ميجاواتي سوكارنو استضافته فى بلادها، بل أهملت الرد على رسائله إليها بشأن المهاجرين من طالبى اللجوء السياسى، وكان يأمل فى مساعدتها لوقف تدفق اللاجئين.

وبشيء من التحليل سنرى أن الوجود الأسترالي فى تيمور الشرقية لا يعبر عن طموحات أسترالية إقليمية بقدر ما يعبر عن دعم الولايات المتحدة ورغبتها فى انفصال تيمور الشرقية وإيجاد موضع قدم لها هناك من خلال حليفتها الأسترالية، أما لماذا تريد الولايات المتحدة موضع قدم لها فى هذه المنطقة بالذات وهو وضع يؤدى إلى إضعاف أى حكومة فى جاكرتا، وهى تواجه مشكلات اقتصادية وسياسية وأمنية متفاقمة قد تنتهى بتفكيك هذه الدولة؟ فذلك أمر يحتاج إلى دراسة مستقلة.

المهم هنا هو أن أستراليا لم تكن لتشعر بالأمن فى هذا الموقع الجغرافي الصعب بسواحلها المفتوحة على البحار ممتدة لآلاف الأميال، وبكتلتها السكانية الصغيرة التى لم تبلغ بعد العشرين مليونًا، لم تكن لتشعر بالأمن إلا فى ظل القوة الأعظم على هذا الكوكب وهى الولايات المتحدة الأمريكية، لا تنس أننا عندما نتحدث عن أستراليا فإننا نتحدث عن قارة واسعة الأرجاء تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع أى أقل بقليل من مساحة القارة الأوروبية.



ربما يفسر لنا هذا الوضع: لماذا أسرع جون هوارد بإعلان التزامه بمساندة الولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب، قبل أن تطلب منه شيئاً بل قبل أن يعلن حلف الأطلنطى نفسه موقفه من الهجوم على نيويورك وواشنطن.

تصادف أن كان جون هوارد فى زيارة رسمية لواشنطن وشاهد بنفسه الانفجار الذى أصاب البنتاجون، وكان على موعد فى يوم ١٢ سبتمبر للقاء الرئيس بوش فى مهمة محددة تتعلق برغبة حكومته أن تخفض الولايات المتحدة دعمها السخى لزراع القمح الأمريكيين، لأن هذا الدعم يضعف قدرة الزراع الأستراليين فى المنافسة بالأسواق العالمية.

لم يتمكن جون هوارد من لقاء بوش ولم يستطع العودة إلى بلاده، فاضطر للبقاء فى واشنطن حتى وفرت الحكومة الأمريكية طائرة عسكرية لتقله إلى بلاده حيث كان الطيران فى ذلك الوقت محظوراً فى الأجواء الأمريكية.

وحتى عندما عاد مرة أخرى إلى واشنطن لم يتمكن من عرض قضية القمح على الرئيس بوش، وإنما اكتفى بتقديم العزاء وأكد وعده بالتزام بلاده بالدعم العسكرى لواشنطن فى حربها ضد الإرهاب، وكان حريصاً لدى رجوعه إلى كانبرا أن يجمع مجلس الوزراء ثم البرلمان فى اجتماعين طارئين ليحصل على موافقة الحكومة والبرلمان فى الوفاء بوعده للولايات المتحدة.

هاجس الهجرة الملونة:

على رأس ثلاث قضايا شغلت الإعلام الأسترالي قبل حادثة ١١ سبتمبر مباشرة.. كانت مشكلة المهاجرين غير القانونيين من طلاب اللجوء السياسي، الذين يأتون إلى الشواطئ الأسترالية فى قوارب تنطلق من إندونيسيا وغالبيتهم من الأفغان والعراقيين، أمام هذه الموجة من قوارب اللاجئين فكان موقف الحكومة الأسترالية متصلبًا رافضًا لاستقبال هذه القوارب مع استخدام القوة إذا لزم الأمر، وقد صاحب ذلك حملة إعلامية شرسة ضد الهجرة والمهاجرين العرب والمسلمين بصفة خاصة.

القضية الثانية تدور حول الاستعداد لحملة انتخابية فيدرالية وانتخابات محلية خاصة بحكومة كانبرا.

أما القضية الثالثة فتتعلق بمشكلة انهيار شركة طيران «أنست» المفاجئ وتشريد آلاف العاملين بها، وهى شركة ملكيتها موزعة بين كل من أستراليا ونيوزيلندا.

اعتاد الأستراليون أن ينظروا إلى هجرة الملونين إلى بلادهم باعتبارها خطراً طالما أرّق قياداتهم السياسية منذ زمن بعيد. من أجل هذا صدرت قوانين أستراليا البيضاء فى الماضى لتكون حاجزاً مانعاً لتدفق الهجرة الملونة، ولكن اضطرت الحكومة الأسترالية لإلغاء هذه القوانين العنصرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا من الناحية الرسمية. أما على مستوى المنفذين فى الإدارات المعنية وفى القنصليات الأسترالية التى تقوم باستقبال الطلبات والرد عليها فقد بقيت الآثار النفسية والاجتماعية بظلالها الكثيفة على الموقف.

تعانى أستراليا من عقدة كامنة، فالشعب الأسترالي يشعر بانتمائه العرقى والثقافى للغرب ولكن يجد نفسه - جغرافياً - فى قلب شعوب آسيوية ملونة، وهذا مصدر خوف دفين يتغلغل إلى الأعماق



كانت الحاجة الملحة إلى عناصر معينة من المهاجرين هى التى تفتح باب الهجرة اضطرارًا للملونين وللمسلمين منهم خاصة. فمثلاً حدث أن توسعت أستراليا فى التعليم العام توسعًا هائلاً خلال عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ولأن مصادرها المفضلة فى القارة الأوروبية لم توفر لها العدد الكافى من المدرسين اضطرت أستراليا لفتح الباب قليلاً أمام المهاجرين المتخرجين من الجامعات فى الشرق الأوسط، وأنشأت لهم برامج التأهيل التربوى على أوسع نطاق. وحدث انفتاح اضطرارى آخر بعد انتهاء حرب فيتنام، حيث تدفقت قوارب اللاجئين من أبناء فيتنام الجنوبية الذين وقفوا مع الولايات المتحدة فى حربها ضد الفيتكونج وكان لزامًا على الولايات المتحدة وحلفائها أن توفر لهم المأوى.

وترجع حساسية أستراليا من أمثال هؤلاء المهاجرين الملونين إلى حقائق موضوعية؛ فعدد سكانها قليل كما ذكرنا حيث لا يصل عددهم إلى عشرين مليون نسمة بينما يمكن لهذه القارة باتساع أراضيها ووفرة ثرواتها الطبيعية أن تستوعب أكثر من مائة مليون نسمة، ولكن العنصر الأنجلوساكسوني أو الأبيض الذى يسيطر على مقدرات أستراليا وسياستها يخشى أن يتحول إلى أقلية صغيرة تابعة، فى بحر من العناصر الصفراء والسوداء بأطيافها ودرجاتها المتنوعة، وبذلك يفقد المجتمع الأسترالي الأبيض سيطرته وتتلاشى ثقافته وهويته.

ولعل هذا يكمن وراء تشبث الأغلبية الأسترالية البيضاء بتبعية أستراليا للتاج البريطاني إلى آخر رمق فيه.

وقد ظن «بول كيتنج» رئيس الوزراء العمالي السابق أنه قد آن الأوان لانفصال أستراليا عن التاج البريطاني، وكان مقررًا إجراء استفتاء عام - سنة ٢٠٠٠م بهذا الخصوص، ولكن عندما حل موعد الاستفتاء كان بول كيتنج خارج السلطة، فجرى تحت حكومة المحافظين برئاسة جون هوارد، وكان معارضاً للانفصال فشن حملة دعائية ناجحة ضده وبذلك أجهض محاولة بول كيتنج.

لم يتعلم بول كيتنج من الدرس القاسى الذى تلقاه سلفه الكبير «جوف ويتلام» الذى كان له اتجاه انفصالي عن بريطانيا، ورغبة فى بناء سياسة مستقلة عن الولايات المتحدة فى آسيا وفى الشرق الأوسط، فتضافر عليه الجميع فى مؤامرة غير مسبوقة فى تاريخ أستراليا حيث أسقطت الحكومة المنتخبة وقام الحاكم العام بتعيين حكومة مؤقتة غير منتخبة من حزب المعارضة، وتلك قصة أخرى ليس هنا مجالها.

أردت أن أوضح أن لأستراليا خصوصيات تقليدية، وتكمن لديها هواجس تتعلق بالهجرة الملونة وعلى الأخص بالنسبة للمسلمين حتى قبل حادث ١١ سبتمبر.



وقد كان لهذه الهواجس حضور واضح إزاء السفينة الإندونيسية «تامبا» التى كانت تحمل على ظهرها أربعمائة مهاجر من أفغانستان والعراق، ولم تسمح لهم القوات الأسترالية بالاقتراب من شواطئها، واضطرتهم للنزول فى إحدى الجزر البعيدة رغم إرادتهم، ثم تلتها سفينة أخرى بدفعة من المهاجرين المسلمين غرقت بركابها أمام الشواطئ الأسترالية، وشاع وقتها أن قوات البحرية أطلقت عليها النار فاغرقتها، وهو أمر نفته الحكومة الأسترالية، وتبين - فيما بعد - وجود عدم تطابق بين تصريحات رئيس الوزراء بهذا الصدد وبين تقارير قائد القوات البحرية حيث أعلن أن سيناريو الحكومة لواقعة السفينة الغارقة ليس صحيحًا.

تفجر الغضب ضد العرب والمسلمين:

احتدت حملة الاضطهاد ضد العرب والمسلمين فى المدن الأسترالية بعد عرض مشاهد تليفزيونية لمجموعة من الفلسطينيين - قيل إنهم فى لبنان - وكانوا يرقصون ابتهاجًا بالهجوم الناجح على نيويورك وواشنطن كما ذكرت الأنباء، ولكن قيل بعد ذلك أن هذه المشاهد هى شريط فيديو (فبركته) إسرائيل أو استلته من سياق مختلف فى واقعة سابقة.

وأنا أميل إلى هذا الاعتقاد لأن لى تجربة شخصية فى الكشف عن تزييف إسرائيلي مماثل لأفلام وثائقية أهديتها إلى المكتبة الأسترالية الوطنية سنة ١٩٧٥م عن الحروب العربية الإسرائيلية، فقد لاحظت عند فحص فيلم عن حرب ١٩٧٣م أنه يحتوى على عدة أمتار منتزعة من فيلم قديم عن حرب ١٩٦٧م يظهر فيها عدد كبير من أسرى الجيش المصرى، وهذا لم يحدث فى حرب ١٩٧٣م.

كانت هناك أصابع خفية تدفع الإعلام فى طريق الكراهية والغضب ضد الإسلام والمسلمين لتشويههم وتشويه عقيدتهم الدينية.. وهذا نموذج لما سمعته بأذنى: فى أحد المطاعم بمدينة ملبورن جلس مجموعة من الأستراليين لتناول العشاء، وكان الحديث عن المسلمين وما يفعلون وما يأكلون.. سأل أحدهم: لماذا لا يأكل المسلمون لحم الخنزير؟ وكانت الإجابات المبدئية بعض تعليقات ساخرة، ولكن تطوع النادل الأنيق المثقف بالإجابة الجادة حيث قال: «إن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم يعبدون الخنازير تماماً مثل الهندوس لا يأكلون البقر لأنهم يعبدون البقر».. وهى إجابة منطقية ومقنعة جلبت كثيرًا من الرضا والاستحسان، فلا غرابة أن يتورط أناس على هذا القدر من الجهل بالإسلام والمسلمين فى أعمال عنف ضدهم.

محاولات لتطويق طوفان الغضب:

كان لابد من محاولات جادة لوضع حد للعنف والاضطهاد والإهانات التى يتعرض لها المسلمون فى الشوارع حتى إن بعضهم وعلى الأخص الأطفال والمحجبات لزم البيوت فلم يبرحوها.

وفى هذا الصدد خرجت القيادات الدينية تنبه إلى هذا الخطر المتفاقم، ففى ولاية «كوينزلاند» أكثر الولايات الأسترالية عنصرية وتعصبًا خرج «سلطان دين» رئيس المجلس الإسلامي بالولاية يستغيث بالقيادات السياسية وبالحكماء والعقلاء أن يفعلوا شيئاً لكبح جماح العابثين المخربين، وحماية المسلمين الأستراليين، الذين لا ذنب لهم ولا علاقة لهم بالحادث المشئوم فى الولايات المتحدة. قال «سلطان دين» فى نداء له على التليفزيون بثته جميع القنوات: «إن المسلمين الأستراليين يتعرضون لإهانات واضطهادات فى الشوارع ويتلقون فى بيوتهم تهديدات بالقتل عبر الهاتف.. ونصح المسلمين أن يتجنبوا المناقشات مع السكان المحليين».

أما فى سيدنى عاصمة ولاية «نيوثوس ويلز» فقد أمّ الشيخ الهلالى مفتى أستراليا صلاة جامعة فى مسجد «لاكمبا» من أجل السلام وأدان العدوان على المدنيين الأبرياء.

ولما تعددت حوادث الاعتداء على الأطفال المسلمين فى المدارس من قرنائهم المسيحيين توجّه الأسقف «جورج بل» رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى «سان مارى» بموعظة خاصة بهذا الشأن، نصح فيها التلاميذ المسيحيين ألا يضعوا اللوم على قرنائهم المسلمين لشىء حدث فى نيويورك وواشنطن لا ذنب لهم فيه.

لكن حملة التخريب والاضطهاد مضت فى طريقها لتمتص الغضب والكراهية المخزونين فى الأنفس، حيث تم إحراق مساجد فى مدن عدّة وتعرضت النساء والمحجبات فى شوارع سيدنى للإهانة والضرب وتمزيق الملابس، ولم تنج حتى الكنائس التى ترفع الصلبان على مبانيها من هجمات الرعاع الذين أحرقوا بعضها لمجرد أنهم رأوا المترددين عليها من جنس العرب، لا يهم بعد ذلك إن كانوا مسيحيين أو مسلمين.

اعتذر الرئيس بوش أو بالأحرى عدّل قليلاً من خطابه السياسى الذى أشعل النار فى قلوب الأمريكيين ضد المسلمين، فتجاوز عبارات «الحرب الصليبية» و«الإرهاب الإسلامى»، حيث أعلن أنه ليس ضد الإسلام والمسلمين وإنما هو ضد «الإرهاب».. والتقى مع قادة المسلمين وتناول معهم الإفطار فى رمضان المبارك.. شىء من التكتيك الإعلامى لا يضير القضية الأساسية!



انتقلت هذه (السُّنة) إلى أستراليا فقامت قيادات سياسية ودينية بزيارة بعض المساجد والتحدث إلى المسلمين فيها، ولكن القيادات العليا للأحزاب كانت منشغلة بالمعارك الانتخابية: فوجدنا زعيم المعارضة العمالى «كيم بيزلى» يحث ما سماهم بالجماعة الإثنية أن يقوم أفراد منهم (وطنيون) بالتبليغ عن العناصر الإرهابية بينهم سواء فى أستراليا أم خارجها...!

أما «جون هوارد» رئيس الوزراء فقد اتخذ من الهجوم على أمريكا ذريعة للهجوم على اللاجئين فى القوارب مشيراً إلى احتمال وجود إرهابيين مدسوسين بينهم، وأكد وزير دفاعه «بيتر ريث» هذا المعنى حيث صرح بأنه «من الممكن وجود إرهابيين بين طالبى اللجوء السياسى.. ولابد أن نحمى شواطئنا على أى حال ضماناً لأمن البلاد من الإرهابيين المتسللين»، وعندما سُئل هل يتوقع عمليات إرهابية فى أستراليا قال: «ينبغى أن نفكر فى المستحيلات فإن ما حدث فى الولايات المتحدة كان يعتبر فى عداد المستحيلات».

فى ٥ أكتوبر خرجت مسيرة كبيرة يتقدمها مجموعة من النساء يلبسن البرقة الأفغانية المشهورة، من جامعة أستراليا الوطنية متجهة إلى وسط العاصمة كانبرا، وذلك لإبراز معاناة المرأة الأفغانية.

ونظمت هذه المسيرة المؤسسة الخيرية «أوست كير» وقد صرح أحد قادة المؤسسة هو «وليام مالى» تعليقًا على الغرض من المسيرة فقال: «نأمل أن يفكر سكان كانبرا مليًا فى الظروف القاسية التى يعانيها اللاجئون الأفغان فى معسكرات الاحتجاز فى أستراليا.. هؤلاء اللاجئون اضطروا اضطرارًا للهجرة من وطنهم وتمزقت أسرهم بسبب الحروب الأفغانية التى استمرت ثلاثة وعشرين عامًا بلا انقطاع».

وفى ٢٤ أكتوبر نشرت صحيفة الـ «أستراليان» صورة لامرأة عراقية فى حالة انهيار وبكاء على صفحتها الأولى، وفى الصفحات الداخلية نشرت قصتها المأساوية بالتفصيل، إنها «سندس إسماعيل» التى قدمت على سفينة اللاجئين سيئة الحظ، التى انشقت وغرقت فى المحيط أمام أعين القوات البحرية الأسترالية.. جاءت سندس مع بناتها الثلاث لتلحق بزوجها العراقى المقيم فى سيدنى، ولكنها مُنعت من الوصول إلى الشواطئ الأسترالية وغرق كل أطفالها.. وفى الصحيفة قصص أخرى حزينة تقطع نياط القلوب: قصة «فوز القاسم» الذى فقد كل شىء: زوجته وابنين وثلاث بنات. وقصة «أمل حسن» التى فقدت خمسة هم كل أسرتها تقول: «رأيت عشرات الأطفال يموتون غرقًا أمام عينى ولا أستطيع عمل شىء لإنقاذهم لأننى كنت أقاوم خطر الغرق الذى أحاط بى.. ولن أنسى ماحييت منظر طفلة فى الخامسة من عمرها تقول لأبيها وهى تغرق إذا متُّ هنا فلا تتركنى فى البحر.. ثم جرفها التيار واختفت إلى الأبد».



يعلق الصحفى إيان هندرسون على مأساة اللاجئين الغرقى فيقول: «إن سياسة الحكومة إزاء هذا الحادث المروع سياسة بشعة».

ولا يكتفى الساسة بذلك بل يتخذون من المأساة ورقة يلعب بها كل حزب فى حملته الانتخابية تملقًا لمشاعر الناخبين، ويتفقون جميعًا على أمر واحد وهو أن الذنب ليس فى أستراليا وإنما عند الذين ساعدوا على تهريب اللاجئين من إندونيسيا وباكستان.. خدعوهم وحملوهم على قوارب غير صالحة للملاحة.

لعب الإعلام دورًا خطيرًا فى إثارة مشاعر الكراهية الدفينة فى نفوس الناس، وقدم التليفزيون للمشاهدين أناسًا سماهم بالخبراء والمتخصصين: هذا فى الإرهاب وذاك فى الحضارات الشرق أوسطية وآخر فى التاريخ الإسلامى، أكثرهم من اليهود والصهاينة، كلهم بدون استثناء كانوا يؤكدون صراحة أو تلميحًا أن المسألة ليست مسألة جماعات متطرفة اتخذت الإرهاب أسلوبًا لعملها وإنما تكمن المشكلة فى الإسلام نفسه عقيدة وفكرًا، فهو عقيدة لا تعرف غير الاستئصال لمخالفيها.

سلمان رشدى:

نشرت الـ «إيدج» الصادرة فى ملبورن يوم ٦ نوفمبر ٢٠٠١م مقالاً لسلمان رشدى بعنوان: «هذه الحرب هى حول الإسلام»! يرفض فيها حتى اتجاهات المعتدلين من أصحاب النظرة البراجماتية، الذين ينصحون الساسة الأمريكيين بألا يعلنوا أن الإرهاب والإسلام متلازمان إذا أرادت أن تحافظ على تحالفها مع الدول المسلمة فى حربها على الإرهاب. يقول سلمان رشدى إنهم مخطئون فالتلازم قائم بين الإرهاب والإسلام، ثم يورد عشرات الأمثلة كما فعل صامويل هانتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات» وهو فى أمثلته يعتسف ويحرّف الحقائق مثل هانتنجتون ويبالغ فى دلالات الأحداث والوقائع مستهدفًا التحريض السافر.

هذه بعض أمثلة سلمان رشدى يسوقها على شكل أسئلة استنكارية:

- فيم هذه الاحتفالات التى عمت البلاد الإسلامية بالجرائم الإرهابية التى ارتكبها بن لادن والقاعدة؟
- ولم يتظاهر عشرة آلاف باكستانى على الحدود الأفغانية يشهرون سيوفهم ويقودهم الملالى (رجال الدين).. يصرخون الجهاد.. الجهاد؟!
- لماذا يقاتل بريطانيون مسلمون فى صفوف طالبان؟!
- لماذا كل هذا العداء للسامية من جانب المسلمين الذين يحاولون إلصاق تهمة التفجيرات فى حادثة ١١ سبتمبر باليهود، بدعوى أن المسلمين ليست لديهم تكنولوجيا متقدمة ولا منظمات على هذه الدرجة من القوة والإحكام؟
- ولماذا ينصح قادة القاعدة المسلمين ألا يسكنوا الأبراج المرتفعة فى أمريكا حتى لا تصيبهم الطائرات الجهادية القادمة؟
- وفيم الحديث عن تلويث القوات الأمريكية الكافرة للأراضى المقدسة فى السعودية؟ وما هذه القداسة التى يزعمون؟!

يستخلص سلمان رشدى من أمثلته أن المسلمين يحيط بثقافاتهم ركام من تقاليد عتيقة وأفكار بالية وتعصبات ولّدت عندهم أفكارًا متدنية عن المرأة وشاعت لديهم مواعظ شيوخ يكفرون الموسيقى والجنس والشرك، ويبثون الكراهية والاحتقار لأسلوب الحياة الغربية، وظهرت عندهم خلال العقود الثلاثة الماضية جماعات تتغذى على هذه الأفكار وتنشر الإرهاب فى العالم.

ويرى سلمان رشدى أن هزيمة الإرهاب لن تتحقق فى النهاية إلا بأن تأخذ الأنظمة الحاكمة فى الدول المسلمة بالمبدأ العلمانى.. كأنه كان يتنبأ بالأجندة الأمريكية لإعادة تشكيل المجتمعات المسلمة على غرار النموذج التركى الفذ..!، (لاحظ أن سلمان رشدى يمجد الشرك بالله باعتباره من حسنات الحضارة الغربية)!

وفى هذا يبدو «فوكوياما» نفسه أقل تطرفًا من سلمان رشدى، حيث صرح مؤخرًا بأن الصراع الحالى ليس ضد الإسلام كدين بل ضد الفاشية الإسلامية، وليس حرب الغرب ضد الإسلام.

بل إن هناك تقارير صحفية وتحليلات لكتّاب يهود أقرب إلى الاعتدال والتوازن من كلام سلمان رشدى الذى يقطر حقدًا على الإسلام والمسلمين.. فهذا «أبراهام رالونوفيتش» يكتب عن القدس لصحيفة الـ«أستراليان» فى ١٤ سبتمبر ص٦ يتحدث عن مشاهداته لردود الأفعال فى بلاد الشرق الأوسط، حيث ينقل على لسان أشخاص قابلهم هناك يقولون: لقد حصدت الولايات المتحدة ما تستحقه بسبب مواقفها الداعمة للإرهاب الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطينى..، ويذكر رالونوفيتش أن النغمة السائدة على لسان رجل الشارع فى البلاد العربية أنه كان على الولايات المتحدة أن تضغط على إسرائيل لوقف حربها ضد الفلسطينيين.. بل يبرز رالونوفيتش فى تقريره صورة لنموذج عربى أكثر تعاطفًا وولاءً للولايات المتحدة وجده فى الكويت، فقد ألقت حكومة الكويت القبض على عشرين فلسطينيًا قاموا بتوزيع الحلوى على الجيران احتفالاً بالهجوم على أمريكا، كما ينقل تصريحًا لأحد كبار رجال الأمن الكويتى قال فيه: «إننا لا يمكن أن نسمح بمثل هذه الاحتفالات على أرضنا.. نحن ضد الإرهاب ونتعاطف مع الشعب الأمريكى فى محنته».

فى هذا السياق نذكر الصحفى «جون بيرنز» الذى كتب لصحيفة «صن داى هيرالد» فى ١٧ سبتمبر تحت عنوان لماذا تولّد أمريكا عند الناس هذا المزيج من الحب والكراهية، يحدد فيه أسباب الغضب عند الشعوب العربية فى أربع نقاط:

- دعمها المتواصل لإسرائيل ضد الشعب الفلسطينى.
- وجود قواتها المسلحة فى الأراضى المقدسة بالسعودية والخليج.
- حصار العراق إلى درجة الاختناق.
- تحالفها مع حكومات فى الشرق الأوسط وآسيا مشهورة بالفساد والطغيان.

وينتقل جون بيرنز ليحلل أسباب التعلق بالولايات المتحدة مشيرًا إلى طوابير الشبان الذين يقضون أيامًا مضنية واقفين فى طوابير أمام السفارات الأمريكية فى القاهرة وإسلام أباد وغيرها من العواصم، للحصول على تأشيرة الدخول إلى الجنة، فالولايات المتحدة بالنسبة لهؤلاء الشبان هى المكان الذى يمكن فيه أن ينعموا بالحرية التى حُرموا منها فى بلادهم، وهى المكان الذى يستطيع كل إنسان أن يحقق فيه أحلامه.

«جون هوارد» رئيس الحكومة الحالية المحافظة، أحدث بسياسته وتدخله العسكرى فى جزيرة تيمور شرخًا داميًا بين أستراليا وإندونيسيا، حيث رفضت ميجاواتى سوكارنو استضافته فى بلادها، بل أهملت الرد على رسائله إليها بشأن المهاجرين من طالبى اللجوء السياسى

أما «نورمان أبجوينسن» فلانه صهيوني يحاول تبرئة الولايات المتحدة وإسرائيل ويلقي باللوم كله على الأنظمة الحاكمة في الدول العربية والإسلامية، ويرى أن المآسي التي تعاني منها شعوب هذه الدول ترجع إلى أوضاع داخلية سيئة لا شأن للولايات المتحدة بها، فهذه الدول غير ديمقراطية ولا تعبأ بحقوق الإنسان لمواطنيها.. ويرى أن الحملة ضد إسرائيل غير عادلة ومن ثم يتجاهل الجرائم البشعة التي تقترفها كل يوم ضد الشعب الفلسطيني، محاولاً توجيه الأنظار إلى أسباب أخرى يفتعلها - مثل غيره - فيزعم أن العداء لإسرائيل إنما يرجع إلى كونها دولة ديمقراطية صغيرة في وسط شعوب متوحشة غير ديمقراطية.

لا يزال للعقل والحكمة مكان!

في خضم هذا السعار الإعلامي المتطرف هناك أصوات أخرى.

«جورج نيجوس» صحفي عريق بهيئة الإذاعة الأسترالية جاء إلى كانبرا في أواخر شهر سبتمبر ٢٠٠١م ليلقي كلمة الشرف بمناسبة افتتاح برنامج دراسي جديد عن العلاقات الدولية بجامعة أستراليا الوطنية، قال في كلمته: «إن فهم العالم الإسلامي وليس الانتقام هو الذي سيساعد على حل مشكلة الإرهاب على المدى البعيد.. لن يضمن الانتقام لنا توقف الإرهابيين عن الهجوم على أمريكا أو دول الغرب في المستقبل.. وما لم نعرف لماذا فعل هؤلاء الناس ما فعلوه فلن يكون هناك ضمانات ضد الإرهاب.. ربما يكون الانتقام مردودًا سريعًا، ولكن ليس هذا ضمانًا حقيقيًا بل ربما تولدت منه مواقف أشد تطرفًا وأكثر خطرًا»، ولأنه عاش فترة طويلة بين المجتمعات المسلمة يرى أن هناك جهلاً متبادلاً بين المسلمين والشعوب الغربية، ويعتقد أن ما يحتاجه الغرب هو علاقات دولية أفضل وليس الحرب، فإذا كان لا بد من الحرب فلتكن حربًا على الجهل، فالمعرفة والفهم هما أكبر علاج للإرهاب.

في هذا السياق يأتي الأستاذ «آلان بيشنس» وهو رئيس قسم الدراسات الآسيوية والدولية بجامعة فكتوريا (ملبورن)، ويعمل حاليًا أستاذًا زائرًا في الجامعة الوطنية بكانبرا. وهو يلفت النظر إلى حقيقة نفسية عميقة الجذور في الثقافة الأمريكية حيث يقول: الكثرة الغالبة من الأمريكيين ضحايا لأيديولوجية «القوة الأعظم» التي يعتقدون أنهم يملكونها، هذه القوة المتضخمة توحي إليهم أنهم دائمًا على حق وأن الملائكة دائمًا في جانبهم حيثما اتجهوا ومهما فعلوا.. حتى وهم يقومون باضطهاد الآخرين وقهرهم فيما يعتقدون أنه خدمة لبلادهم ومصالحها المقدسة. لذلك نراهم يفعلون أي شيء مهما كان بشعًا خدمة لمصالحهم ولو على حساب الكون كله».

ويطالب «بيشنس» بإنشاء مراكز نشطة في أنحاء العالم يدور فيها حوار جاد وحقيقي بين الحضارات، ويرى أن أستراليا - ربما تكون - أنسب بلاد العالم لأن تأخذ بالمبادرة في هذا المجال، فأستراليا بما تتمتع به من تعددية ثقافية أرض خصبة لهذا الحوار العالمي، تدعو فيه علماء الدين المسلمين والبوذيين والمسيحيين والكونفوشيين والهندوس واليهود، لرسم خريطة عامة يوضحون عليها القيم والمبادئ المشتركة السائدة في هذه الحضارات، فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان والمساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية... بهذا الفهم المشترك يمكننا أن ندفع إلى زوايا الإهمال والنسيان تلك الأيديولوجيات قصيرة النظر التي يتقوقع فيها بعض مجموعات من الناس منغلقين على أنفسهم، ويشير في هذا الصدد إلى رأي الأستاذ الصيني «وانج جنج فو» (وهو مؤرخ عالمي) في نبوءة صامويل هانتنجتون «صدام الحضارات» حيث يقول: «إن خطورة هذه النبوءة تتمثل في أنها يمكن أن تحقق نفسها.. وأن تأخذ من حادثة مركز التجارة الدولي بداية لذلك».

ماذا قال الخبراء العسكريون؟

الحرب على الإرهاب العالمي وما قيل عنها من أنها نوع جديد من الحرب، فما حقيقة هذه الحرب وما قيمتها وفاعليتها؟

لهذا الغرض التقت مجموعة من الخبراء العسكريين الدوليين جاءوا من بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ليتناقشوا في مؤتمر بكانبرا حول هذا الموضوع خلال شهر أكتوبر. وقد انقسم خبراء استراتيجيات الحرب إلى فريقين أو مدرستين مختلفتين إلى حد التصادم في بعض القضايا.

لقد وافق الجميع تقريبًا على استخدام نوع من القوة العسكرية في بعض المراحل ولكن بقي السؤال قائمًا: هل الحملة العسكرية وحدها تكفي لوقف الإرهاب؟ في الإجابة عن هذا السؤال اختلفت المواقف.. يقول «رالف بيتر» الخبير العسكري الأمريكي قائد الجناح المتطرف في المؤتمر: «كثير من الناس في هذا العالم يحسدون الولايات المتحدة ويحقدون عليها حقدًا شديدًا، وهم يعلمون أنهم لن ينجحوا أبدًا في النيل منها، إلى الحد الذي يشلهم عن التفكير في مهاجمتنا».

منطق رالف بيتر كما صرح بنفسه قائم على افتراض أن أولئك الإرهابيين ومن يدعمهم لن يشفي غليلهم شيء ولن يرضوا بأي قدر من التنازلات، والحل عند رالف بيتر وأمثاله هو سحقهم سحقًا بلا رحمة.

هذا الاتجاه المتطرف في فهمه وأسلوبه وجد تعبيره العسكري في معاملة إسرائيل للفلسطينيين، فالحكومة الإسرائيلية الحالية تتبنى فكرة أن أي إخفاق في استخدام أقصى القوة لسحق الأعداء، فكأنك أسلمت نفسك لمن لا يرضيهم ما حصل عليه الفلسطينيون ليتلاعبوا بك!.

وقد رد على هذا الاتجاه في المؤتمر الفريق الآخر الذي رأى أن ما يزعزع مصداقية هذا الاتجاه هو أن القوة الإسرائيلية الهائلة من الدبابات والطائرات والصواريخ لم تنجح في وقف الانتفاضة الفلسطينية، ولذا يرى هذا الفريق أنه رغم أن استراتيجية القوة قد تحقق نجاحًا سريعًا إلا أنه لا مناص من مواجهة الأسباب الكامنة التي تدفع إلى أعمال العنف والإرهاب.



وقد تركزت في هذا المؤتمر الانتقادات الموجهة إلى سياسة الولايات المتحدة في الحرب الأفغانية في ثلاث نقاط:

الأولى: أن الولايات المتحدة تقوم بهذه الحرب كحملة وطنية دون الاستناد إلى المرجعية الدولية الشرعية وهي الأمم المتحدة، مما يدمغ هذه الحرب بأنها مجرد غزو عسكري، ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تستغني عن هذه الشرعية بالتحالف الذي جمعته حولها من الدول الإسلامية لأنه تحالف هش ومؤقت - كما يرى المؤتمرون - سرعان ما سيتفكك بمرور الوقت، وخصوصًا مع إصرار الولايات المتحدة على المضي في خطتها لتوسيع نطاق هذه الحرب ليشمل دولاً أخرى مسلمة وحركات مقاومة وطنية تحظى بتعاطف واحترام الشعوب المسلمة.

الثانية: تتعلق بالهدف الذي أعلنته الولايات المتحدة لحربها ضد الإرهاب، فقد جعلت على رأس قائمة الأهداف أسامة بن لادن (حيًا أو ميتًا) مع أسماء أخرى، ومعسكرات تدريب القاعدة. هذا الهدف الأخير تحقيقه ممكن حيث يمكن التصويب عليه باعتباره هدفًا ثابتًا، أما الأشخاص فهدف مراوغ ومن ثم لن يتم تدمير شبكة الإرهاب.. وحتى لو قُضي على بعض خلايا هذه الشبكة فستبقى خلايا أخرى قادرة على مواصلة العمل، وبذلك تواجه الآلة العسكرية الرهيبة هواء فارغًا.

الثالثة: إن القضاء على نظام طالبان في أفغانستان لن يؤدي أوتوماتيكيًا للقضاء على الإرهاب فإنك إذا تخلصت من نظام دولة دون أن تحل مكانه نظامًا آخر قويًا وقادرًا على الإمساك بزمام الأمور فإنك بذلك تخلق فوضى ضاربة، وهذا الوضع من شأنه أن يهيئ ظروفًا يفرخ فيها الإرهاب مرة أخرى.

يؤكد هذا الرأي بقوة الجنرال «سير مايكل روز» الذي كان يعمل قائدًا لقوات الأمم المتحدة في حرب البوسنة حيث قال:

«يمكن تحقيق النصر فقط عندما تكون العدالة هي الهدف لا مجرد الانتقام.. إن حل هذه المأساة ينبغي أن يكون حلاً سياسيًا فإن القوة العسكرية وحدها لا تكفي».

في هذا السياق يحذر الكولونيل «مجرجور» من أن خطر التمحور الأمريكي حول الحل التكنولوجي لمشكلة الإرهاب هو خطأ محوري.. فالتكنولوجيا مهما عظم قدرها لا يمكن الاستغناء بها عن الفهم والخيال.. وإذا كانت الولايات المتحدة تعتمد في حربها ضد الإرهاب على ضرب القيادات فإن هذا قد يصلح مع حرب الجيوش المنظمة، فإن الجيوش تنهار بالقضاء على قياداتها، أما ضرب القيادات في حرب الإرهاب فمن شأنه أن يجعل المقاومة أشد شراسة.



أما «كريسبين هَل» فقد لفت نظره الاستعداء الغبي للإسلام في معركة الأمريكيين ضد الإرهاب، لذلك يحذر من إقحام الإسلام في هذه المعركة، لأنه يرى أن الإيمان الراسخ في الإسلام سلاح بالغ القوة، وأن عقيدة القنابل البشرية التي يسميها المسلمون استشهادًا قوة فعالة ومؤثرة في مواجهة القوة العسكرية المجردة.

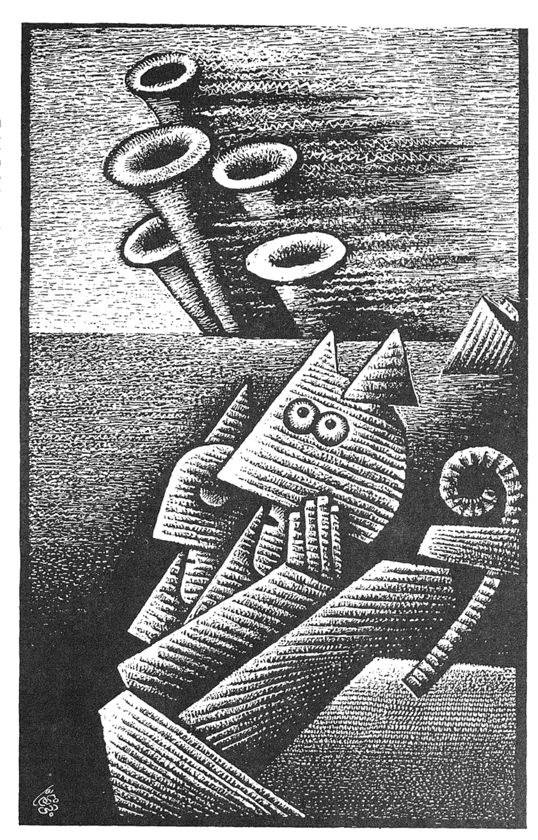
ويفصح عن هذا المعنى بوضوح شديد «روبرت فيسك» الكاتب والصحفي البريطاني في مقال له نُشر في كانبرا تايمز تحت عنوان «قسوة الشعب المطحون» يقول: «لقد احتضنت الولايات المتحدة إسرائيل لسنوات عديدة اعتقادًا منها أن ذلك لن يكلفها شيئًا يذكر، أما الآن فقد اتضح أن الأمر لم يعد كما كانت تظن.. وإنه لمن الشجاعة والحكمة أن تتوقف ولو لبرهة قصيرة لتراجع دورها في العالم، وتتأمل في نتائج تجاهلها لما يعانيه العرب في فلسطين..».

ثم يستدرك قائلاً: «أعلم أن أناسًا كثيرين سوف يعترضون على دعوتي هذه إلى تحليل الأسباب الكامنة وراء هذه الحرب ذات الأبعاد العالمية» ويحذر قائلاً: «إننا إذا لم نفعل هذا ونقوم بالمراجعة الآن فإن علينا أن نواجه صدامًا لم نشهد مثله منذ موت هتلر واستسلام اليابان وانتهاء الحرب في كوريا وفيتنام.. فكل هذا يتقلص ويتضاءل أمام المقارنة بما هو قادم إلينا في المستقبل». ■



اعتاد الأستراليون أن ينظروا إلى هجرة الملونين إلى بلادهم باعتبارها خطراً طالما أرّق قياداتهم السياسية منذ زمن بعيد. من أجل هذا صدرت قوانين أستراليا البيضاء في الماضي لتكون حاجزاً مانعاً لتدفق الهجرة الملونة، ولكن اضطرت الحكومة الأسترالية لإلغاء هذه القوانين العنصرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الموسـيقار موهـوب



تتطلع الفنون الأدائية جميعها نحو مستوى تتمتع فيه بكيفية موسيقية Musical Quality، ذلك التوافق السحرى الذى ينبعث من العمل الفنى، سواء كان لوحة أو نصًا أدبيًا، أو موسيقا بالطبع، وذلك قبل إدراك أى محتوى أو صيغة. والمفهوم الموسيقي يبسط ظله على الفنون قاطبة، ويدفعها قدمًا نحو التطلع إلى تلك الكيفية الموسيقية، على حد قول شوبنهور Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠).

ما أروع أن يصلنا موسيقيون عاشوا فى القرن السادس عشر - لم نرهم رأى العين، ولا ندرى شيئًا عن حياتهم - من خلال وسط مجرد كالصوت، يتلاشى بمجرد ظهوره، والأكثر روعة أن يحدث ذلك الاتصال بيننا، وبين مؤلف موسيقى معاصر، يعيش بين ظهرانينا، ولكننا لم نره البته، ولا نعرف عنه شيئًا. ولا تختلف تلك الظاهرة عن تلك التى نعرف بها شكسبير من كتاباته، أو مايكل أنجلو من روائعه فى النحت والتصوير.

كم منا يعطى اهتمامًا لتلك الظاهرة التى تشكل عنصرًا من أهم عناصر فعل التذوق ذاته ألا وهو التواصل الشخصى بين المؤلف الموسيقى والمستمع، ورغم أن الموسيقا لها القدرة على التوصيل، حتى ولو كان مؤلفها مجهولاً، إلا أنه لم تبذل أى محاولة واعية لتحليلها، والدخول فى متاهات الصيغ والأساليب التى لا حصر لها. إن التوجهات الحديثة فى تذوق الفنون بصفة عامة تلقى الآن بالعبء الأكبر على المتلقى. ووسط ضجيج الإعصار المعلوماتى تتردد الآن صيحات محذرة من أن المتلقى قد عانى بما فيه الكفاية من سطوة القابض على «محبس» الإرسال، ويأمل الجميع أن تحرر تكنولوجيا المعلومات المتلقى من براثن مرسله. فمثلما تسعى تلك التكنولوجيا إلى تحرير القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من قبضة مصممه، وتسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصى على عملية التلقى، بحيث تكفل للمتلقى قدرًا من الحرية فى اختيار رسالته الإعلامية، سواء من حيث المحتوى أو الشكل أو وقت استقبالها. نجد أن التذوق الموسيقى هو الآخر، يقف بالمرصاد للمؤلف الموسيقى، وقد وضع العقل التفسيرى Interpretative Mind فى مواجهة العقل المبدع Creative Mind، وكأنه يقول والمستمع أيضًا ما هو إلا مبدع (من منازلهم) مادام الخيال هو القاسم المشترك بينهما، ولكن كم من متذوقى الموسيقى لا يدرك تلك الموهبة فيه؟ ونعنى هنا المستمع المتعمق In depth Listener، وليس ذلك المستمع العابر Skipping Listener، ولا ذلك المستمع المتعجل Skimming Listener، الذى يلهث خلف مقاطع الذروة Climaxes، ويتعب نفسه بلا طائل ليتتبع أقصوصة ما أو أحداثًا بعينها.

... والمستمع أيضًا

حسام الدين زكريا

إن الاستماع نفسه موهبة، وهو مثل أى موهبة أخرى نتمتع بها، يكون متفاوت الدرجة، والواقع أن الغالبية العظمى من محبى الموسيقا لديهم ميل ملحوظ للحط من قيمة تلك الموهبة، والارتياب فى قدراتها، بدلاً من المغالاة فى تقديرها

«.. إن إدراك المتعة فى الموسيقا، مع القدرة على إبداعها، لهو هبة الخيال حقًا..»

(كوليريدج)

.. كلما توغلنا فى دهاليز النغم، ومضينا قدماً فى البحث عن آفاق جديدة للمتع الذهنية كلما ترسخ لدينا الاعتقاد بأن العقل، بقدراته غير المحدودة على إطلاق خياله، لهو القلب النابض لحيوية الإبداع الموسيقى، كما أنه القلب النابض أيضًا لتجربة الاستماع ذاتها، والحق أن العقل ذا النزعة الخيالية الحرة Imaginative يمثل ضرورة لا غنى عنها لعملية الإبداع الفنى ذاتها، فى أى مجال من مجالات الفن، وليس الموسيقا فقط، إلا أنه أكثر ضرورة للموسيقا، من حيث هى الفن الذى يحملنا معه لأرحب آفاق الخيال بخصائصه المميزة من حرية وتجريد وانطلاق، فليس هناك محتوى قصصى، أو تمثيل بالصورة Pictorial Repre-sentation، ولا اطّراد فى الأوزان الإيقاعية Me-ter، كالشعر مثلاً، وما من حدود صارمة لإطار يكبح الوظيفة الحدسية للعقل ذى المخيلة. وإذا سلمنا بذلك، فلن ننسى أن الموسيقا لها أنظمتها أيضًا: صيغها الصارمة، ونماذجها الإيقاعية المنتظمة (وفى بعض الأحيان محتواها التصويرى Programmatic) والموسيقا، مثلها فى ذلك مثل الرياضيات والعمارة والتصوير، وفى أى من صيغها المستقرة والمفهومة، ظلت مصدر افتتان للعقل العادى. إلا أن ما يفتن الموسيقى المحترف حقًا، هو أن السمة المميزة للموسيقا تستدعى معالجة خيالية، ولا معنى بتاتًا لحقائق موسيقية مالم يكن هناك خيال يهيم حولها فى حرية وانطلاق، وهنا لا مناص من التركيز على جوانب الموسيقا المعرضة لتأثيرات الخيال الخلاقة.

وما يعنينا هنا هو ملكة الخيال لدى المستمع الموهوب Gifted Listener، لا من نطلق عليه المستمع المقصر أو المتثاقل Backward Lis-tener، وعادة ما يفترض فى موضوعات التذوق أن العائق الرئيسى أمام تذوق الموسيقا، هو عدم القدرة على إطلاق قوى الخيال.

إن الاستماع نفسه موهبة، وهو مثل أى موهبة أخرى نتمتع بها، يكون متفاوت الدرجة، والواقع أن الغالبية العظمى من محبى الموسيقا لديهم ميل ملحوظ للحط من قيمة تلك الموهبة، والارتياب فى قدراتها، بدلاً من المغالاة فى تقديرها. ومن الصعب تحديد أسباب ذلك الشعور بالنقص، طالما ليست هناك طريقة يعتمد عليها فى قياس موهبة الاستماع، وما من أسلوب موثوق به لإدخال الطمأنينة على قلوب هؤلاء الذين يسيئون الحكم على أنفسهم، وعمومًا فهناك ضرورتان أساسيتان يتحقق بهما الاستماع الموهوب Talented Listener: أولاً القدرة على الانفتاح على التجربة الموسيقية وإفساح مجال ينطلق فيه الخيال، وثانيًا القدرة على التقييم النقدى لتلك التجربة، وبالطبع لا يظهر أى من هذين العاملين دون موهبة أخرى يمكن تدريبها وتنميتها، إلا أننا نمارسها لأنفسنا فقط، فما من عائد محسوس من ورائها، والاستماع يجزى عن نفسه، فما من جوائز هناك، أو مسابقات للاستماع الخلاق Creative Listening.

وطوبى لكل موهوب، فما من متع فى الفن تفوق ذلك الاحساس الراسخ لدى المرء بإدراك الجمال كلما هبت عليه نسماته.

وإذا ما ذكرنا المستمع الموهوب فنحن نقصد به ذلك الذى يود أن يحتفظ بوضعه كهاوٍ، ولتعلم عزيزى القارئ أنه ذلك النوع من المستمعين الذى يحفز المؤلف الموسيقى، ويدفعه دفعًا لشحذ قدراته الإبداعية، والمؤلف الموسيقى يعرف تمامًا الكيفية التى سيتفاعل بها الموسيقى المحترف مع الموسيقا، على أن الأمر يبدو شديد الصعوبة مع المستمع الهاوى، فليس هناك ما يشير عليه بما يجب سماعه، وما من خارطة أو دليل يمكنه أن يشد بها الجدائل Strands المختلفة للمقطوعة الموسيقية المعقدة معًا، ولن يؤنسه فى وحدته سوى ذلك الشعاع الضوئى الصادر من مخيلته هو. فإدراك كل مواطن الجمال فى فن مجرد كالموسيقى والتعرف على ما يحتويه من تفاصيل، لهو معجزة صغيرة فى حد ذاته. وفى هذا الصدد فليثق مستمعنا بنفسه إذا لم يجد صدى فى نفسه لمؤلف موسيقى ما (وقد يصاحبه طنطنة وتساؤل ممن حوله من أدعياء الفن.

أما موقف الموسيقى بصفة عامة، والمؤلف الموسيقى على وجه الخصوص، فهو مختلف تمامًا عنه فى حالة المستمع، فاتصاله بمصدر الموسيقا يتيح له فهمًا داخليًا لأسراره، وألفة فى وجود تلك الغوامض، وبذلك يمتلك وعيًا مزدوجًا Dual Awarness، فمن ناحية نراه وقد أدرك السر المبهم الذى يعطى لأنغام عادية بالذات معنى محددًا، ومن ناحية أخرى نجده، وقد أحاط بالمجهود البشرى الضائع فى كل حالة إبداعية، وهو وعى لا أمل للشخص العادى فى أن يتقاسمه. والحق أن هناك نقطة دقيقة فى توازن الوعى عند الموسيقى المحترف تغيب تمامًا عن الهاوى، فالأخير إما يبدى توقيرًا شديدًا أمام المقطوعة الموسيقية، أو تجرفه الإثارة بعيدًا؛ وقد يغرق فى حبه لمقطع منفصل أو يبدى حماسًا محدودًا لمدرسة بعينها أو مؤلف موسيقى بالذات، ورغم ذلك فالاحترافية Professionalism وحدها لا تكفى بتاتًا كضمان للاستماع بذهن متقد، فقدرة الإنجاز والبراعة، حتى لو كانت فائقة، لا تعتبر ضمانًا لغريزة الحكم الصائب. لذا فالمستمع الحسَّاس، لمجرد غياب الأحكام والمفاهيم المسبقة عنده، والتى لا يمتلكها الموسيقى المحترف، يكون فى بعض الأحيان دليلاً أكثر ثقة للحكم على الجودة الحقيقية للمقطوعة الموسيقية. وربما يجمع المستمع النموذجى بين استعداد المحترف المدرب وبراءة الحدس Intuition التى يتمتع بها الهاوى.

إن الموسيقيين جميعًا، مؤلفين ومؤدين، يعتبرون المستمع الموهوب Gifted Listener هو الشخصية الرئيسية فى عالم الموسيقا، ومن الأهمية بمكان أن نتتبع مصادر تلك الموهبة، وخصائص التجربة الموسيقية التى تدمغه بطابعها المميز. ومستمعنا المثالى هذا هو من يمتلك المقدرة فوق أى اعتبار آخر لكى يهب نفسه تمامًا لطاقة الموسيقى - وهى طاقة تحرك مشاعره كظاهرة فنية على نحو خاص جداً. وإذا كنا غير قادرين على التنقيب عن الأساس الفيزيائى لتلك الظاهرة، فعلينا بالأحرى أن نركز على المضامين الثانوية لنبراتها العاطفية Emo-tional Overtones. وعلى غير ما قد تتوقعه عزيزى القارئ، فالموسيقا لا يمكنها تحريك مشاعرنا على نحو أقوى من أى صيغة من صيغ الفن الأخرى، فالمسرح يمتلك تلك القدرة على نحو أكثر وضوحًا، وإنها لقدرة هائلة بالفعل للدرجة التى قد تثير لدى النظارة، وهم فى خضم أحداث الدراما المسرحية، شعورًا بالاستياء والسخط للسهولة التى يلعب بها الكاتب المسرحى على أوتار عواطفهم. وقد يشعرون أحيانًا بأنهم لوحات مفاتيح Keyboards يمكنه أن يرتجل عليها أى ألحان تروق له، دون مقاومة تذكر من جانبهم، فالعاطفة هنا لها اليد العليا، رغم أن عقولهم قد تستمر فى الاحتجاج متسائلة بأى حق يفعل بهم المؤلف المسرحى ذلك؟!! وكثيرًا ما تتساقط دموعنا فى المسرح، وهو ما لا يحدث إلا فى القليل النادر داخل قاعة الكونسير (أو قد لا يحدث على الإطلاق)، فلِمَ الموسيقا بالذات..؟ لأن الموسيقا ببساطة بها شَىء ما يجعلها تحتفظ دائمًا بمسافة بينها وبيننا، حتى فى أشد اللحظات التى يجرفنا فيها تيار الأنغام، ويحتوينا تمامًا فى طيات عالمها السحرى، فالموسيقا لها القدرة على أن تنأى بنفسها بعيدًا عنا، وفى نفس الوقت تكون داخلنا وجزءًا لا يتجزأ من كياناتنا، بل أحيانًا ما تبدو وكأنها عائق أمام انطلاق تفكيرنا، وأحيانًا أخرى نجد أنفسنا وقد تضلعنا فى فهمها. وكثيرًا ما نجد أنفسنا وقد أغوتنا الألحان شيئًا فشيئًا، واستدرجتنا معها، إلا أننا، وعلى نحو عجيب، ندرك أننا لم نفقد السيطرة على مشاعرنا إطلاقًا. إنها الطبيعة شديدة الخصوصية للموسيقا التى تمنحنا تقطيرًا Distillatior للعواطف نجد معه أن جوهر التجربة قد انتقل إلينا، وأصبح أكثر حدة، وتم التعبير عنه بطريقة ما بحيث يمكننا إمعان التفكير فيه، وتأمل تلك التجربة فى نفس اللحظة التى تحملنا فيها الأنغام على أجنحتها.

عندما يهب المستمع الموهوب نفسه لطاقة الموسيقا، فإنه يكون بصدد الحدث Event (الألحان التى يسمعها بالفعل)، وامتثاله Ideali-zation (إضفاء صفة الكمال على الموسيقا بخياله) فى آن واحد؛ فهو يكون فى قلب الحدث، حتى ولو كانت الموسيقا تحافظ تمامًا على ما أطلق عليه إدوارد بالو Edward Ballough المسافة النفسية Psychical Distance بينه وبينها.



إن الملاحظة التى أبداها الشاعر الرمزى بول كلوديل Paul Claudel (١٨٦٨-١٩٥٥) على مستمع الموسيقا لهى ملاحظة عميقة حقًا: «.. لقد جعلناه مستغرقًا فى الكونسير لدرجة تلاشى معها تمامًا، ولم يبق منه سوى حالة من التوقع والانتباه..» ولقد أعجبت تلك الرؤية هارون كوبلاند Aaron Copland (١٩٠٠-١٩٩٠) المؤلف والناقد الموسيقى الأمريكى ذائع الصيت، والذى يرى أن عنصر التوقع Expectancy إنما يشير إلى قدرة المستمع على أن يستسلم بنفس تواقة لما يسمعه، بينما ينم الانتباه Attention عن الاهتمام بما يقال، والاستغراق التام مع استيعاب ما يتم سماعه، ويسوق كوبلاند تجربة شخصية عندما راقب مرارًا بعض المستمعين، من النوع الذي استغرقته الموسيقى، أثناء الكونسير، واستغرق هو الآخر فى محاولة سبر أغوار طبيعة استجاباتهم بدقة، ولقد كانت تجربة آسرة عندما وجدهم ينصتون لموسيقاه بالذات، ويقول أنه فى تلك الأحوال لا يكون مهتمًا بما تتيحه الموسيقى من متع، بل بمحاولة معرفة ما إذا كانت تبدو مفهومة أم لا، ولا ينسى كوبلاند أن يلفت أنظارنا إلى جانب عجيب من سيكولوجية الموسيقى المبدع، فهو يقول إن الفكرة التى واتته بأن موسيقاه قد تُمتع أو لا تُمتع عددًا لا بأس به من محبى الموسيقى، لم تثره على الإطلاق. وهناك لحظات كان النظارة يبدون فيها استهجانهم لموسيقاه بعنف واضح بالهسهسة والإشارات، ولحظات أخرى يرتفع فيها التصفيق إعجابًا، وفى كلتا الحالتين لم يحرك ساكنًا. ويرجع كوبلاند سبب ذلك إلى أنه ربما يكون قد ظل بمنأى عن النتيجة النهائية، فقد نبعت متعته الحقيقية من مجرد كتابة الموسيقا، خاصة عندما يشعر أنه قد قارب على الانتهاء منها، إلا أنه بمجرد رفع يده عن العمل يجد أن الموسيقا قد أصبحت لها حياتها الخاصة. إن ذلك لا يعنى سوى أن الفنان نفسه ما هو إلا آلة غير واعية Unwitting لا يشبعها أن تبدع الجمال، بل فكرة الإبداع نفسها.



وإذا ما عدنا لمستمعنا الذى استغرقته الموسيقا، فالسؤال الذى يهم المبدع ليس هو المتعة التى خرج بها المستمع، أو لم يخرج أصلاً، بل عما إذا كان قد



استوعب فحوى الموسيقا، وإذا كان قد استوعب فما هو ذلك الذى استوعبه..؟

وهكذا نجد أنفسنا نقترب بحذر من إحدى أكثر المشاكل أشواكًا فى علم الجمال - إيجاد معنى للموسيقا. هنا تبدو مهمة السيمانطيقى Semanticist، وهو يتفحص معانى الكلمات (أو معنى المعنى)، أكثر سهولة مقارنة بذلك الذى يملك روحًا جسورة، وله قدرة شديدة على الاحتمال، كى يغامر بحثًا عن معنى للموسيقا، وقد يتنحى المؤلف الموسيقى جانبًا بسهولة عن تلك القضية. فالجماليات غالبًا ما تكون خارج نطاق اهتمامه، فموهبته الحقيقية إنما تكمن فى قدرته على التعبير، دونما أى تأملات وأفكار نظرية. على أن المشكلة تظل ملحة، وعلى الموسيقى أن يكون لديه شىء ما ذو شأن يقوله لمن يتفلسفون حول الفن، وخاصة أن كل ما كتب حول تفسير الموسيقا أو إيجاد معنى لها نادرًا ما يكون له أساس من المصداقية، فتعدد أوجه الموسيقا، وإمكانية فهمها من زوايا متعددة، يجعل من تقنين تلك الكتابات مسألة عقيمة - مازال الرأى الذى نادى به الشاعر الأمريكى والت هويتمان Walt Whitman (١٨١٩ - ١٨٩٢) يلقى قبولاً عامًا: الموسيقى هى جماع ما تذكرك به الآلات عندما تستمع إليها -.

الموسيقا ببساطة بها شىء ما يجعلها تحتفظ دائمًا بمسافة بيننا وبيننا، حتى فى أشد اللحظات التى يجرفنا فيها تيار الأنغام، ويحتوينا تمامًا فى طيات عالمها السحرى، فالموسيقا لها القدرة على أن تنأى بنفسها بعيدًا عنا، وفى نفس الوقت تكون داخلنا وجزءًا لا يتجزأ من كياناتنا، بل أحيانًا ما تبدو وكأنها عائق أمام انطلاق تفكيرنا، وأحيانًا أخرى نجد أنفسنا وقد تضلعنا فى فهمها



ويمكن القول إجمالاً فى هذا الصدد أن هناك نظريتين متعارضتين اتفق عليهما علماء الجمال أخيرًا، واحدة تنادى بأن معنى الموسيقا، إذا كان هناك أى معنى، إنما يكمن فيها ذاتها، ويجرى البحث عنه فى نطاقها، فالموسيقا ليس لها أى معنى خارجها، والأخرى تقول بأن الموسيقى لغة بلا قاموس يقوم المستمع بتفسير رموزها طبقًا للغة عواطف اسبرانتو Esperanto of Emotions غير مكتوبة، وكلما تفحصنا هاتين النظريتين، كلما أيقنا أنهما مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً وثيقًا على عكس ما يبدو عادة، ولذا فالموسيقا كلغة رمزية ذات قيمة سيكولوجية وتعبيرية، لا يمكن تفسيرها إلا من خلال الموسيقا نفسها، أما الموسيقا التى يقال أنها لا تعنى إلا نفسها، فهى تشيد أنماطًا من الصوت Patterns of Sound توحى حتمًا بمضامين، ومفاهيم Connotations فى عقل المستمع، حتى وإن لم يتعد ذلك مجرد الفرحة بإبداعها، وعمومًا فمهما كانت الموسيقى، خالصة أم غير خالصة، موضوعية أم لغة، فما من شك أن المؤلفين الموسيقيين يتلقون حوافزهم من نفس تلك الدوافع، ولا يمكننا التسليم بأن باخ، وهو يضع مؤلفه Orgelbuchlein - كتاب الأرغن الصغير الذى جمع فيه ٤٦ مقدمة كورال Chorale Prelude للأرغن (١٧١٧) - كان يفكر فى أنه يبدع موضوعًا عبارة عن مجرد نوتات مرصوصة إلى جوار بعضها البعض، أو أن تشايكوفسكى وهو بصدد موسيقاه لبحيرة البجع، لم يكن يعنى بشىء سوى الاندفاع الجامح وراء عواطفه بلا ضابط أو رابط. من الممكن تداول النوتات الموسيقية كما لو كانت أشياء محسوسة بالتأكيد، ومن الممكن استخدامها فى إجراء تمارين، مثلما يفعل الراقص، إلا أنه عندما تكتسب تلك الأنماط الصوتية، التى تشبه التمارين، معنى ما، فإنها تصبح موسيقا على الفور، وهناك تبرير تاريخى يفسر التأكيد بقوة على جانب واحد من ذلك الجدل أحيانًا، ثم على الجانب الآخر أحيانًا أخرى: ففى الفترات التى كانت فيها الموسيقا فاترة ومتحفظة فى عواطفها، ومنعزلة عن باقى الفنون، وتتبع القواعد المعمول بها فى صرامة مدرسية، كان من المحظور على المؤلفين أن يتناولوها كلغة للعواطف، وفى القرن التاسع عشر، عندما تحولت لتحمل السمات الداخلية لحركة العاصفة والاندفاع Sturn Undrang - الحركة الأدبية التى قادها كل من جوته وهيردر وشيللر فى الفن متأثرين بأفكار روسو وكانت إرهاصة مهمة للتيار الرومانسى فى الموسيقى - كان الجو العام يحذر المؤلفين الموسيقيين حتى لا ينسوا أن الموسيقا فن خالص له جماله الذى لا يخضع ولا يدين إلا لذاته. وقد لخص هانزليك، النصير المثالى للموسيقى الخالصة Pure Music فى القرن التاسع عشر، ذلك التضاد الثنائى Dichotomy المتواتر ببراعة فائقة عندما كتب يقول: «.. إنه غناء داخلى وليس شعورًا داخليًا هو الذى يحفز شخصًا موهوبًا لكتابة قطعة موسيقية..»، وعمومًا، فالمؤلف الموسيقى وهو ينكب على عمله لا يشعر بتاتًا بذلك التضاد الثنائى، فالغناء هو الإحساس بالنسبة له، وكلما كان الإحساس بالغناء لديه مكثفًا وشديدًا، كلما ظهر العنصر التعبيرى عنده أكثر نقاءً.

إن التساؤل عن معنى دقيق للموسيقا لهو سؤال لم يكن من الواجب، ولا يجب طرحه على الإطلاق، وعلى أية حال، فهو لن يستدر إجابة دقيقة أو محددة. إنه العقل الملتزم بالنصوص الأدبية Licrary Mind، هو الذى يمثل له الغموض عائقًا يشوش تفكيره (المحدود)، وما من محب حقيقى للموسيقى يتجشم عناء محاولة إدراك الخاصية الرمزية للغة الموسيقية، بل على العكس، فإن ذلك الغموض بالذات هو الذى يثير الفضول ويأسر اهتمام المستمع وينشط الخيال، ومهما كشف علماء دلالات الموسيقى من غموض الموسيقا، سيظل المؤلفون مواظبين على إبداعاتهم، لا يلوون على شىء، وسيعرضون أمامنا تلك المشاعر المعقدة ببراعة فائقة لا تستطيع اللغة حتى تسميتها، ناهيك عن تحديدها. وجملة (ناهيك عن تحديدها) هذه قد وردت فى فصل مقنع بعنوان: «فى مغزى الموسيقى On Significance In Music» لسوزان لانجر Susanne Langer (١٨٩٥ - ١٩٨٥)، حيث استعرضت مختلف نظريات معنى الموسيقا من أفلاطون حتى شوبنهور، ومن روجر فراى حتى نظريات التحليل النفسى الحديثة، لتستخلص فى النهاية قولها الشهير: «.. الموسيقا هى أسطورة حياتنا الروحية - إنها أسطورة فتية، تفيض حيوية، وحافلة بالمعانى، وهى مازالت فى طورها الإنمائى..».

والأساطير الموسيقية عرضة دائماً لتفسيرات شخصية للغاية، بل إنها تتفوق فى ذلك على الأساطير الشعبية، وما من وسيلة معروفة يمكننا أن نضمن بها مصداقية تفسير زيد أو عبيد من النقاد، وأى تفسير منها أكثر صدقًا، وما الذى يضر لو تبادلت سيمفونية البطولة Eroica اسمها مع سيمفونية القدر (المزعومة) لبيتهوفن..!! على حد قول الناقد الموسيقى ديفيد راندولف، وهو بصدد استنكاره للادعاء بأن الموسيقا يمكنها أن تروى قصة. ولا يسعنى إلا أن أوصيك عزيزى متذوق الموسيقا الجاد بالاعتماد التام على فهمك الغريزى لتلك الرمزية غير اللفظية التى توحيها الأصوات الموسيقية.

إن كل ذلك لا يعنى أى شىء البتة لهدف المستمع الموهوب فى البداية، كما يجب أن يكون، وهو الاستمتاع بالموسيقا. فهو، بدون نظريات، أو أى أفكار مسبقة عما يجب أن تكونه الموسيقا، يهب نفسه بصفته إنسانًا حساساً وواعياً لطاقتها السحرية، وإنها لعلاقة تثير دهشتنا حقًا تلك التى تقوم بين المستمع والموسيقا، فهى علاقة بدائية أساسًا، والواقع أن جميعنا نستمع إلى الموسيقا على مستوى أولى من الوعى الموسيقى، وهو مستوى بدائى تكون أرضيتنا عنده ثابتة. وعلى هذا المستوى، مهما تكن الموسيقى، يمكننا أن نمارس معها ردود أفعال أساسية، كالتوتر أو الاسترخاء، التبلد أو الشفافية، السلاسة أو الغضب الملتهب، مع تدفق الرنين الموسيقى Swelling، وخموده Subsiding، واندفاع الموسيقا، وتراجعها، وامتدادها، وسرعتها، وهديرها، وهمساتها - وآلاف من انعكاسات سيكولوجية لمسيرة حياتنا الواقعية بإيماءاتها، ولفتاتها، وعالمنا اللاواعى برمته.



تلك هى الطريقة التى نستمع بها جميعًا إلى الموسيقا، سواء كنا موهوبين أو خالين من الموهبة، ولا يمكن لكل ما كتب أو يكتب عما نسمعه من موسيقا، سواء كمادة تاريخية أو تحليلية، مهما كان مشوقًا، أن يغير من تلك العلاقة الأساسية.

ولا يعنى ذلك بتاتًا أنه ليس هناك احتمال لتهذيب الذوق الموسيقى، بل على العكس تمامًا، فالصيغ الكبرى فى الموسيقى، كالسيمفونية والكونشرتو، لا تجذب سوى مستمع قد نما ذوقه من خلال الاستماع، أو التدريب أو كليهما، وعمومًا فعملية تهذيب الذوق الموسيقى تبدأ بالقدرة على تمييز الفروق الدقيقة فى الأحاسيس Subtle Nuances of Feeling، وقد يكون فى إمكان أى منا أن يدرك الفرق بين مقطوعة حزينة وأخرى مبتهجة، أما المستمع الموهوب فيتعرف على خصائص الفرحة ذاتها وعلى روح البهجة - سواء كانت بهجة مشوبة بما يعكر صفوها، أو بهجة رقيقة، أو فرحًا لاهيًا، أو هيستيريًا، وما لا نهاية له من الفروق التى لا يمكن تسميتها بسبب لا قياسية الموسيقا Incommensurability مع اللغة.



والفهم الناضج للفروق الطبيعية فى أساليب التعبير المتوقع من الموسيقا على اختلاف عصورها، هو مطلب جد مهم للاستماع بذهن حاد Subtle Listening. إن التيقظ لتاريخ الموسيقا لابد أن يعد المستمع الموهوب لكى يميز بين الفروق الأسلوبية، وعلى سبيل المثال، عند التعبير عن الفرح، فتلك النشوة الصوفية التى يجدها فى موسيقا سكاريابين Scaribin - أليكسندر نيكو لايفتش سكاريابين Alesander Nikolayevich Scribin (١٨٧٢ - ١٩١٥): مؤلف موسيقى روسى. حاول التعبير عن النشوة الصوفية فى قصيدة السيمفونى «قصيدة النشوة Poem of Ecstasy» (١٩٠٨) مستخدمًا ما سماه بالتآلفات الصوفية Mystic Chords - لا يجدر به أن يبحث عنها فى موسيقى جلوك Gluck - كريستوف فليبالد جلوك Christof Wielebald Gluick (١٧١٤ - ١٧٨٧): مؤلف موسيقى ألمانى من مطورى الأوبرا العظام - مثلاً أو حتى عند موتسارت. وذلك الإحساس بالألفة «البيتى» الذى يستشعره المرء فى عالم أواخر القرن الخامس عشر، ليجعل المرء متنبهًا لما لا يجب أن يبحث عنه فى موسيقا تلك الفترة (فذلك الإحساس موجود بطبيعة الموسيقا). وبنفس الأسلوب، سنجد أن الإحساس بالألفة الموجود فى التعبيرات الموسيقية لعصر الباروك المتأخر يوحى على الفور بالتطابق مع سمات معينة في الموسيقا العالمية المعاصرة. ومحاولة فهم الموسيقا برمتها على أمل كاذب بأنها ستلطف



آلامنا وسط عباب هارمونيات القرن التاسع عشر الذاخرة، لهو خطأ شائع يقع فيه كثير من عشاق الموسيقى العالمية فى يومنا هذا.

هنالك موهبة أخرى يحتاجها مستمعنا، وربما تكون أشد المواهب ندرة، وأكثرها ضرورة فى الواقع. إنها موهبة القدرة على إدراك كل ما يحيط بالإطار الإنشائى Structural Framework لعمل موسيقى متسع الجنبات. فبعد سبر أغوار معنى الموسيقا، تبدو تلك النقطة الأكثر إيهامًا عندما نتعرف على قدرتنا السمعية Sural Faculty، وما من شك أن الطريقة التى نصنف بها (ونضيف إليها، ونتحقق منها فى أذهاننا) تلك الانطباعات، التى لا تبدو علينا إلا منفردة فى لحظات متناثرة خلال الموسيقى المنسابة عبرنا، هى إحدى أندر تجليات الوعى الإنسانى، وهنا لابد للخيال من أن يشتعل. وقد يبدو من المدهش حقاً أن يستطيع المرء تجميع مقطوعة ما فى أذنه الواعية Mind's Ear. إنها لمهمة عسيرة فى أى فن من الفنون، خاصة الفنون الزمانية كالدراما والرواية، إلا أنها، على الأقل، تعتمد على تتابع زمنى Chronology للأحداث، يسترشد به المتفرج أو القارئ عادة، ورغم أن الرقص بطبيعته له بنية تنظيمية مناظرة تقريبًا للموسيقى، إلا أنه هنا أيضاً، ورغم انسياب الحركة، نجد أن كل لحظة منفصلة فيه تمثل صورة ما، على نقيض اللوحة المرسومة، أما فى الموسيقا، فإننا لا نجد تتابعًا زمنيًا للأحداث أو صورة لحظية، أو أى شىء نتعلق به، وهنا لا مناص أمامنا من الخيال والخيال فقط، فهو الذى يمتلك القدرة على إحداث التوازن بين الانطباعات المشتركة التى تتركها الألحان (الموضوعات اللحنية Themes)، والإيقاعات، والتلوينات الصوتية (الجرس)، والهارمونيات، والأنسجة الموسيقية Textures، والديناميكية، والتفاعلات بين الموضوعات النغمية، والتباينات Contrasts. وفى الإمكان عمل رسم بيانى Diagram لبنية موسيقية ما، فربما تكون بذات عون للمستمع المجتهد، إلا أننا فى العادة لا نستمع للموسيقى، وقد وضعنا أمامنا مخططات بيانية. وما الحكمة فى ذلك، فالتركيز الزائد على مخططات الشكلية الخالصة لعمل موسيقى ما قد يصرف النظر عن التداعى الحر Free Association مع العناصر الأخرى للمقطوعة الموسيقية (كالإيقاع Rhythm، واللحن Melody، والتآلفات Chord Structure، والتلوين الصوتى Tone Colour)، ولذا فلن نزيد الأمر غموضًا.



ونعود أدراجنا لتلك الموهبة المدهشة، والتى تتيح لصاحبها أن يلخص انطباعاته المتشابكة عن مقطوعة من الموسيقا البحتة بحيث تتحد أحداث التدفق الهارمونى مع النسيج الموسيقى، عند مرورها به لتشكل فى النهاية صورة كاملة وموحدة لجوهر العمل. إن نجاح المستمع فى تلك المغامرة ليعتمد أولاً على وضوح مفهوم المؤلف، وثانياً على توازن دقيق بين القلب والعقل، وهو توازن يحرك مشاعره فى نفس اللحظة التى يحتفظ فيها باستجابته العاطفية، ليستخدمها فيما بعد لإصدار حكم متوازن فى لحظات استجابة أخرى تالية ومختلفة، سواء وهو بصدد العمل الموسيقى، أو عندما يعاود تجربة الاستماع. وهنا لابد للمستمع أن يهيب بموهبته الشخصية،



قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل يُصنف المستمعون طبقًا لما يسمعونه، بمعنى أن من يستمع إلى موسيقا تعد من الأعمال الكبرى فى الفن، سيحظى بمقام أرفع، أو يكون على مستوى أخلاقى أسمى..؟ هذا هراء بالطبع. فما على الموسيقا سوى أن توقظ فينا ردود أفعال ذات طابع روحانى. هذا لو كانت عملاً رائعا بالطبع. وهى مشاعر موجودة فينا بالفعل، ولا تحتاج سوى من يوقظها فقط



مستعينًا بقدراته على التحليل والخبرة والخيال، ولابد من اتحادهم معاً ليمدوه بثقة يشعر معها أنه قد تبنى جماع أفكار المؤلف الموسيقى، بحيث أصبحت وكأنها أفكاره هو. هنا إذا ما كان المستمع قد فهم شيئًا ما، فلابد أن يكون ذلك ما أراد المؤلف أن يوصله تمامًا فى صورة نماذج صوتية Patterns of Sound تمثل جوهر شخصيته، أو على الأقل، السمة الغالبة التى انعكست منها فى ذلك العمل بالذات.



وقد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل يُصنَّف المستمعون طبقًا لما يسمعونه، بمعنى أن من يستمع إلى موسيقا تعد من الأعمال الكبرى فى الفن، سيحظى بمقام أرفع، أو يكون على مستوى أخلاقى أسمى..؟ هذا هراء بالطبع. فما على الموسيقا سوى أن توقظ فينا ردود أفعال ذات طابع روحانى ـ هذا لو كانت عملاً رائعًا بالطبع ـ وهى مشاعر موجودة فينا بالفعل، ولا تحتاج سوى من يوقظها فقط. وعندما تحضنا موسيقا بيتهوفن على أن نكون نبلاء، أو لكى يكون لدينا إحساس بالتعاطف مع الآخرين، أو توحى لنا بالقوة، فهى توقظ فينا أفكارًا أخلاقية موجودة لدينا منذ اشتد عودنا. والموسيقا هنا لا تملك وسيلة للإقناع، بل تحاول فقط أن تميط اللثام عن تلك المشاعر الدفينة داخلنا، وتجعلها واضحة لنا. وهى لا تشكل سلوكًا ما، بل إنها هى ذاتها المثال الحى لأسلوب خاص فى النظرة للحياة. وعمومًا فالكونسير ليس بخطبة وعظ ـ إنه حفلة موسيقية ـ تتجسد فيها من جديد سلسلة أفكار يتضمنها العمل الفنى.

وهناك مشكلة أخرى بدأت تفرض ظلها على الساحة أخيرًا، بل وتزداد وطأتها دومًا، وعلى مستمعنا الموهوب أن يعطيها قدرها الكافى من الاهتمام. فالملاحظ أن وجود أجهزة تسجيل وتشغيل التسجيلات الموسيقية، رغم ما حدث بها من تطور هائل، لم يغن عن العروض الموسيقية الحية حتى الآن، وهو ما أتاح الفرصة لانتشار الولع بالموسيقى الكلاسيكية القديمة على مستوى العالم، وأقصد هنا موسيقى الجهابذة فى مجال موسيقى الآلات Instrumental Music منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤): موسيقى عصر الباروك ممثلة فى باخ وهاندل، ثم المرحلة الكلاسيكية: (مدرسة فيينا الأولى) هايدن وموتسارت وبيتهوفن، ثم الموسيقى الرومانتيكية، مرورًا ببراهمز وفاجنر وليست وبرليوز وبروكنر ومالر وريتشارد شتراوس، وهو ما اعتبره خبراء التذوق موقفًا غير صحى بالمرة بتحول الظاهرة إلى نوع من الاستحواذ فرضته الموسيقى القديمة، مما نحى بتجربة التذوق إلى نوع من الاستماع الآمن الخالى من أى مغامرة جمالية، مادامت المادة الموسيقية المطروحة لأساتذة من الجهابذة توطدت مكانتهم على مر العصور، وأصبحت روائعهم قضايا مسلَّمًا بها فى قاعات الكونسير، والبرامج الموسيقية المتخصصة فى محطات الإذاعة حول العالم. إن امتلاء قاعات الكونسير بأصوات موسيقية مألوفة سيعمل على نشر شعور بالطمأنينة بين جماهير المستمعين، بينما هم يفقدون تدريجيًا قدراتهم على ممارسة أحكامهم الموسيقية فى حرية، مع سماع نفس العدد المحدود من المؤلفات الأصيلة، وشيئًا فشيئًا، ومع التداول المتكرر للروائع الموسيقية المضمونة، ستتحول الجماهير إلى الاعتقاد بأن تلك المؤلفات فقط، هى التى تستحق اهتمامها (وليس فى الإمكان أبدع مما كان)، وهو ما من خصائصه أن يُضيِّق مفهوم الجماهير العريضة عن الموسيقى، ويبعدها عن الكيفية التى تتنوع بها التجربة الموسيقية وتتسع، وبذا يلقى بأى أعمال أقل قيمة إلى الظل، أو على الأقل لا يضعها فى مكانها الصحيح، الأمر الذى أصبح معه المبدعون الجدد مهددين بالتجاهل والنسيان فى حياتهم، وتحولت معه قاعات الكونسير إلى متاحف سمعية Auditory Museums ـ أليس هناك ما هو أبلغ ضررًا بتجربة التذوق من التعصب لموسيقى بعينه، وهو ما تؤدى إليه تلك الظاهرة بالطبع، وقد كان أستاذى الراحل د. حسين فوزى دائمًا ما يحكى عن صديقه (فى الثلاثينيات من القرن المنصرم) الذى كان يأتى مهللاً ويقول: ليس هناك من يطاول سيزار فرانك Cesar Franck (١٨٢٢ ـ ١٨٩٠)، وما هى إلا بضعة أسابيع، ويعاودهم قائلاً: لا يعلو على براهمز Brahms (١٨٣٣ ـ ١٩٩٦)، ولا يكاد يمر شهران إلا ويأتى قائلاً: هو موتسارت Mozart ولا غيره..!! ـ على أنه مما يدعو للسخرية هو أن من تم إقناعهم بتركيز اهتمامهم على الروائع الموسيقية فقط، هم تحديدًا الذين يعانون أشد الصعوبات عند استقصاء جوانب التفرد والجمال فى الروائع الموسيقية نفسها. إن الريبرتوار Repertoire الضيق المحدود لقاعة الكونسير لن يتيح سوى تجربة موسيقية ضيقة ومحدودة. وما من متحمس حقيقى للموسيقا يرضى بأن يحبس نفسه مع عدة مئات فقط من سنوات التاريخ الموسيقى، فلديه ميل غريزى للبحث عن كل أنواع التجارب الموسيقية، ويكسبه فهمه الحدسى شعورًا بالثقة سواء كان بصدد كنوز للفن الموسيقى القوطى، تم فك طلاسمها توًا، أو سرعة بديهة وتلقائية مؤلِّف لشابربييه Chabrier، أو آخر لبيزيه Bizet، أو أحدث ما صدرته إيطاليا من تقاليع الدوديكافونية Dodicaphonism (الأسلوب الاثنا عشرى).



والمستمع الموهوب يدرك بفطنته أن الفضول الموسيقى الصحى، والتجربة الموسيقية العريضة، يشحذان ملكة النقد لديه. إن الاستماع لموسيقا فى أسلوب مألوف، والاستماع بروح جديدة ـ مع إغفال ما قاله، أو كتبه الآخرون ـ ثم اختبار القيم التى تضمنتها تلك الموسيقا بنفسك، لهو أول دلائل نجاحك كمستمع جاد وموهوب. وحتى الكلاسيكيات نفسها لابد من إعادة تفسيرها بدلالة عصرنا نحن، هذا إذا ما أردنا استماعها فى ثوب جديد، والمحافظة على حيويتها وإشعاعها الإنسانى فى حالة تمكننا من هضمه جيدًا. إلا أنه لكى نفعل ذلك، لابد لنا من اتباع غذاء موسيقى متوازن يتيح لنا أن نضع تقييمنا للجهابذة القدامى فى مواجهة الاتجاهات الموسيقية الحديثة حتى يظهر التباين جليًا، حيث إن الكلاسيكيات لن تكشف لنا عن معظم ما بها من معان، إلا فى ضوء التجربة الموسيقية الشاملة.

إن حلم أى مبدع موسيقى مخلص، ومحب لفنه، لهو دعوة مستمعيه فى كل مكان كى يشاركوا بفعالية فى المجتمع الموسيقى، باستماعهم لما يقدمه، واتخاذهم لموقف نقدى واع لكل مستمع على حدة، خاصة من كان موهوبًا منهم. إن جماع تلك المواقف معًا لهو المورد الرئيسى لدى المبدعين لجنى ثمار الطاقات الموسيقية المهولة لعصرنا، وفى نفس الوقت سيشكل القاعدة الراسخة لانطلاقهم نحو موسيقا للمستقبل.

يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) رائد التنوير فى التجربة المصرية، وفوكوزاوا يوكيتشى (١٨٣٥ - ١٩٠١) هو مثيله فى التجربة اليابانية فى القرن التاسع عشر



مصر واليابان ... تجربتان

عفاف عبد المعطى

ليست اليابان فى وعينا الثقافى إلا تلك الأسطورة التى حققت تطورًا اقتصاديًا مذهلاً دفع بها إلى أن تكون فى مقدمة الدول الصناعية الكبرى خلال فترة وجيزة من الزمن. ومع تحوّل مجتمعاتنا العربية إلى سوق استهلاكية رائجة، تحولت صورة اليابان فى الوعى العربى إلى منتج السيارة والأجهزة الكهربائية بدءًا من الكمبيوتر وانتهاء بجميع الأجهزة المتطورة.

وعلى الجانب الآخر نجد صورة العربى فى العقل اليابانى هى صورة الثرى المُستهلك الذى يمتلك موارد الطاقة التى يعتمد عليها الاقتصاد اليابانى اعتمادًا شبه تام، وعلى ذلك يمكن أن نصف العلاقات العربية اليابانية عامة بأنها علاقات يسيطر عليها البُعد النفعى المباشر من الطرفين سيطرة شبه تامة، وقد درج تطور وعى الجماعات البشرية على إدرك أن الثقافة والفكر ليسا إلا أبنية فوقية تصوغ حاجات الإنسان، وتعبر عنه بطرق مختلفة، لذلك تسعى كل جماعة بشرية لفهم الجماعات الأخرى لا من خلال إدراك الروابط النفعية المباشرة فقط، بل من خلال فهم الثقافة والفكر، أى من خلال فهم عقل الآخر. بينما علاقتنا باليابان ظلت - لأسباب كثيرة - علاقة نفعية مباشرة لا تتجاوز علاقة المستهلك بالمنتج إلى أى شكل من أشكال الحوار الثقافى أو التلاقح الفكرى.



جاءت النهضة الحديثة لليابان بأن عصر المايجى (١٨٦٨ - ١٩١٢) متزامنة - تقريبًا - مع محاولة إقامة الدولة الحديثة فى مصر منذ وصول محمد على إلى السلطة عام ١٨٠٥، وتبنى مشروع النهضة التى سبقت النهضة اليابانية بنحو نصف القرن، ولكنها عجزت عن أن تؤتى ثمارها فى الواقع المصرى بسبب الوضع الـ«جيوبوليتيكى» الذى جعل مصر مطمعًا للقوى الاستعمارية الكُبرى، ويزيد من ملامح التشابه بين ظروف اليابان وظروف مصر أن محاولات النهضة فى كلتيهما يمكن تاريخها بنمو الإحساس القومى والوطنى نتيجة لاكتشاف أطماع القوى الاستعمارية الأوروبية، أى نتيجة اكتشاف «الأنا» من خلال «الآخر» المُعتدى.

هكذا اكتشفت مصر طاقاتها من خلال الاحتكاك بالمعتدى الفرنسى المتقدم تكنولوجيًا متمثلاً فى الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١)، وبدأت النهضة اليابانية حين دقّ الجنرال الأمريكى ماثيو كالبرايت برى بسفنه الأربع ذات الأعلام السوداء أبواب خليج طوكيو مطالبًا بفتح أبواب موانئ اليابان للتجارة مع الغرب عام ١٨٥٣. لكن إذا كان لهذه الحادثة أهميتها ودلالتها، فإنها لا تمثل وحدها تفسيرًا مُقنعًا لتحول تاريخى فى مسار أمة. وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر عاملاً محركًا ضمن عوامل أخرى لبداية النهضة العربية، كذلك كانت حملة الجنرال «برى» جزءًا من مجموعة من العوامل أهمها وأخطرها - فيما يذهب المؤرخون المعاصرون - الهجوم على الصين فيما يعرف بحرب «الأفيون» من أجل فتح موانيها عنوة للتجارة مع الغرب، وبعد حرب الأفيون الأولى (١٨٤٠ - ١٨٤٢) تركز اهتمام أوروبا فى شرق آسيا على الصين، وكان لهذا الاهتمام تأثيره الحاد على اليابان، حيث تكرر مع اليابان ما سبق أن حدث مع الصين من فتح الموانئ جُزافًا فى أربعينيات القرن التاسع عشر، بينما مع اليابان كان فى الخمسينيات من القرن نفسه، وفى كلتا الحالتين كانت القوى البرجوازية الغربية تحاول السيطرة على أمم الشرق الأقصى التى لم يكن التحديث قد أصابها بعد، كى تؤسس سوقًا عالمية رأسمالية موحدة.

وإذا كانت التجربتان اليابانية والمصرية متشابهتين إلى حد كبير فى البدايات، مختلفتين فى النتائج، وكذلك من حيث الأطماع الاستعمارية الأوروبية التى أحاطت بكل منهما، فينبغى السؤال عن كيفية هذه البدايات المشتركة؟ حيث اتفقت المقدمات واختلفت النتائج.

اعتبر رواد التنوير فى القرن التاسع عشر أن قضية تواجدهم الأساسية مرتبطة بالدفاع عن نشوء الدولة الحديثة، وأثارت تحولات مرحلة الانتقال من وضعية تقليدية إلى أخرى حديثة عند أولئك المفكرين الرواد اهتمامًا كبيرًا، ومن ثم عكفوا - فى سبيل ذلك - على إيجاد رؤى مستقبلية قويمة للمجتمع الجديد تخرجه من أسر التقهقر إلى الخلف، إلى محاولة التقدم إلى الأمام، فكشفوا لمجتمعاتهم أفكارًا تقدمية عن واقع المجتمع فى مرحلة التنمية، وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الجديدة على مختلف الأصعدة، وقاموا يرسمون بفكرهم المستنير مستقبل المجتمع ومن ثم أرادوه فى مرحلة انتقالية من أخطر مراحل تواجده هى مرحلة التحوّل، محددين معالم العقد الاجتماعى الجديد الذى تطمح فيه تلك المرحلة، ثم عملوا على إيجاد نوع من التوافق بين الموروثين الثقافى والاجتماعى، وما يجب أن يُكتسب فى مرحلة الانتقال إلى الدولة الحديثة وصولا إلى إيجاد نسق اجتماعى / ثقافى هجين يحقق التواصل المأمول لحركة المجتمع الحديث، ويحقق - فى الآن نفسه - تقبّل المجتمع عامة لهذه المرحلة.



عرفت اليابان شخصية مقابلة للطهطاوى، هو فوكوزاوا الذى يُعدّ رائدًا للفكر الليبرالى فى عصر «مايجى» ونستطيع أن نميز ثلاث مراحل من تطوره الفكرى، المرحلة الأولى ١٨٦٢ - ١٨٦٩ التى ركز خلالها على التعريف بالغرب وحضارته عبر بعض الكتب التى ذاع صيتها فى حينه مثل «قدوم وذهاب الأجانب»، و«الأحوال فى الغرب»، و«دليل السياحة فى الغرب»، و«العلوم الطبيعية المصورة»،



التنوير بين مصر واليابان

دراسة مقارنة فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوا يوكيتشى

رءوف عباس

القاهرة: دار ميريت - ٢٠٠١

اهتم كل من فوكوزاوا والطهطاوى فى مجال الفكر السياسى بإعادة النظر فى الأفكار التقليدية التى تبرر سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام فى عملية تكوين الدولة الحديثة



و«جدول جميع البلدان». والمرحلة الثانية ١٨٦٩ ـ ١٨٧٧ قدّم فوكوزاوا أبرز ما يمكن أن يفيد منه اليابان من الحضارة الغربية وعلومها، وكتب فى هذه المرحلة كتابين مهمين هما «تشجيع المعرفة» و«الإلمام بالحضارة». أما المرحلة الأخيرة، فتمتد من سنة ١٨٧٧ حتى عصر وفاته ١٩٠١، وقد وضع فيها صيغة يابانية للفكر الحديث فى قضية الموروث والمكتسب من الآخر، فرأى الغرب يمتاز عن الشرق بالاعتماد على المنهج العقلى والرياضيات، وطبّق رؤيته على بلاد العالم فوجد أفريقيا تعيش مرحلة التوحّش، وتركيا والصين واليابان يعيشون مرحلة البربرية وأوروبا الغربية وأمريكا تعيشان مرحلة المدنية، فإذا أرادت اليابان أن تأخذ بمرحلة المدنية وأسباب التقدم، فعليها أن تطرح مرحلة البربرية وتتخذ من الغرب المثل الأعلى فتجعل المدنية الغربية هدفها الأسمى الذى تأخذ منه توافقًا مع ظروف موروثها، وحالية حاجاتها.

أما الطهطاوى، فقد أتم دراسته الأزهرية فى عام ١٨٢٢، وفى عام ١٨٣٤ نشر كتابه المشهور «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الذى قدّم فيه وصفًا للمجتمع الفرنسى كما شاهده أثناء إقامته هناك، أيضا قدم فيه العناصر الجديدة للمجتمع الأوروبى مثل وضع النساء ودورهن فى المجتمع، والطبقات الاجتماعية المختلفة والأحوال الدينية والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمع الفرنسى الحديث، لكن وصفه لتلك الظواهر لم يخل من نظرات نقدية. وفى عام ١٨٧٠ أصدر كتابه المهم «مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» الذى كان فتحًا جديدًا فى الفكر العربى الحديث، حدد فيه معالم الطريق الذى يرشحه لمصر لتسلكه فى نهضتها، وكيفية الاستفادة من علوم وثقافة الغرب مع الحفاظ على ما هو إيجابى من الموروث الثقافى العربى الإسلامى، وصاغ المفاهيم الأساسية للوطن والوطنية. وفى عام ١٨٧٢ نشر كتابه الثالث المهم «المُرشد الأمين للبنات والبنين» الذى أودعه خلاصة فكره الاجتماعى والثقافى، ومن هنا يمكن أن ندرك مدى تأثير فكر الطهطاوى على الجيل الذى تلقّى تعليمه فى عصر إسماعيل، وتفتح وعيه السياسى والثقافى فى عهد الاحتلال البريطانى، ولعب دورًا مهمًا فى صياغة المشروع الوطنى السياسى / الثقافى فى إطار التطورات التى شهدتها مصر حتى ثورة ١٩١٩.

لذلك يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) رائد التنوير فى التجربة المصرية، وفوكوزاوا يوكيتشى (١٨٣٥ ـ ١٩٠١) هو مثيله فى التجربة اليابانية فى القرن التاسع عشر، من حيث الدور الريادى / التنويرى الذى لعبه كل منهما فى مجتمعه، ومن حيث تأثير كل منهما فى مجاله الثقافى، رغم اختلاف ظروف اليابان ومصر فى مرحلة تكوين الدولة الحديثة هنا وهناك. إلا أنه لا يمكن إنكار أن كلاً من الرائدين فوكوزاوا والطهطاوى قد أثّر تأثيرًا جليًا فى التجربة التاريخية لبلاده وما صاحبها من تغيرات جوهرية. وكان إطارهما المرجعى واحدًا وحقبتهما التاريخية متقاربة. فكلاهما تأثر بالنموذج الغربى وكلاهما حاول البحث عن صيغة تمزج بين الموروث والمكتسب، وتحافظ على خصوصية الثقافة الوطنية، وتُطعّمها بما تراه ضروريًا لتجديدها وإكسابها القدرة على التواؤم مع المتغيرات الحديثة.

فى خضم الأحداث التى شهدتها فترة التحوّل إلى الدولة الحديثة فى اليابان ومصر، لعبت الظروف الموضوعية لكل من البلدين دورًا مهمًا فى تحديد ملامح حقبة الانتقال التى حققت نتائجها فى اليابان وعجزت عن تحقيقها فى التجربة المصرية، ومع اختلاف الظروف والمعطيات والنتائج؛ فإن لكل من التجربتين جانبها الثقافى الذى تطلب جهدًا فكريًا لمعالجة مرحلة التحوّل. وقد لعب فوكوزاوا فى اليابان دورًا شبيهًا بالذى لعبه الطهطاوى فى مصر، على اعتبار التواجد التاريخى للطهطاوى قبل فوكوزاوا.



اهتم كل من فوكوزاوا والطهطاوى فى مجال الفكر السياسى بإعادة النظر فى الأفكار التقليدية التى تبرر سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام فى عملية تكوين الدولة الحديثة. بالنسبة لليابان؛ كانت فكرة «الميبون»؛ أو ما يتصل بالخضوع للسلطة فى علاقة الحاكم بالمحكوم على نحو مناظر لعلاقة الآباء بأطفالهم والزوج بزوجته فى إطار التقاليد اليابانية المتوارثة. ومن ثم مارس الحُكّام سلطة أبوية مطلقة على المحكومين. وساد الاعتقاد بأن البشر غير متساوين فى المنزلة وأن المجتمع مجتمع هرمى تراتبى بطبيعته، وأن تساوى الرءوس بين الناس ينتج عنه الفوضى والاضطراب. وما ساعد على ذلك فى النموذج اليابانى أنه لم يكن هناك ما يبرر خلع الحاكم الظالم تطبيقًا لفكرة تفويض السماء، بل إن سلطة الحاكم امتدت لتطول مختلف مظاهر حياة المحكومين وكانت لا حدود لها، مثلما كانت سلطة الأب على أبنائه لا تعرف حدودًا.

وقد تصدّى فوكوزاوا يوكيتشى فى القسم الأول من كتابه «تشجيع التعليم» مقررًا بأن السماء لا تخلق إنسانًا يعلو على غيره أو إنسانًا أدنى من غيره، لأن ذلك يعنى أن الناس عندما ولدوا كانوا سواسية لا فرق بينهم فى المنزلة، وبتلك العبارة قد نأى فوكوزاوا بنفسه تمامًا عن جوهر الفكر السياسى التقليدى، حيث كانت هناك فجوة كبيرة بين الأفكار التقليدية المتعلقة بالحكومة وتبرير سلطتها.

وأخذ فوكوزاوا على عاتقه نشر أفكار المساواة بإمعان النظر فى التوازن بين العلاقات الإنسانية وأن الناس جميعًا متساوون قد يختلفون فى المظهر ولكن المساواة إنما تكون فى الحقوق، وقد تكون هناك اختلافات بين البشر من حيث المظاهر الخارجية كالغنى والفقر والقوة والضعف والذكاء والغباء، ومهما كانت أوجه الاختلاف بين الناس كالاختلاف بين السحب فى عنان السماء والأوحال فى الأرض، فإن ذلك لا يبرر التمييز بين الناس فى الحقوق؛ فهم فيها سواسية وهى لا تعرف تفرقة بين عظيم وحقير، وأكد أن التفاوت فى الثروات بين الناس إنما جاء نتيجة عملهم وليس بقرار من السماء، لأن الثروة والقوة والعظمة كلها أمور تلعب دورًا فعالاً فى تغيير أحوال الناس. فتحرير الإنسان وحصوله على نصيبه من أفراح الوطن وأتراحه أفضل كثيرًا من مبادرة الحُكّام الذين يخضعون الأغلبية لمشيئتهم.



وإذا كان اليابانيون يسعون إلى الاستقلال عن الغرب؛ أو أن تسود اليابان روح الدفاع عن البلاد ضد التهديد الأجنبى. فإن ذلك لا يتحقق إلا عندما يحصل الناس على حقوقهم، وسرعان ما قام الناس الذين تأثروا بأفكار فوكوزاوا بتنظيم الحركة المطالبة بالحرية وحقوق الشعب التى كان هدفها نشر روح الحرية فى البلاد.

فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية كانت الشريعة تنظم علاقة الناس ببعضهم البعض، وكذلك علاقتهم بالله، واعتبر المسلمون جميعًا ـ نظريًا ـ سواسية فى المجتمع لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، ولكن من الناحية الفعلية كان التمايز موجودًا بين الناس، كما كان لكل فرد موقعه المحدد فى الهرم الاجتماعى، واعتبر الحُكّام أنفسهم يستمدون حكمهم من إرادة الله لا معقب عليهم إلا الله ولا رقيب عليهم إلا ضمائرهم، ورغم أن الحاكم كان ملتزمًا ـ نظريًا ـ آنذاك باستشارة أهل الرأى فى المجتمع قبل اتخاذ قراره وما أحاط بذلك من غموض يتصل بكيفية ممارسة الشورى ومدى التزام الحُكّام بها، فإن تطبيق هذا المبدأ لم يكن موضع الاعتبار، بل رأى المفكرون المسلمون أن وجود الحاكم ضرورى لإقامة العدل، وعدّه بعضهم ظل الله على الأرض الذى يجب أن يخضع الناس له مهما صدر عنه.

ربما كان أكثر مظاهر التنظيم السياسى أهمية عند فوكوزاوا والطهطاوى هو المبدأ الأوروبى الخاص بسيادة القانون وارتكان الحكم إليه، فالطهطاوى يلاحظ أن السمات المميزة للحكومة الأوروبية هى دستوريتها بغض النظر عن نوع نظام الحكم، مع وجود فصل واضح بين مختلف فروع السُلطة تطبيقًا لمبدأ الفصل بين السلطات. وعليه كان ينظر إلى السُلطة السياسية من خلال التفكير الإسلامى التقليدى، بل نجده يتوسّع فى بعض النواحى توسعًا كبيرًا وخاصة فى النقاط التى آثارها حول نظام الحكم، وفى دلالة التطورات التى شاهدها فى فرنسا.

ولم تكن فكرة الطهطاوى عن الدولة ـ بالرغم مما شاهده فى باريس ـ فكرة ليبراليّ القرن التاسع عشر، بل كانت الفكرة الإسلامية المأثورة، فهو ـ توفيقًا ـ يحاول النظر فى الأسس النظرية للفكر السياسى الأوروبى فى ضوء الإسلام، تأكيدًا على أن الحكومة ضرورية للمجتمع لا حياة له بدونها «فالملك كالروح والرعية كالجسد، ولا قوام للجسد إلا بالروح»، فهو يرسم لنا تصوره لركنى الدولة، وضرورة وجود «القوة الحاكمة» ضمانًا للاستقرار ولانتظام العلاقات بين أفراد «القوة المحكومة»، فإذا كانت القوة الحاكمة «جالبة للمصالح دارئة للمفاسد»، فإن القوة المحكومة هى «القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ووجوده وتحصيل سعادته دنيا وآخرة»، فهو هنا يعتبر الحكومة والناس طرفين يقوم عليهما المجتمع، لكلٍ وظائفه ومجاله، فليس الناس ملكًا للحكومة، ولكنهم أحرار لهم حق التمتع بخيرات بلادهم.

وإذا كان الطهطاوى قد قبل بسلطة الحاكم الفرد، إلا أنه كان حريصًا على إبراز الحدود اللازمة على تلك السلطة، فيرى أن أعباء الحكم لا يستطيع حملها فرد واحد، ولذلك وجب على الحاكم أن يفوض سلطاته للمجالس التى تقام لهذا الغرض. ويجب أن يستعين بالعلماء الذين يقدمون له المشورة، وبذلك يوسع مفهوم «العلماء»، فلا يجعله مقصورًا على علماء الدين، بل يشمل العلماء فى مختلف مجالات المعرفة. ويذهب الطهطاوى إلى أن العلاقة بين الحاكم والرعية تقوم على الحقوق والواجبات، فللحاكم على الناس حق الطاعة، غير أنه يجب عليه فى مقابل ذلك أن يؤدى واجباته تجاههم.

حرص الطهطاوى على أن يجعل تلك الأفكار التى طرحها على القارئ العربى مقبولة، فقرر أنه لا يوجد فرق كبير بين مبادئ الشريعة الإسلامية ومبادئ «القانون الطبيعى» الذى يرتكز إليه التشريع فى أوروبا الحديثة، مما يعنى إمكانية تفسير الشريعة الإسلامية تفسيرًا يتفق مع حاجات العصر، وفى تبريره لذلك أبرز القاعدة الفقهية التى تذهب إلى أنه يجوز للمؤمن أن يقبل بتفسير لنص مستمد من مذهب آخر غير مذهبه اعتمادًا على مبدأ المصلحة، ويقرر أن من واجب العلماء تفسير الشريعة على ضوء المصلحة التى تغيرت نتيجة للحاجات التى استحدثت.



وقد أدى تكوين الدولة الحديثة فى اليابان ومصر إلى ضرورة التماس مع المعارف الغربية الحديثة، ووقع على عاتق المُعلّمين الكبار أمثال فوكوزاوا يوكيتشى ورفاعة الطهطاوى صياغة ملامح التعليم الحديث كلٌ فى بلده، فعلى كلٍّ منهما أن يدمج المعرفة الحديثة المكتسبة من الغرب فى إطار الثقافة الوطنية الموروثة ليخلق منها شكلاً جديدًا من المعرفة يناسب بلده، بمعنى أنه قد سعى كل منهما إلى بناء شكل من أشكال المعرفة الحديثة فى بلاده يواجه حاجات المجتمع فى مرحلة النمو، دون أن يقطع أواصر الصلة مع الطابع الثقافى المتميز للبلاد.

ولما كان تحقق التقدم دائمًا الشغل الشاغل لرواد فكر التنوير والمحور الذى تدور حوله أفكارهم، فكل من فوكوزاوا والطهطاوى رأى فى التاريخ جزءًا من التطور نحو تحقيق الحضارة، واستطاع الرائدان من خلال دراسة مُتأنية أن يكتشف كل منهما موقع المنجزات الحضارية وكيف أصبح الحاضر أفضل من الماضى، وعليه يمكن استشراف التقدم فى المستقبل. بالتماس مع النموذج الغربى، فصاغ كل من فوكوزاوا

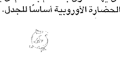
عند المقارنة بين حال مصر واليابان اليوم يبدو تخلى مصر التام عن هويتها الثقافية والحضارية وتمثلها التام لشخصية الغرب، فى حين أن اليابان لم تبن نهضتها على الاندماج مع تقاليد الغرب وعاداته، إنما كانت تحرص على موروثها وروحها القومية الجماعية

والطهطاوى آراءهما فيما يتصل بتحقيق نمط حضارى خاص ببلد كل منهما يتناسب مع ظروف مجتمعه.

نظر الطهطاوى الى التاريخ باعتباره حركة تقدمية يقطعها الإنسان على طريق الحضارة، وسجلاً للحضارة البشرية، ومن بين مؤلفاته مجلدان عن تاريخ مصر و قصد الكتاب أن يكون الأول فى سلسلة تعرض لكل ما يجب أن يعرفه المصرى الحديث عن بلاده، لأن دراسة التاريخ تفيد الأمم وتلعب دور التعليم نفسه فى صياغة وإذكاء الروح الوطنية، والتبصّر بتجارب الماضى يعين الأمة على حل مشاكلها الراهنة.

شجَع الطهطاوى على الاتصال بأوروبا حتى يحفز التقدم الحضارى فى البلاد العربية، لأن الاتصال بالبلاد الأجنبية يماثل حرية العمل ولا يستقيم بدونها، وأنه يجب على من يقومون بهذا الاتصال طلب العلم والمعرفة وخدمة أهداف الأمة والاتصال بالأجانب وخاصة أهل العلم منهم لتزويد الوطن بأسباب التقدم. وفى هذا السياق امتدح سياسة محمد على الذى أنهى عزلة مصر وتشجيعه الاتصال بالأجانب لأن ذلك يعود بالنفع على الاقتصاد المصرى.

وفى السياق نفسه، لم يحاول فوكوزاوا أن يكتب تاريخًا مستفيضًا لليابان، ولكن كتاباته عن الحضارة قادته إلى تقديم أول نقد للمدرسة التقليدية التاريخية فى اليابان. فقد رأى تلك المدرسة قد جانبها الصواب عندما زكّت السلوك الأخلاقى للحاكم ووزراءه، فليس من الحكمة أن نتصور أن تتحقق الرفاهية فى بلد ما لمجرد تمتع حكامها بحسن الخلق : لأن شعور الناس بالاستقرار يعتمد على ما بلغوه من درجة التقدم ويعتمد هذا بدوره على «روح العصر»، لأن الأبطال والعظماء لا يمكنهم ابتداع أحداث خارجة عن روح العصر فلا يحققون النجاح إلا عندما يسايرونها ولما كان التقدم قانونًا طبيعيًا، فقد رأى فوكوزاوا أن الإنسان بطبعه مرهون بالتقدم والحضارة مرتبط بهما. ولذلك يأخذ بأسبابهما بصورة طبيعية دون أن يشعر، فالحضارة تتسم بالحيوية والحركة، إذ تمر بدورات ومراحل عدّة، فالمجتمعات البدائية تمر بمرحلة شبه التقدم، والمجتمعات شبه المتقدمة تمر بمرحلة الحضارة، والحضارة ذاتها تتطور إلى أشكال أرقى باطّراد، فعلى كل من يهتمون بتقدم بلادهم أن يتخذوا من الحضارة الأوروبية أساسًا للجدل.



كان كل من فوكوزاوا يوكيتشى ورفاعة الطهطاوى رائدًا فاعلاً فى بلاده، وقد ترك كل منهما أثرًا بالغًا على تطور الفكر الحديث وأثّرا تأثيرًا كبيرًا فى جيل المثقفين المعاصرين لهما. وقد حاول كل منهما ان يصوغ أفكارًا فى مجالات السياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعى والتعليم والمعرفة، وأن يطرح مفاهيم جديدة للحضارة وسبل ترقيتها متبعًا فى ذلك أساليب راديكالية أحيانًا وتوفيقية أحيانا أخرى. ولما كان المفكران قد تأثرا بالفكر الليبرالى الغربى المُتاح فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، فقد اتفقت مصادرهما بقدر ما اتفقت الأطر المرجعية التى ركنا إليها، ورغم إعجابهما الصريح بالفكر الغربى والحضارة الغربية، إلا أنهما لم يميلا إلى اقتباس تلك الحضارة ونقلها بلا وعى وتبنيها دون تحفظ، فقد فضّلا اتباع أسلوب انتقائى عن الاقتباس من الحضارة الغربية لا يتعارض مع الثقافة الوطنية لمجتمع كل منهما وظروفه الموضوعية.

ولما كان المفكران قد تأثرا بالمصادر والأطر المرجعية للفكر الغربى نفسه، فقد كانت آراؤهما متشابهة فى كثير من الحالات حول موضوعات المساواة وحقوق الشعب والعلاقات الأسرية والتعليم والحضارة والدعوة إلى التقدم رغم اختلاف الظروف التاريخية والثقافية للمجتمعين اليابانى والمصرى اختلافًا جذريًا، مما جعل فوكوزاوا أكثر راديكالية وجرأة فى نقده للمكون الأخلاقى فى الثقافة التقليدية اليابانية فيما يتصل بمسائل شائكة مثل وضع المرأة والعلاقات الأسرية، وقد عالج الطهطاوى الموضوعات نفسها من قبله، ولكن بحرص شديد واتجاه قوى إلى التسامح مع الموروث الثقافى شديد الميل إلى التوفيق بينه وبين الأفكار المُكتسبة.

وكان من السهولة بمكان بالنسبة لفوكوزاوا أن يحارب بضراوة الكنفوشية والتعاليم الصينية التقليدية، وأن ينتقد أفكار الحكماء ويسفه منٍ تعاليمهم التى كانت تعدُ بمثابة تابوهات أو ما يماثل الثالوث المُحرَم، وهو أمر لم يكن باستطاعة الطهطاوى أن يفعله، لأن القيم الخُلقية التقليدية فى الثقافة العربية ذات اتصال بالدين، والدين له وضع خاص ليس له نظير عند اليابانيين، ولذلك تمتع الطهطاوى بميزة لم تتوفر لفوكوزاوا، فقد استفاد من الإطار الرحب الفضفاض للثقافة الإسلامية فوظّف الجوانب الإيجابية منها لدعم وتمرير الأفكار الجديدة التى طرحها لأول مرة فى محاولة لإقناع الناس وتبديد مخاوفهم منها، فى سياق نقد القصور فى تفسير القيم الثقافية المتوارثة، وإيجاد نوع من الرابطة بينها وبين الأفكار الجديدة التى يدعو إليها.



والسؤال الآخر الذى ينبغى أن نطرحه: لماذا تقدمت اليابان بهذه الصورة وتعثرت مصر؟! بمعنى آخر إذا كانت التجربتان اليابانية والمصرية متشابهتين إلى حد ما من حيث التزامن التاريخى لمحاولة النهوض والارتقاء بشأن الأمة، ومن حيث طبيعة الاستعمار الأوروبى الذى أحاط بكل منهما، فما الذى أدّى باليابان إلى سيادة نهضتها عالميًا؟ على حين انتكست مصر إلى درجة لا تحتاج إلى تفسير؟ بداية استطاعت اليابان - بفضل موقعها الجغرافى - أن تنجح فى بناء الدولة القومية الحديثة وأن تدخل فى مصاف الدول الكبرى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهى ظروف لم تتح لمصر التى تقع فى قلب العالم القديم فى مفترق الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، مما جعلها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تحقق درجة من القوة تُمكّنها من أن تصبح قوة إقليمية، أو أن تقع ضحية للقوى الكُبرى صاحبة المصالح المهيمنة على ذلك الإقليم البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية،وقد صاغ هذان الخياران تاريخ مصر منذ أقدم العصور، فعندما يشتد ساعدها وتقوى - على اعتبار وضعها كشقيقة كبرى للدول العربية من جهة وموقعها فى قلب الوطن العربى من جهة أخرى تصبح الدولة المركزية إقليميًا. فإذا أصابها الوهن كانت ضحية من قِبَل القوى الخارجية لسواها، فى حين أن هناك أسبابًا فعلية حققت لليابان تقدمها الملموس:

١ - عكف اليابانيون منذ تسعينيات القرن التاسع عشر على دراسة تغلغل الاستثمارات الأجنبية فى مصر، وما ترتب عليه من نتائج سياسية، وظهرت فى هذا الأمر دراسات متفرقة؛ كتب الرائد الاقتصادى ساوايشى فى يومياته التى نشرت فى هذا الموضوع، كما ظهرت بعض المقالات فى الصحف عن موضوع الديون المصرية والتدخل الأجنبى فى مصر كتبها بعض الساسة البارزين مثل ليتوهنزبومو، وماتاسكانا ميرونيشى، وأوكوماشنديز.

٢ - رأى المفكّر اليابانى يوكوى شونان (١٨٠٩-١٨٦٩) أن الانفتاح على الغرب سوف يؤدّى إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية للشعب اليابانى مما يعوقه عن العمل، وإذا تطلّب الأمر الانفتاح يصبح مشروطًا بمصلحة اليابان والشعب اليابانى فحسب.

٣ - عند المقارنة بين حال مصر واليابان اليوم يبدو بسهولة واضحة تخلى مصر التام عن هويتها الثقافية والحضارية وتمثلها التام لشخصية الغرب واعتناقها كل طرائق حياته، والعمل بروح الفردية بدلا من ذيوع روح الجماعية، فى حين أن اليابان لم تبن نهضتها على الاندماج مع تقاليد الغرب وعاداته، إنما كانت تحرص على موروثها وروحها القومية الجماعية والاستفادة من الأجنبى بالقدر الذى يساعد صناعتها وإنتاجها المادى بما ينميه نموًا كاملاً يخطو به إلى تجاوز الأجنبى نفسه.

٤ - أُلّفت فى اليابان كتب كثيرة للدفاع عن الثقافة اليابانية وعن نمط الحياة بشكل عام، وللدفاع أيضًا عن كيان الدولة ضد هجوم المستشرقين، وضد سخرية بعض علماء الغرب من اليابان وعاداتها وتقاليدها.

٥ - هناك خطأ متجذر فى الواقع المصرى يتجسّد فى الولع بالنمط الغربى فى كل شىء منذ عصر إسماعيل حتى التبعية الاقتصادية والسياسية. الأمر الذى أدّى فى النهاية إلى عملية اختراق كاملة فكريًا وثقافيًا وحضاريًا تضافرت كل الجهود الخارجية والداخلية لتكريسها.

٦ - هناك مرحلة من التحوّل شملت مصر استبدلت فيها الاعتماد على الذات وتوظيف كل الموارد لصالح المجتمع بدلا من استجداء الهبات والمساعدات، واستبدال مجتمع البناء والتنمية بمجتمع بيع كل شىء بما فيه التراث والتاريخ.



هذه أسباب ضمن أسباب كثيرة تفرض علينا أن نقف مليًا نتأمل فى الماضى والحاضر، علّنا ننقذ ما تبقى فى المستقبل، خاصة عندما نرى صورة اليابان وقد قدمتها لنا رحلتان تستمد كل منهما أهميتها من حيث الظرف التاريخى الذى وقعت فيه، حيث كانت رحلة الشيخ على أحمد الجرجاوى (صاحب الرحلة الأولى لليابان وقد بدأ رحلته إلى اليابان، ثم نقلها بإعجاب رومانسى بالتجربة اليابانية للنهضة فى عصر مايجى والذى مثّل رجع الصدى لموجة الانبهار بالنصر اليابانى على روسيا عام ١٩٠٥) أول القرن العشرين إلى اليابان، ثم كانت رحلة يوسف القعيد آخره. فتمَّ منهما إسقاط مقارنة عادلة بين الأمتين المصرية واليابانية. فكيف كانت اليابان (بلاد الشمس المشرقة) أول القرن العشرين كما صورها الجرجاوى - أو انبهر بها - وكيف صارت حالما زارها القعيد آخر القرن؟ ومما بين الرحلتين من ثوابت ومتغيرات يمكن رصد طرائق التطور المذهل الذى لحق باليابان، بما أدّى إلى صراع الين مع الدولار.

وتجمع الآراء على أن أصل تقدم اليابان المادى والأدبى وعلو شأنها فى مضمار الحضارة هو نشر التعليم العصرى، وهى من القضايا المُسلّم بها، المهم فيها كيفية اعتناء اليابانيين بالتعليم، هذا الاعتناء الذى لم تشاركهم فيه أية دولة شرقية أخرى.

ومع مواكبة هذه الحضارة وشدّ الخطو إليها كان على الأمة اليابانية أن تنظر داخلها الى ترقية أحوال المرأة والتعليم. وقد اهتمت الأمة اليابانية أول القرن العشرين بالمرأة اهتماماً كبيرًا فعندما تصل إلى الخامسة من عمرها يدخلها ولى أمرها المدرسة مهما كان فقيرًا، فإنه يكدّ ويكدح فى سبيل الإنفاق عليها ويقدم الاهتمام بها على كل أمر يهمه فى الحياة، بل إن المجتمع نفسه يعتبر من لم يدخل ابنته من أحط الناس منزلة وأسفههم عقلاً.

وقد ظهرت آثار تربية المرأة اليابانية فى الحرب مع السوفييت ١٩٠٤، بفضل التربية والتعليم، والجرجاوى يقارن بينها وبين المرأة الشرقية التى امتازت بمزية السبق فى ميدان الحضارة على غيرها من نساء الأمم، ولكن إذا

صادفت من يعتنى بها، فلو اعتنى المصريون الاعتناء الحقيقى بتربية البنت لما كُنَّا نرى من مفاسد المجتمع وتأخره شيئًا.

إن كل من يتحدث عن الأمة اليابانية وما وصلت إليه من الرقى المادى والأدبى، لا يمتلك إلا أن يسنده جُلّه إلى العلوم والمعارف التى أقبلت عليها اليابان - منذ بكورة نهضتها - بِنَهَم، ولكن إذا أراد الشرقى أن يدرك سرعة ترقى هذه الأمة، تلك السرعة المذهلة فى الترقى التى لم تُوَفّق إليها أمّة أخرى من الأمم فى الماضى والحاضر وقف وقفة الحائر، لأن الدرجة التى وصلت إليها فى الترقى لا يكفى لها قرن من الزمان للحديث والوصف، ومبلغ ما يقف عنده المرء من جهد الفكر فى التعليل هو الرغبة الزائدة والإقبال الفائق من سائر طبقات الحكومة والأهالى والأفراد معًا فى نشر التعليم.

والعالم الذى يقدمه الشيخ الجرجاوى فى سِفْرِ الحديث عن رحلته أول القرن العشرين لليابان مرتبط برؤيته، وإذا كان من المُسلّم به أن يتسبب التعليم فى نهضة الأمم، وكان الجرجاوى قد لاحظ الاهتمام الكبير بالتعليم فى بداية القرن العشرين - خاصة تعليم الفتيات - فإن القعيد - خلال رحلته هو الآخر - قد راعه نظام التعليم الموجود فى اليابان الذى أدّى إلى عدم وجود أمّى واحد فى القطر اليابانى بأسره.

فى نهاية القرن العشرين تضم اليابان ما يقرب من ٥٥٠ جامعة منها ٩٥ حكومية وبعض الجامعات الخاصة ذات الوزن الأكاديمى، ولا تكاد تخلو جامعة من مادة أو أكثر فى الدراسات الإسلامية والعربية وشئون الشرق الأوسط، وهناك ثلاثة أقسام متخصصة فى الدراسات الإسلامية والعربية، واحد حكومى فى طوكيو واثنان فى جامعة أوزاكا، ويمكن القول أن نسبة العلماء المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية فى اليابان هى بمقياس عدد الطلاب كبيرة جداً. والجامعة الثانية فى أوزاكا، وقد زار وفد منها مصر سنة ١٩٨٢ للتمهيد لإنشاء قسم خاص بدراسات الإسلام واللغة العربية فيها وقابل الوفد شيخ الأزهر، وافتتح القسم بها فى العام الدراسى ٨٣ / ١٩٨٤.

وفى الشوارع المؤدية إلى الجامعة عدد كبير من الدراجات، والشوارع حول الجامعة مصممة لوفود الدراجات، والخطوط البيضاء تحدد لكل دراجة مكانها. وهذا على عكس الجامعات عندنا، حيث نجد أن مدخل الجامعة عبارة عن غابة من السيارات آخر موديل وأحدثه، والمفارقة أن التعليم فى مصر مجانى والتعليم فى اليابان منذ الحضانة إجبارى ومجانى.

وإمعانًا فى الديمقراطية، يظهر مكتب رئيس الجامعة عاديًا ولا يوجد أمامه طابور من السعاة والفراشين، وهو يحضر إلى مكتبه فى الثامنة صباحًا وينصرف إلى منزله فى الخامسة، و يتناول وجبة الغداء مع الطلاب بالجامعة ويقف فى الطابور مثلهم من أجل أن يحصل على وجبته، ولا يجرؤ أن يطلب من سكرتيرته أن تذهب بدلاً منه لإحضارها له، لأنها تحصل على وجبة لها مثله.




وإذا كانت اليابان تمثل القوة الاقتصادية الأولى فى العالم، فقد باتت طوكيو آخر القرن أعظم كيان مصرفى فى العالم، وأكبر عشرة بنوك على الأرض، الخمسة الأولى منها يابانية، وفيها ناتج إجمالى يفوق نظيره فى أمريكا وأوروبا، وعلى الرغم من أن اليابان تضم ٣ ٪ من سكّان العالم، إلا أنهم يعيشون على ٠٣,٠ ٪ من الأرض، فأى معجزة تلك؟، وإذا كان كل شىء فى اليابان يحكمه النظام الصارم الذى أدى بها على مدار عقود قليلة أن تزود العالم تكنولوجيا واقتصاديا، فإن المدخرات اليابانية هائلة وناتجة عن أن كل مواطن يابانى يدخر ٢٠ ٪ مما يحصل عليه طوال حياته، وهذا يعنى أن البنوك مكتظة بالأموال ويمكنها أن تغذى الصناعة بقروضٍ فوائدها لا تُذكر. وبعد تقديم صورة ملحوظة لتقدم اليابان بصورة تراكمية منذ أول القرن حتى آخره، فالسؤال الذى ينبغى أن يطرح نفسه، ما مشكلات اليابان؟ وهل يعانى مثل هذا المجتمع من الهموم؟ بالفعل اليابان مجتمع يعانى من مشكلات، وهموم اليابان بعضها من الثوابت القديمة وهى قليلة والبعض الآخر من متغيرات العصر، لذلك يدفع اليابانيون بعض ضرائب التقدم المذهل.

من الثوابت ضيق المساحة الشديد الذى دفع باليابانى إلى أن يكون منظمًا لدرجة تفوق الخيال، فالشقة تسكنها عائلة مساحتها ٥٠ مترًا، وسكن الأعزب بمفرده لا يزيد على مترين فقط، والإحساس الحاد بالعزلة الناتجة عن الحياة وسط المياه تحدها من كل جانب. أيضًا انخفاض مُعدّل المواليد بشكل لافت للنظر - كما تؤكد الدراسات اليابانية - مع بداية القرن الحالى سيصبح ٢٥ ٪ من اليابانيين أعمارهم أكثر من مائة عام، وهم يعتبرون أن الإنسان اليابانى المُتقدّم فى العمر مفخرة لليابان. لكنه سيحمّل المجتمع عبئًا إضافيًا يتمثل فى رعاية كبار السن، وجعل حياتهم ممكنة وسهلة، وهذه المشكلة لها أوجه أخرى فمع مقدمات القرن الحالى سيكون لدى اليابان أقل نسبة سكّان فى سن العمل بين الدول الصناعية الكُبرى، وهذا سيفرض تامينات اجتماعية ستؤثر على دينامية العملية الإنتاجية، كذلك قد تحدث ندرة فى اليد العاملة اليابانية. وهى مشكلة ناتجة عن مشكلة أخرى أكثر تعقيداً هى مشكلة النسل، فالشباب اليابانى لا يريد الزواج، حيث حوّل المجتمع انعدام هذه الرغبة لدى الشباب إلى تجارة، فسلسلة المطاعم التى تحمل اسم العائلة - على سبيل السخرية - تقدم للأعزب كل ما يحتاجه وهو - ربما - يساعد على هذا الموقف ضد الزواج.

عـــروض موجـــزة

كتب عربية

المرأة والكتابة
رشيدة بنمسعود
الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، ١٧٥ صفحة



الافتراض الأساسي الذى سعت المؤلفة للدفاع عنه هنا هو التأكيد على خصوصية الكتابة النسائية عبر مستويين: نظرى وتطبيقى، إذ سعت إلى تصحيح مفهوم الكتابة النسائية الذى تعرض للرفض من قبل النقاد والمبدعين فى بداياته، ثم تابعت تطوره منذ الخمسينيات وأثبتت أن أسباب رفض مصطلح أدب المرأة، إنما يعود إلى غياب تصور نقدى غير واع بالقضية ومتأثر بالآراء الداعية إلى المساواة بين الجنسين وبالأفكار الاشتراكية التى جعلت الإنتاج الفنى مجرد انعكاس لما يجرى فى الواقع، ومن ثم لم ير أصحاب هذا الاتجاه فى الكتابة النسائية إلا تعبيرًا عن الهموم الاجتماعية المشتركة بين كل إبداع فنى سواء أنتجه الرجل أو المرأة، والمبدعات اللاتى رفضن المصطلح فسرن ذلك برغبتهن فى انتحال موقع الرجل. وبالعودة إلى التاريخ ومناقشة الأحكام النقدية التى فسرت اقتصار المرأة على بعض الأغراض الشعرية مثل الرثاء بطبيعتها الأنثوية التى تتلذذ بالبكاء والحسرة. كشفت المؤلفة خطأ تلك الأحكام وأرجعتها إلى الواقع المجتمعى العربى آنذاك والذى جعل المرأة تستبدل الأخ بالحبيب أو أحد أفراد العائلة كطرف فى الحوار، ولاحظت المؤلفة أن المرأة كتبت فى كل الأغراض الشعرية وهو ما بدا جليًا فى العصر العباسى.

وتتبعت الباحثة ارتباط عملية الخلق والإبداع بمستوى الوعى التحررى والثقافى عند المرأة، إذ لم يتحقق هذا الوعى - فى رأيها - إلا بعد لقاء العرب بالغرب عبر الحملات الاستعمارية والبعثات الثقافية. وتابعت بروز هذا الوعى والدعوة إلى تحرير المرأة عند الطلائع الأولى للنهضة العربية فى مصر: رفاعة رافع الطهطاوى، قاسم أمين، ملك حفنى ناصف، هدى شعراوى، منيرة ثابت، درية شفيق، عائشة التيمورية، سهير القلماوى، أمينة السعيد وجاذبية صدقى.

وتلمست المؤلفة تأثير الحركة النسوية فى مصر على نظيرتها فى المغرب وأشارت إلى أن علاقة المغاربة بالتعليم قبل فترة الحماية وخلالها ظلت محكومة بجمود جعل التعليم يتوقف عند الرجال دون النساء. وأرجعت ذلك إلى «التأخر الثقافى عند الإنسان المغربى المرتبط بالأيديولوجية الذكورية السائدة فى تلك المرحلة وإلى السقوط السياسى الذى عرفه مغرب ما قبل الحماية».

وفيما يتصل بالوعى النسائى والمسألة الثقافية، تلاحظ المؤلفة أن عدد النساء اللائى يمارسن الكتابة الفكرية والإبداعية فى المغرب كبير جداً. وأرجعت ذلك إلى المشروع النهضوى الذى دافع عنه رواد الحركة الوطنية المغربية وتصوراتهم التقدمية للمسألة الثقافية على الرغم من غياب رموز طلائعية بين الرجال أو النساء تدافع عن قضية تحرير المرأة كما كان الحال فى مصر، بالإضافة إلى غلبة السياسى على الثقافى فى دفتر المطالبات الشعبية.

وعلى المستوى القصصى، تلاحظ المؤلفة غياب المرأة فى مجمل تاريخ القصة المغربى، وتشير إلى أربع من رائدات هذا الفن فى المغرب هن آمنة اللوه، ومليكة الفاسى، وخناثة بنونة ورفيقة الطبيعة. وعبر مناهج النقد الأدبى الحديث تقوم المؤلفة بطرح نماذج تطبيقية تعكس تطور الأدب النسائى المغربى وقضاياه وموضوعاته وموقعه من مطالبات التحرر فى مفهومه الأشمل وتحقيق الاستقلال السياسى والثقافى.

□ □ □

المرأة ولعبة الحرف فى شعر نزار قبانى
رفيقة البحورى
تونس: دار محمد على الحامى ٢٠٠١، ١٦٥ صفحة



تعيد المؤلفة تأكيد ما قاله جبرا إبراهيم جبرا يومًا.. «الكثير من شعر هذا العصر سينقرض. والكثير من الأسماء اللامعة فيه ستنسى. ولكن اسمًا واحدًا من السهل على المرء أن يجزم ببقائه: نزار قبانى» ومبرراتها أن نزار حقق واحدة من أهم وظائف الشعر.. «تلك التى تقرن بين شاعر وعصر، وشاعر وأمة».

تتابع المؤلفة فى دراستها تلك رصد نزار قبانى لتحولات واقع المرأة بوصفها جزءًا من التغيرات التى طالت الواقع العربى، وترى أن رصده هذا الذى امتد نحو نصف قرن كان جريئًا ومناصرًا ومشجعًا، فمن المرأة التى خرجت لتوها من أقبية الحريم إلى الفضاءات العامة. إلى المرأة التى تبحث عن ذاتها وتصارع الضغوط النفسية والاجتماعية، إلى المرأة التى تخلصت من عقدة الحريم وأقامت علاقة متكافئة مع الرجل.

والدراسة تبحث فى ملامح صورة المرأة فى شعر نزار قبانى واختلاف هذه الملامح وأسباب الاختلاف، وتشير إلى سبب مباشر هو العلاقة التى أقامها الشاعر مع المرأة.. «ولا نقصد بذلك علاقة نزار قبانى الإنسان بحبيبته أو حبيباته، وإنما نقصد علاقة نزار الشاعر بالمرأة الموضوع الفنى الذى أولاه اهتمامه، والكائن الاجتماعى الذى تعاطف معه ودافع عن قضيته».

فى هذا الإطار تدرس المؤلفة فى ثمانية فصول علاقة نزار بالمرأة: التخصص فى شعر المرأة أسبابه وتبعاته، المراحل التى مر بها نزار فى علاقته بالمرأة: مرحلة الرغبة والتأمل، مرحلة الإصغاء، مرحلة المحاورة، مرحلة الانسجام والتواصل، مرحلة الفقد والصورة الغائمة.

وفى المستوى الفنى ترى المؤلفة أن نزار وإن كان شعره حديثًا فإنه لم ينحز إلى المنزع الحداثى الذى سيطر على الشعر العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين، فنهج نهجًا مختلفًا لم يغرق فى الرمز ولم يسع إلى القطع مع التراث الشعرى العربى القديم، وقال حين سُئل عن انتمائه الشعرى: «فى خضم الحداثات العربية التى صارت أكثر من الهم على القلب.. أفضل أن أنتمى لحداثتى الخصوصية».

وترى المؤلفة أن الصورة الشعرية عند نزار قامت على المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وساير فيها الصور التقليدية واستغل معجم الغزل والطبيعة، ثم طور أساليبه فى مرحلة تالية. ولعله فى هذا متأثر ببودلير وبالمدرسة الرمزية عمومًا».

وترى أن مرحلة الستينيات والسبعينيات تمثل أخصب فترة فى شعر نزار قبانى من حيث الإنجازات الفنية وتبلور الخصوصيات الشعرية، وقد تحررت قصيدته فى هذه الفترة من الأوزان التقليدية وسلكت مسلك الشعر الحر القائم على التفعيلة. وتطور موضوع الغزل عنده فلم يعد محوره وصف المرأة وعالمها، بل صارت العلاقة التى تربط الرجل بالمرأة هى التى تستقطب اهتمامه وتؤكد: يمكن القول أنه بعد أن كان نزار قبانى شاعر المرأة أصبح شاعر التحرر العاطفى. وتلاحظ أن نزار لم يعد ينهل من تجربته الشخصية بل من تجربته الجماعية المشتركة. وصارت له أهداف اجتماعية، وهو ما يتجلى بوضوح فى شعره السياسى الذى عبَّر بشفافية عن الإحباط الذى تعيشه الأمة العربية عمومًا، ومثَّل دعوة إلى إعادة النظر فى الهياكل الاجتماعية التى قادت إلى الهزيمة.

وقد واكب هذا التغير فى موضوعات الشعر - كما يقول الكتاب - تغيرًا فى بناه أيضًا. وكما أراد نزار أن يكون شعره معبرًا عن مشاعر الجمهور الواسع وأن يكون لسان حاله فى الحب والسياسة، أراد للغة أن تكون لغة الجمهور «أيضًا». فصاغ من المعانى المألوفة ومن الكلام العادى شعرًا.

□ □ □

المواجهة المصرية الأوروبية فى عهد محمد على
محمد عبدالستار البدرى
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠١، ٢٢٢ صفحة



طفا مصطلح «المسألة الشرقية» على الساحة الأوروبية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر تعبيرًا عن المخاطر الناجمة عن ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية ممتلكاتها، وهو ما يفسر كيف أن «رجل أوروبا المريض»، وهو التعبير الذى أُطلق على الدولة العثمانية فى شيخوختها، صارت مهمة جدًا لأوروبا فى مرحلة ضعفها تلك، ربما أكثر من أهميتها فى عقود فتوتها وعنفوانها، فقد مثلت الإمبراطورية العثمانية بممتلكاتها التى شملت - إلى جانب دول الشمال الأفريقى والشام - اليونان وبلغاريا وصربيا وألبانيا والبوسنة والهرسك. وتحكمها فى العديد من المضايق ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة، سدًا منيعًا فى مواجهة الطموحات الروسية الواسعة، وكان الإبقاء على «الرجل المريض» ولو فى سرير المرض، مسألة مهمة لحفظ التوازن فى القارة الأوروبية، وهكذا أصبحت المسألة الشرقية جزءًا من النسيج الأمنى الأوروبى. وصارت المسألة المصرية - بحكم تبعية مصر للدولة العثمانية - جزءًا أصيلاً فى هذا النسيج.

على هذه الخلفية لم يكن ممكنًا أن تغض أوروبا الطرف عما يجرى فى مصر، وعن طموحات واليها محمد على الذى استشعر ضعف الدولة العثمانية وبدأ فى إعداد جيش عربى قوى وأسطول بحرى توغل به شرقًا وشمالاً سعيًا إلى إمبراطورية عظمى تقف شامخة فى مواجهة إمبراطوريات أوروبا العريقة.

عروض موجزة

غير أن اهتمام أوروبا بمصر كان أسبق من طموحات محمد على بسنوات قلائل، الحملة الفرنسية، والصراع الإنجليزى الفرنسى للاستحواذ على مصر كان نذيرًا ببروز المسألة المصرية، وكانت المرحلة الثانية «للمسألة» منذ خروج حملة فريزر عام ١٨٠٧ وحتى ١٨٢٥. والتى شملت إصلاحات محمد على وبناء جيش مصرى قوى وإعداد البلاد لدور سياسى مستقل، وهو ما أقلق السلطان العثمانى قبل أوروبا التى راعها الانتصارات التى حققها إبراهيم باشا ابن محمد على ودحضه للثورة اليونانية، وتطورت الأمور فى اتجاه أدى إلى انهيار الوضع فى المورة ونشوب معركة نوارين البحرية فى أكتوبر ١٨٢٧ التى أغرقت فيها السفن الأوروبية الأسطول المصرى العثمانى. مما أدى إلى سحب محمد على بقايا قواته وأسطوله، الأمر الذى أغضب السلطان العثمانى معتبرًا أن محمد على يتخلى عنه ويتركه فريسة سهلة لأوروبا، وبدأ الصدام الأول بين مصر محمد على الطامحة نحو الاستقلال وبين الدولة العثمانية. واستغل محمد على انشغال أوروبا بخلافاتها الداخلية والانقسام الحاد داخل النظام الأمنى الأوروبى والدعم الفرنسى لمصر كيدًا فى أطماع روسيا وبريطانيا، فى تحقيق انتصارات مهمة على الدولة العثمانية فى الشام، وهى الانتصارات التى شجعت إبراهيم باشا على المضى قدمًا إلى الأناضول حتى بات قريبًا من الأستانة بعد هزيمة الجيش العثمانى فى «قونية»، وهنا لم يعد بمقدور أوروبا أن تقف مكتوفة الأيدى، خصوصًا مع المحاولات الروسية لاستثمار الوضع المتردى ومؤازرة السلطان العثمانى طمعًا فى وراثة ممتلكاته فى شرق أوروبا، فنصحت الدول الأوروبية محمد على بإنهاء الأزمة وقبول عرض السلطان العثمانى بالاكتفاء بولاية عكا، ولكن محمد على رفض النصيحة وأصر على مطالبه وحصل بالفعل على معظم مطالبه باستثناء الاستقلال عن الدولة العثمانية، وتنبهت أوروبا إلى خطورة الزحف الروسى على شرق القارة الذى أخلّ تمامًا بتوازن القوى الأوروبى.

من جهة حاول محمد على أن يستفيد من هذه المخاوف ويعرض مساندته لمواجهة الزحف الروسى مقابل دعم أوروبا له فى مواجهة السلطان العثمانى وقوبلت محاولاته بالرفض وأحيانًا بالاستياء. وتوصل «الفرقاء» إلى أن العمل الأوروبى المشترك هو أفضل الخيارات، وأجبروا محمد على على الإذعان لرؤيتهم وصار الصدام المصرى الأوروبى وشيكًا مع انهيار الدولة العثمانية، التى لم تكن أوروبا لتسمح بانهيارها على هذا النحو، فكان أن تحالفت أوروبا ضد محمد على لإجباره على التوقيع على معاهدة لندن ١٨٤٠ وبدأ الإعداد لتدخل عسكرى مباشر يوقف محمد على عند حده ويحجم أطماعه سياسيًا وعسكريًا تحقيقًا لمصالحها وحفاظًا على توازنات القوى من وجهة نظرها، بصرف النظر عن أية معايير أخلاقية.

□ □ □

الحوار الحضارى فى عصر العولمة

السيد يسين

القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٢، ٤٠٠ صفحة



يضم الكتاب أقسامًا ثلاثة تعالج فى مجموعها الإشكاليات التى تثيرها العولمة بوصفها تعبيرًا عن مرحلة من مراحل تطور التاريخ الإنسانى. فيناقش فى القسم الأول إشكالية الديمقراطية والعولمة فى ظل ما عرف بالموجة الثالثة للديمقراطية التى بدأت مع العام ١٩٨٩ وواجهت تحولات وانتكاسات عديدة مع ظهور موضوعات تتجاوز الحدود القومية للدول مثل قضايا البيئة وعالمية الاتصالات والمعرفة وغيرها على الصعيدين الاجتماعى والاقتصادى، مما دفع الباحثين إلى دراسة إمكانية إعادة صياغة نظرية الديمقراطية فى ظل التفاعلات العميقة التى أنتجتها العولمة، وبرزت حركات اجتماعية تقاوم الطابع غير الديمقراطى للعولمة، كما جرى فى دافوس وسياتل والدوحة وغيرها للمطالبة بعولمة ذات وجه إنسانى.

أما القسم الثانى الذى خصصه المؤلف للبحث فى أحوال الديمقراطية فى مرحلة التحول إلى العولمة فيعرض فيه لعديد من العناوين المهمة من بينها أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى حيث يشير إلى مشاريع عدة صاغها مفكرون من اليمين واليسار لحل أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى والانتقادات التى واجهتها والصراع الأيديولوجى الحاد بين المشاريع السياسية العربية المطروحة على الساحة: المشروع السلطوى والمشروع الإسلامى والمشروع الليبرالى والمشروع القومى والمشروع الماركسى. ويشير إلى عدة نقاط مهمة: أولها أنه لا يمكن تحقيق ديمقراطية تراعى الحريات الأساسية والعدالة الاجتماعية والأصالة الحضارية بغير عملية نقد ذاتى يمارسها أنصار جميع هذه المشاريع وصولاً إلى برنامج للحد الأدنى للنضال ضد السلطوية السياسية السائدة فى الوطن العربى.

وثانيها أنه لابد من تحالف يضم جميع الطبقات الراغبة فى عملية التغيير تلك والمستفيدة منها بطبيعة الحال، وتأمين مصالح الطبقات الداخلة فى عملية التغيير تلك بطريقة سلمية مع الأخذ فى الاعتبار المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية وأهمها بطبيعة الحال نشوء نظام عالمى جديد يركز دعاته على التعددية السياسية واحترام حقوق الإنسان والفعالية فى إدارة شئون الاقتصاد، وثالثها أن عملية التغيير تلك مرهونة بالقدرة على إحياء المجتمع المدنى فى مواجهة الدولة التسلطية، والإسهام عبر مبادرة عربية واضحة القسمات فى تشكيل النظام العالمى الجديد.

ويطرح فى القسم الثالث فيما يخص النموذج المصرى الحاجة إلى سياسة ثقافية شاملة ترفع وعى المواطن وتبيِّن له أن العلاقة بين المشكلات المحلية والعالمية صارت مترابطة ومتشابكة بدرجة يصعب فصل إحداها عن الأخرى، أى أن ثمة عولمة للمشكلات الإنسانية. وينتقد فكرة التحديث التى يتبناها بعض المفكرين ويرى أنها فكرة فات أوانها فالتحديث يتعلق بالتصنيع وإنشاء مجتمع صناعى، فيما نعيش نحن عصر ما بعد التحديث، عصر مجتمعات المعرفة.

□ □ □

التيارات الإسلامية فى مصر ومواقفها تجاه الخارج

وليد محمود عبدالناصر

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠١، ٢٠٠ صفحة



يتناول الكتاب المواقف التى تتبلورها وتتبناها الحركات الدينية ذات التوجه والنشاط السياسى تجاه العلاقات الدولية، وهيكل النظام الدولى، من خلال دراسة حالة لمواقف القوى الإسلامية السياسية فى مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٧ (عام النكسة) وحتى عام ١٩٨١ (حادث المنصة).

يدرس المؤلف فى الفصل الأول مواقف الحركات الإسلامية تجاه قضايا العالم الإسلامى. مثل مسألة الوحدة الإسلامية وكيفية تحقيقها وارتباطها بمفهوم القومية، ورؤية هذه الحركات لتجارب بعينها فى إيران والسعودية وليبيا والسودان وباكستان، ويعالج فى الفصل الثانى التحديات التى تواجهها هذه الحركات وهى التحدى الإسرائيلى (اليهودى) والتحدى الغربى (المسيحى) والتحدى الشيوعى (الملحد)، ويحلل رؤية الحركات الإسلامية لدور هذه الأطراف الخارجية باعتبارها مسئولة عن المشكلات التى يواجهها العالم الإسلامى. ويركز بشكل أساسى على تطور مواقف الحركات الإسلامية من القضية الفلسطينية، وكذلك موقفها من الاتحاد السوفيتى وغزو أفغانستان.

ومن المسائل المهمة التى يلفت الكتاب النظر إليها، اللغة السياسية التى استخدمتها هذه القوى فى التعبير عن مواقفها الداخلية والخارجية وإلى أى مدى استقتها من مصادر دينية أو معاصرة أو ممارسات لدول أخرى أو آراء لفقهاء مسلمين فى مراحل تاريخية سابقة.

الملاحظة الأخرى التى يؤكدها المؤلف هى مشاركة التيارات الإسلامية فى مصر فى الفترة محل الدراسة للحركات الإسلامية فى بقية دول العالم، فى اقتناعها بعالمية الدور الحركى للإسلام. واستعانت بعض تلك التيارات بأفكار لمفكرين إسلاميين غير مصريين.

وفى سعيه لكشف التباين بين هذه التيارات يرى المؤلف أن التنظيمات الإسلامية السرية والجماعات الإسلامية فى الجامعات المصرية كانت أكثر حدة وجهادية إزاء القضايا الخارجية من تيار الإخوان المسلمين مثلاً، ولاحظ المؤلف تباينا إزاء رؤية «الأمة» وهل تشمل الأمة الإسلامية بحدودها الحالية أم تمتد لتشمل العالم كله، وكذلك الحال بالنسبة لمفهوم الجهاد. وهل يستخدم للإطاحة بحكام البلدان الإسلامية الذين لا يطبقون الشريعة أو لتحرير الأراضى المحتلة أو لإقامة حكم الشريعة على أرجاء الأرض جميعها. ولاحظ أن التنظيمات السرية أجّلت الجهاد ضد الأعداء الخارجيين للإسلام حتى تتم الإطاحة بالحكومات «الكافرة» فى البلدان الإسلامية، ويشير المؤلف إلى أن الغزو السوفيتى لأفغانستان وعملية السلام بين مصر وإسرائيل وتعميق العلاقات المصرية الأمريكية ساعد على تقارب مواقف التيارات الإسلامية المختلفة فيما يتصل بقضايا العلاقات الخارجية، وكذلك تقريب المواقف بين هذه التيارات وقوى المعارضة السياسية غير الإسلامية.

□ □ □

نوة الكرم

نجوى شعبان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢، ٢٩٥ صفحة



نوة الكرم هى الرواية الثانية لمؤلفتها نجوى شعبان التى سبق أن نشرت رواية الغر عام ١٩٩٨.

عـــــــروض مـــــوجـــــزة

تدور أحداث الرواية فى مدينة دمياط فى القرن السادس عشر عقب الفتح العثمانى لمصر. وهى رواية مليئة بالشخصيات المركبة والثرية التى تنتمى إلى مختلف فئات وطبقات المجتمع.

تحاول الكاتبة من خلال روايتها تلك أن تعيد كتابة التاريخ بطريقة أكثر ديمقراطية، فهى لا تسعى إلى سرد أحداث التاريخ الكبرى من خلال عيون الحكام وعلية القوم - كما هو الحال فى كتابات التأريخ الرسمى - بل تسعى إلى إعادة الحياة مرة أخرى إلى الواقع المعاش للطبقات التى يتجاهلها هذا التأريخ.

فنوة الكرم أبطالها العديدون هم من الشخصيات التى كثيرًا ما توصف بالمهمَشة مثل الترجمان والخزاف والمزوع والصباغ والقرصان.

تعطى نجوى شعبان مساحات وأدوارًا موسعة للشخصيات النسائية فى روايتها بحيث تكون نوة الكرم أيضًا محاولة لإعادة كتابة تاريخ المرأة المصرية. فمن خلال ليلى الكحكية وأختها سنانية والراهبة آمونيت وحتى الراقصة اليهودية تقدم الكاتبة نماذج لسيدات خرجن عن الصور التقليدية المرسومة لهن فى الخطاب الرسمى بحيث لعبن أدوارًا جريئة فى مجتمعهن الدمياطى. فليلى مثلاً تُعرف بالكحكية أى صانعة الكحك وهى التى تربى وترعى أخواتها وتعولهم بعد وفاة الأهل ولكنها أيضًا شخصية قوية وجريئة.

تحتفى رواية نوة الكرم بالتعددية الثقافية التى أثرت حياة المصريين فى العصور الوسطى وهى التعددية التى وإن انكمشت مساحتها كثيرًا فى واقع مصر المعاصر فإنها مازالت مدفونة فى الطبقات الثقافية الكثيرة للشخصية المصرية. فنوة الكرم تبرز التراث المصرى القديم والقبطى مثلاً فى تكوين الشخصية المصرية حتى وإن اختلفت ديانتها الآن.

وبحكم موقع دمياط كميناء بحرى ونهرى فإنها مدينة ساحلية منفتحة على ثقافات من مختلف أنحاء العالم مما ساعد المؤلفة على تقديم شخصيات من خارج المجتمع العربى والمسلم، وبالتالى الإشارة إلى ضرورة الانفتاح على مختلف التجارب الثقافية سواء كانت محلية (كتجارب البدو وأهل السودان وأقباط الصعيد) أو عالمية مثل الشخصيات الأوروبية التى تدخل فى نسيج السرد.

وربما تكون شخصية عبدالجليل المطراوى، أحد كبار التجار فى دمياط، هى الأكثر تعبيرًا عن هذا الثراء الثقافى الذى تحتفى به نجوى شعبان. فعبدالجليل المطراوى من أصل أوروبى جاء إلى الدولة العثمانية عن طريق ضريبة الدفشرمة ولكن تاجر العبيد باعه لأحد تجار دمياط الذى تبناه وقدمه لأهل المدينة كابنه دون أن يحكى لهم بالطبع أى شىء عن أصله الأوروبى. ويرث عبدالجليل مكانة هذا التاجر فى مجتمع دمياط وثروته ويمارس الدور المطلوب من تاجر ثرى فينفق كثيرًا من الأموال على الفقراء والمحتاجين الذين يدعون له. ولكنه أيضًا يبنى لنفسه قصرًا فخمًا يمارس فيه طقوسًا غريبة على هذا المجتمع ترجع أصولها إلى كرنفالات أوروبا التى عرفها فى طفولته.

نجوى شعبان تحاول فى هذه الرواية إعادة كتابة هذه التجارب الثقافية والتاريخية وإعادة جو الكوزموبوليتانية والتعددية.

□ □ □

انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة

إبراهيم نافع

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٢، ٢٥٥ صفحة



يعتبر كتاب إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة الأهرام من أوائل الكتب العربية التى تصدر فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر الماضى. ويسعى إبراهيم نافع فى هذا الكتاب إلى مناقشة أحداث سبتمبر وتداعياتها خاصة من حيث إعلان الحرب على الإرهاب و«الدول المارقة» فى سياق التطور التاريخى نحو العولمة. ففى هذا الإطار انطلقت دعوة عالمية إلى «عولمة العولمة» والخروج بها من دائرة المصالح الأمريكية الضيقة. فيما أن العالم كله مطالب بدفع فاتورة الأحداث التى تعرضت لها الولايات المتحدة بحكم القوانين الجديدة للعولمة التى فرضت علاقات جديدة بين دول ومناطق العالم، وبما أن كثيرًا من دول العالم مستجيبة لمطالبة الولايات المتحدة لها بالمشاركة فى «الحرب ضد الإرهاب»، فلقد بات من حق كل دولة أن تطالب بنفع ما يعود عليها من وراء العولمة بحيث تكون هذه العولمة طريقًا يسير فى اتجاهين.

يناقش الكاتب هذه القضايا من عدة زوايا خاصة دور الدول العربية فى هذه المتغيرات التاريخية والأسباب التى تدفع دولاً مختلفة للمشاركة فى المغانم والمغارم. كما يتناول الجدل القائم حالياً حول وجود تعارض أساسى بين العولمة والسيادة الوطنية وحول دور الأقلمة ومدى نفيها أو تعارضها مع العولمة كما يؤكد الكاتب على ضرورة أن يكون للعولمة - أيًا كان شكلها - وجهها الإنسانى الذى يرعى مصالح البشر.

كتب أجنبية

The Rivals: The Intimate Story of Apolitical Marriage

(المتنافسان: أسرار قصة زواج سياسى)

James Naughtie

London: Fourth estate, 2002, 346PP, £ 15.00



مؤلف هذا الكتاب صحفى إذاعى بريطانى شهير عمل فى الصحافة المطبوعة سنوات طويلة قبل أن يتولى مسئولية برنامج سياسى يومى فى إذاعة راديو التابع لهيئة الإذاعة البريطانية.

وهو لا يدعى أنه يكشف أسرارًا كثيرة عن موضوعه وهو قصة العلاقة السياسية بين رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير ووزير الخزانة جوردون براون والتى يعتبرها كثير من المعلقين السياسيين البريطانيين الأساس الفكرى والسياسى الذى قام عليه حزب العمال البريطانى الجديد الذى تولى السلطة فى مايو عام ١٩٩٧ ومازال فيها حتى الآن.

ولقد توصل بلير وبراون إلى أن حزب العمال بصيغته القديمة القائمة على المبادئ الاشتراكية خاصة التأميم وفرض الضرائب وزيادة الإنفاق أصبحت غير صالحة أو على الأقل غير جذابة للناخب البريطانى ولذلك أحدثا تغييرات جذرية فى مبادئ الحزب وأعادا تسميته بحزب العمال الجديد.

يتحدث الكتاب عن كيفية نشوء العلاقة بين بلير وبراون منذ أن دخلا مجلس العموم وكان براون هو الأكثر خبرة ونفوذًا وظل الأمر كذلك إلى أن مات جون كيث زعيم الحزب عام ١٩٩٤، وتقدم الصديقان لكى يحلا محله إلا أن معسكر براون يقول إن هناك مؤامرة حدثت أقنعت براون بالانسحاب لصالح بلير ولكن بشروط منها أنه لو فاز الحزب فى الانتخابات فإن براون سيتولى وزارة الخزانة وسيكون له كافة السلطات فيما يتعلق بالشئون الاقتصادية.

وقد مرت العلاقات بين الرجلين بأوقات جيدة وأخرى عصيبة وكانت هناك تسريبات صحفية عن خلافات سرعان ما يتم نفيها رسميًا إلا أن الأمر الذى لا يجادل فيه كثيرون أن براون مازال يحلم برئاسة الوزراء وبلير مازال يستمتع بالسلطة ولا يفكر فى التنازل عنها لبراون. ويقول المؤلف إن من بين السيناريوهات التى قد تحدث هو أن يتم التخلص من براون بالضغط من أجل أن يتولى منصبًا اقتصاديًا دوليًا ويبعد عن بريطانيا لكن هناك من يقول العكس وهو إن بلير قد لا يقود حزب العمال فى الانتخابات البرلمانية المقبلة إلا أن كل ذلك يبقى فى إطار التكهنات.

□ □ □

Open Secret: The Autobiography of the Former Director-general of M15

(السيرة الذاتية لمديرة المخابرات البريطانية الداخلية السابقة)

Stella Rimington

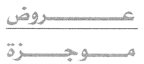
London- Hutchinson, 2002, 314PP, £18.99

دائمًا ما تحاط أجهزة المخابرات بسرية كبيرة، وكثيرًا ما لا يتم الكشف عن أسماء مديريها. ولذلك يأتى هذا الكتاب الذى وضعته ستيلا رمينجتون مدير جهاز المخابرات البريطانى الداخلى إم آى ليعطى بعض الإيضاحات وليس الأسرار عن عمل المخابرات لأن من الصعب إن لم يكن من المستحيل الكشف عن معلومات حقيقية تفصيلية عن هذا العمل خاصة إذا كان الأمر يتعلق بفترة لم يمض عليها سنوات قليلة كما هى حالة ستيلا رمينجتون.

ولذلك فإن الكاتب يتناول العلاقات داخل الجهاز وحياة رمينجتون وزياراتها للخارج خاصة على سبيل المثال إلى موسكو واجتماعاتها مع رؤساء جهاز المخابرات الروسى «كى جى بى». وفى هذا الصدد فإنها تقول إن كرم وضيافة وترحيب هؤلاء المسئولين كان مثار إعجاب من جانبها إلا أن طريقة العمل كانت غير مألوفة بالنسبة لها. وهنا نتحدث عن صعوبة أن تتم إدارة جهاز للمخابرات فى دولة ديمقراطية حيث إن القيم الديمقراطية تفرض نوعًا من التعامل والقواعد تختلف كثيرًا عن قواعد أجهزة المخابرات فى دولة ديمقراطية.

وبالنسبة للأسرار، فليس هناك الكثير وعلى سبيل المثال عندما تتحدث المؤلفة عن قضية سقوط طائرة الركاب الأمريكية «بان أمريكان» فوق لوكيربى بأسكتلندا فإنها لا تذكر شيئًا جديدًا تقريبًا باستثناء أن التحقيق الذى جرى حول الحادث كان عظيمًا ومليئًا بالتحليلات والمعلومات.

وتقول إنه تم تجنيدها للعمل فى



جهاز المخابرات البريطاني عام ١٩٦٧ عندما كانت في الهند عن طريق شخص ما قام بالتنصت عليها ثم فاجأها بالقول هل ترغبين في أن تكوني جاسوسة؟ وتتحدث عن عملها بعد ذلك في مكاتب الجهاز في لندن وعن امتنانها بالشاي وتناول جلسات الشاي التي كانت تعقدها مع زملائها في الجهاز.

وبشكل عام فإن الكتاب ممتع إلا أن نقطة ضعفه الأكيدة والواضحة أنه يفتقر إلى الأسرار وهو أمر مفهوم.

□ □ □

Misere de la Prosperite- La religion marchande et ses ennemis

(بؤس الرخاء. عقيدة التجارة وأعداؤها)

Pascal Bruchner

Ed. Grasset, 2002, 240PP.



هذا هو الكتاب الثامن لكاتب وهب نفسه لنقد عصره وهو ثمرة شعوره بالسخط. ففي بداية عام ١٩٧٠، كان بيتر دراكر والذي كان من كبار رجال الأعمال يعتقد أن الفارق المسموح به في رواتب أي مجتمع ديمقراطي ينبغي أن لا تتجاوز نسبته ١ إلى ٢٦ إلا أن دراكر يرى أن الفارق يتراوح في أيامنا هذه بين ١ و١٥٠. وفي عام ١٩٩٨ تجاوزت قيمة ما يملكه أغنى ٣٥٠ شخصًا على مستوى العالم الدخل السنوي المتراكم لما يقرب من نصف سكان العالم.

وجاء إثبات الحالة هذا طبيعيًا: «فالانفتاح الذي وعدت به العولمة ـ الإمكانية المذهلة للانطلاق بعيدًا عن السكن والأسرة وبلد المنشأ ـ قد تطور ليأخذ شكل الانغلاق».

ولا يجب أن يلتبس علينا الأمر حيث إن المؤلف لا يهدف من وراء كتابه إلى صياغة معاهدة تبادلات دولية. فعلى العكس من ذلك قام كثيرون من قبله بإنجاز هذا الأمر ببراعة فائقة مثل دافيد لاند (ثراء وفقر الأمم، دار نشر ألبان ميشيل) وهو يوجه لهم تحية تقدير على هذا الفعل. فحديثه لا يهدف إلا إلى تقويض الفكرة الخاطئة السائدة حاليًا عن مساوئ العولمة، هذه العقيدة التي يتولد عنها أبطال، أعوان ومناهضون.

ولذلك فإن الكتاب لن يحظى بثناء أو إعجاب من جانب جيل ١٩٦٨ الذين قاموا بالحركة الطلابية الشهيرة، كما أن بعض القراء قد لا يعجبهم موضوعه باعتبار أن كثيرًا من الكتب تتحدث عن نفس الموضوع وهو العولمة. لكن المؤلف رغم دفاعه عن العولمة يخصص مساحة معتبرة من الكتاب في الهجوم على تصدر الاقتصاد لكافة أوجه الحياة مما يعني تراجع الأخلاق والسياسة والفكر. ولذلك فإنه يطلق صيحة مدوية قائلاً: من سيحررنا من الاقتصاد.

□ □ □

Alexandria Rediscovered

(إعادة اكتشاف الإسكندرية)

Jean-Yves Empereur

Cairo-Auc Press, 2002, L.E120



خلال تسعينيات القرن الماضي قام عالم الآثار الفرنسي جان إيف أمبرور بسلسلة من الاكتشافات المهمة والمثيرة حول تاريخ الإسكندرية القديم. وقد زادت اكتشافاته سواء كان ذلك في أعماق مياه البحر المتوسط أو على الأرض من قدر معلوماتنا عن المدينة التي كانت أحد أهم مدن العالم في العصر القديم.

تأسست الإسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد على يدي الإسكندر الأكبر القائد الإغريقي الشهير ومنه أخذت اسمها.

وقد ضارعت الإسكندرية أثينا في مجال التأثير الثقافي والفكري ونافست روما سياسيًا، وكانت مركزًا عظيمًا للثقافات الهيلينية واليهودية والمسيحية وأخذت المدينة شهرتها من مكتبتها ومن قصورها الشهيرة كقصر كليوباترا وقصور ذريتها، وللأسف لم يتبق منها شيء.

ومع ذلك فإن اكتشافات أمبرور في أعماق البحر المتوسط وجدت أجزاء كثيرة من المنارة القديمة الشهيرة التي كانت تشرف على الميناء في القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع عشر وهي من بين عجائب الدنيا السبع.

وفي نفس الوقت فإنه تم اكتشاف ٦ مواقع على الأرض ومنها مجموعة من المقابر في كوم الشقافة ومقبرة كبيرة في قباري.

وكل هذه الاكتشافات أمدتنا بمعلومات عن العمارة وظروف المعيشة والطقوس الدينية والحياة الفنية في الإسكندرية مدينة الإسكندر وكليوباترا.

والكتاب يشرح الطرق التي استخدمها المؤلف في أعماله الاستكشافية التي جرت في ظروف صعبة للغاية. وهو أيضًا يقوم بتقييم المعلومات التي جرى استخلاصها من الاكتشافات.. والكتاب أيضًا مليء بالصور الرائعة التوضيحية للاكتشافات.

□ □ □

كتاب الزاوية



دلائل الإعجاز

التقديم والتأخير

هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مَسمعهُ، ويَلطُف لديك موقعُهُ، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان.

واعلم أن تقديم الشيء على وجهين:

تقديم يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حُكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدَّمته على الفاعل كقولك: «منطلق زيد» و«ضرب عمرًا زيدٌ»، معلوم أن «منطلق» و«عمرًا» لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعًا بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوبًا من أجله، كما يكون إذا أُخِّرت.

وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقُل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعلَ لهُ بابًا غير بابه، وإعرابًا غيرَ إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرًا له، فتقدِّم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة: «زيدٌ المنطلقُ»، وأخرى «المنطلقُ زيدٌ»، فأنت في هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكًا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرًا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر «زيدًا» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرًا.

اجتماع

المراهقات وألعاب الحب
محمد الحسانين
القاهرة: كتاب الجمهورية ٢٠٠٢

تمثل مرحلة المراهقة في حياة الإنسان انعطافة مهمة تؤثر بما يجرى فيها على حياته ومستقبله، المؤلف من خلال عمله الصحفي واجه كثيرًا من مشكلات المراهقين ورد على عشرات الرسائل معهم، وهو هنا يعرض لبعض هذه المشكلات وكيفية مواجهتها حتى يمكن تجاوز هذه المرحلة المهمة والخطرة بسلام.

The Middle of Everywhere: The World's Refugees Come to our Town
(لاجئو العالم في مدينتنا)
Mary Pipher
Harcourt, 2002, 416PP., $ 25.00

المؤلفة اشتهرت بكتبها ودراساتها التي تجمع ما بين الاجتماع والأنثروبولجي وعلم النفس. وفي هذا الكتاب تقوم ماري بيفر بتقديم صور من قريب لعدد من اللاجئين السياسيين الذين يقيمون في ولاية نبراسكا الأمريكية. تحتوي دراستها على التجارب الشخصية للاجئين من روسيا واليمن وكرواتيا والعراق والصومال وإثيوبيا والمجر والبوسنة، وتقدم تحليلاً للتعقيدات التي تنتاب حياة هؤلاء الناس وصدام الثقافات الذي يعيشونه في إطار السياسات العالمية المحيطة.

The Secret Lives of Girls: The Real Feelings of Young Girls About Sex, Violence, Peer Pressure, and Morality
(الحياة السرية للبنات: المشاعر الحقيقية للفتيات الصغار عن الجنس والعنف تأثير الأقران والأخلاق)
Sharon Lamb
Free Press, 2002, 256PP., $ 24.00

المؤلفة أستاذة لعلم النفس في جامعة سان مايكل وتقدم في كتابها هذا نتائج دراسة قامت بها اشتملت على مقابلات مع ١٢٢ فتاة من عرقيات متنوعة وطبقات اجتماعية واقتصادية متباينة في الولايات المتحدة الأمريكية.

إدارة

First Among Equals: How to Manage A Group of Professionals
(الأول بين المتساوين: كيف تدير جماعة من المحترفين؟)
Patrick J. Mckenna and David H. Maister
Free Press, 2002, 288PP., $ 26.00

أي منظومة تصبح أكثر نجاحًا إذا ما جمعت مجموعة من الأفراد الموهوبين في فريق العمل. ولكن المشكلة هي أن معظم الموهوبين - وخاصة المحترفين - يكرهون أن تتم إدارتهم. هذا النوع من التوتر يعالجه مؤلفو الكتاب ويوفرون الاستراتيجيات والنصائح لأي فرد في موقع يحتم عليه إدارة من هم متساوون معه أقران له إلى حد كبير.

Primal Leadership: Realizing the Power of Emotional Intelligence
(القيادة الأولية: إدراك قوة الذكاء العاطفي)
Daniel Goleman, Richard Boyatzis and Annie Mckee
Harvard Business, 2002, 352PP., $ 25.95

يؤكد مؤلفو هذا الكتاب (الذين اشتهر منهم جولمان بكتابه عن الذكاء العاطفي المترجم مؤخرًا إلى العربية) أن المهمة الرئيسية للقائد في العمل هي في إعطاء أفراد فريقه شعورًا بالرضا وبالإيجابية باستمرار وهو الذي يخرج أفضل ما لديهم. وفي الوقت الذي يشترك معظم المديرين في امتلاكهم نسبة عالية من الذكاء إلا أن أكثرهم نجاحًا وتأثيرًا هم الذين يمتلكون الذكاء العاطفي.

Mars & Venus in the Work Place: A Practical Guide for Improving Communication and Getting Results at Work
(الزهرة والمريخ في محل العمل: دليل عملي لتحسين الاتصال والحصول على نتائج في العمل)
John Gray
Harper Collins, 2002, 320PP., $24.95

حقق كتاب جون جراي «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» شعبية كبيرة ومبيعات هائلة، وترجم إلى العديد من اللغات من بينها العربية. وفي هذه المرة ينقل جراي نظريته عن أنماط السلوك الراجعة للتباين النوعي بين الرجل والمرأة من الزواج والعلاقات العاطفية إلى العمل والعلاقات المهنية.

أدب

What We Think of America
(ماذا نعتقد في أمريكا)
Edited by Ian Jack
Granta 77, 254P., £ 8.99

طلب إيان جاك رئيس تحرير المجلة الأدبية جرانتا والتي تصدر ربع سنوية في لندن من ٢٤ كاتبًا (من غير الأمريكيين) من جميع أنحاء العالم، أن يكتبوا عن خبرتهم الأولى مع أمريكا وماذا تعني لهم الآن. وهل فعلاً أمريكا مكروهة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟

The Poet and the Murderer: A True Story of Literary Crime and the Art of Forgery
(الشاعر والقاتل: قصة حقيقية عن الجريمة الأدبية وفن التزييف)
Simon Worrall
Dutton, 2002, 288PP., $ 23.95

في عام ١٩٩٧ تم بيع قصيدة للشاعرة إميلي دكنسون في مزاد بقاعة سوثبي الشهيرة بلندن على اعتبار أنها قطعة حديثة الاكتشاف. ثم تبين بعد أربعة شهور أنها قصيدة مزيفة قام بتزويرها تاجر كتب نادرة ومزور قدير اسمه مارك هوفمان. المثير أن هوفمان كان في ذلك الوقت يمضي عقوبة في السجن بتهمة القتل. يروي هذا الكتاب قصة هوفمان وقصصًا أخرى مماثلة من العالم السري للتزوير الأدبي.

اقتصاد

الصين.. التجربة والتحدي
شوقي جلال
القاهرة: دار المعارف ٢٠٠١

عن تجربة الصين العملاقة في مجال التنمية الاقتصادية وقد زارها المؤلف في عام ١٩٨٩ ثم بعد ذلك بنحو عشر سنوات ووقف على حقيقة التجربة وتطورها المستمر وركائز عملية النمو التي تعد واحدة من أعلى معدلات النمو في العالم.

تاريخ وآثار

تاريخ وآثار سيناء من الفتح العربي لمصر حتى اليوم
عدد من الباحثين
القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي ٢٠٠٢

تشتمل سيناء على مجموعة كبيرة من الآثار التي تنتمي لعصور مختلفة فرعونية وقبطية وإسلامية. والكتاب يقدم حصرًا لآثار سيناء منذ الفتح العربي.

صيانة المخطوطات علمًا وعملاً
مصطفى السيد يوسف
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

تعد المخطوطات المادة الخام لدراسة التاريخ وفك طلاسم الحضارات القديمة، لكنها لا تعامل بما تستحقه من الاهتمام والرعاية بوصفها كنوزًا مهمة لا ينبغي التفريط فيها، المؤلف يعرض للتأثيرات المختلفة على المخطوطات وكيفية التعامل معها حفاظًا على هذه الثروة وصيانة لها.

Beria: My Father: Inside Stalin's Kremlin
(بيريا: أبي.. داخل الكريملن أثناء حكم ستالين)
Sergio Beria
edited by: Francoise Thom
Translated by: Brian Pearce
Dachworth, 2002, 320PP., $26.95

دخل لافرينتي بيريا تاريخ الطغاة باعتباره آخر من رأس جهاز البوليس السري في عهد ستالين. وقد قال عنه خروشوف إنه سادي ومختل وإنه حاول الاستفادة من موت ستالين لإنشاء دكتاتورية خاصة به. في هذا الكتاب يكتب سيرجيو بيريا ابن لافرينتي بيريا عن والده الذي أحبه محاولاً الدفاع عنه، وقد ساعدته بالمواد البحثية والأرشيفية شخصية أكاديمية فرنسية معروفة هي فرانسواز توم. الكتاب مترجم عن اللغة الروسية.

The Future of the Past
(مستقبل الماضي)
Alexander Stille
Farrar, Straus & Giroux, 2002, 336PP., $25.00

حول الدائرة المفرغة للترميم والتدمير التي تتعرض لها الآثار التاريخية في مناطق متفرقة من العالم؛ في مصر والهند وصقلية وبابوا نيو غينيا والفاتيكان. ففي كل هذه الأماكن يقوم الدارسون بعمليات الحفظ والترميم للآثار بأحدث الطرق التكنولوجية، في نفس الوقت الذي تزيد فيه نسبة التلوث والتدمير أيضًا بسبب التقدم التكنولوجي.

تعليم

تساؤلات الطفل ومخاوفه
أحمد السعيد يونس
القاهرة: دار قباء ٢٠٠٢

ما أن يبدأ الطفل في الكلام حتى تكثر أسئلته واستفساراته التي تتصاعد صراحتها كلما كبرت سنه، وهي أسئلة يجد الأبوان أنفسهما في وضع حرج للإجابة عليها، المؤلف يقدم حلولاً للأم في كيفية التعامل مع أسئلة الطفل دون حرج محققة الإشباع الضروري لاحتياجات الطفل المعرفية.

The Internet in School: Promise and Problems
(الإنترنت في المدرسة: الأمل والمشاكل)
Janet W. Schofield and Ann L. Davidson
Jossey -Bass, 2002, 380PP., $ 27.00

في العشر سنوات الماضية، أصبح تطوير المدارس مرادفًا لإمدادها بأجهزة الحاسبات الآلية المتصلة بشبكة الإنترنت العالمية، على فرض أن هذا الاتصال من شأنه رفع مستوى التعليم بشكل جذري. ولكن مؤلفي هذا الكتاب يبرهنان أن هذا الفرض ليس صحيحًا تمامًا.

فبعد خمس سنوات من البحث تؤكد التقارير الناتجة عنه أن هناك مشاكل عديدة منها الخروج عن المهام التعليمية الأساسية وفقدان المدرسين للسيطرة على المنهج وتعرض التلامذة لآراء كثيرة مشتتة للانتباه وتنقصها المصداقية.

Class War: The State of British Education
(حالة التعليم البريطاني)
Chris Woodhead
Little Brown, 2002, 212PP., $14.99

ألف هذا الكتاب كبير مفتشي المدارس السابق في بريطانيا بعد أن قدم استقالته العام الماضي سخطًا على نظام التعليم

الموجود حاليًا. وتصف شهادته هذه مدى سوء أوضاع التعليم والتدهور الذى أصاب مستوى التعليم نتيجة للسياسات العمالية.

حيث يرى وودهيد أن الخطورة تكمن فى كون التعليم لم يعد مطلوبًا فى حد ذاته لتحسين الفرد وإنما أصبح ينظر له فقط كوسيلة لإحراز المال وتحقيق المنافسة الاقتصادية للدولة. ويفسر وودهيد فى كتابه كيف يمكن أن يؤدى مثل هذا التفكير إلى كارثة.

دوريـــات

البحرين الثقافية (دورية)
عبدالرحمن اليتيم
البحرين: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٢

إطلالة على الحياة الثقافية والفنية والفكرية فى مملكة البحرين، وجولة فى ربوع الفن التشكيلى هناك ومناقشات حول الديمقراطية يشارك فيها إبراهيم بشمى وبدر عبدالملك وحسن مدن.

■■■

الطـريق (دورية)
بيروت: ٢٠٠٢

تدخل مجلة الطريق عامها الستين، وبهذه المناسبة يصدر عددها الجديد مشتملاً على مقالات ودراسات عديدة فى السياسة والثقافة والاجتماع والنقد الأدبى، ومن أبرز كتَّاب هذا العدد الذين تستضيفهم المجلة: إلياس خورى، إميلى نصرالله، سعيدالصكار ويمنى العيد.

■■■

المستقبل العربى (دورية)
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢

يتضمن العدد الجديد حوارات ونقاشات حول مستقبل الثقافة فى وطننا العربى خصوصًا فى مصر، بينها حوار مع هشام شرابى ومقالات لأسامة الغزالى حرب وعبدالحسين شعبان.

روايات وقصص

مشهد من وراء السور
عزالدين نجيب
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢

مجلد يضم ثلاث مجموعات قصصية للفنان والناقد التشكيلى الذى كتب القصة فى مراحل مختلفة من حياته وهى أيام العز والمثلث الفيروزى غير الوترى وأغنية الدمية، وقدم لهذه المجموعة يحيى حقى وإدوار الخراط وعلق عليها عدد من النقاد منهم فؤاد دوارة وسامى خشبة وفاروق عبدالقادر. وتضمن المجلد هذه الدراسات.

■■■

Alexander Volume2
The Sands of Ammon
(الإسكندر - الجزء الثانى - رمال آمون)
Valerio Massimo Manfredi
Translated by: Ian Halliday
Washington Square, 2002, 416PP., $14.00

الجزء الأول من هذه الرواية كان بعنوان: (الإسكندر: ابن الحلم) للمؤلف الإيطالى مانفريدى. وفى هذا الجزء يحول مانفريدى اهتمامه إلى حملة الإسكندر الأكبر على بلاد فارس.

■■■

The Serious Game
(اللعبة الخطيرة)
Hjalmer Soderbery
Translated by: Eva Nelson
Marion Boyars, 2002, 242PP., $ 14.95

هذه الرواية مترجمة عن اللغة السويدية وتروى قصة حب بين أرفيد وليديا اللذين يبتعدان بسبب الطموح والعمل ويتزوج كل منهما من شخص آخر ثم يجتمعان بعد سنوات فى علاقة عاطفية. القصة رغم بساطتها لفتت الأنظار بسبب الأماكن التى تدور فى خلفيتها الأحداث وكلها فى مدينة ستوكهولم، إلى جانب الصراع الأخلاقى الذى يدور فى ضمير البطل أثناء هذه العلاقة.

■■■

The Idea of Perfection
(فكرة المثالية)
Kate Grenville
Viking, 2002, 402PP., $ 24.95

حصلت هذه الرواية لمؤلفتها الأسترالية على جائزة «الأورانج» البريطانية فى العام الماضى. وتدور الأحداث فى مدينة صغيرة فى أستراليا.

■■■

Rouse Up O Young Men of the New Age
(انهضوا يا شباب العصر الجديد)
Kenzaburo Oe
Translated by: John Nathan
Grove, 2002, 272PP., $24.00

الترجمة الإنجليزية للرواية الجديدة التى كتبها الأديب اليابانى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب كنزابورو أو. تدور الرواية حول العلاقة الإنسانية بين أب وابنه الذى يعانى من تلف فى المخ.

سياسـة

نحو مشروع نهضوى عربى
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢

يتضمن الكتاب أبحاث الندوة التى أقيمت فى المغرب وشارك فيها عدد كبير من المختصين والأكاديميين وكان سؤالها الأساسى حول المشروع النهضوى العربى الذى يمكن أن يواجه التغيرات المتلاحقة فى عصر العولمة، ويطرح الباحثون تصوراتهم لأسس هذا المشروع وعوامل نجاحه.

■■■

الأخطبوط وخيوط المؤامرة لابتلاع فلسطين
السيناتور جاك تنى
ترجمة: هشام عواض
القاهرة: دار الفضيلة ٢٠٠٢

مازال الصهيونية تنسج خيوطها بشراسة لتنفيذ مؤامراتها العالمية التى بدأتها فى نهايات القرن الثامن عشر، ومازال اللوبى الصهيونى يواصل دوره ببراعة ودأب لتحقيق مآربه فى السيطرة على مقدرات العالم، المؤلف يعرض لخيوط المؤامرة التى تتضح معالمها الآن على يد شارون الذى يريد أن يمحو اسم فلسطين من فوق الخريطة.

■■■

Spoiling for A Fight: Third-Party Politics in America
(سياسات الحزب الثالث فى أمريكا)
Michael L. Sifry
Routledge, 2002, 354PP., $27.50

يركز هذا الكتاب على حملة رالف نادر للفوز بالرئاسة فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة التى شهدتها الولايات المتحدة. حيث يقدم سيفرى وهو محرر بمجلة «نايشون» مجموعة المشاكل التى تواجهها الأحزاب البديلة، كما يقدم أيضًا الإيجابيات التى تعود على السياسة الأمريكية من مثل هذه الأحزاب.

■■■

The Paradox of American Power: Why The World's Only Superpower Can't Go It Alone
(معضلة القوة الأمريكية: لماذا لا تستطيع أكبر قوة فى العالم أن تكون وحدها)
Joseph S.Nye
Oxford University Press,
2002, 222P, $ 26

عمل جوزيف ناى مستشارًا للدفاع والاستخبارات أثناء حكم الرئيس كلينتون. أما الآن فيشغل منصب عميد كلية كينيدى للدراسات الحكومية فى جامعة هارفارد. يؤكد ناى فى كتابه على أن الولايات المتحدة حتى وهى فى قمة قوتها فى حاجة إلى شركاء وحلفاء. كما يرى أنه على أمريكا الاعتماد على القوة الإقناعية اللينة التى تتمثل فى قيمها وثقافتها أكثر من الاعتماد على القوة العسكرية.

شــعر

قوس قزح الصحراء
سيف الرحبى
ألمانيا: منشورات الجمل ٢٠٠١

اختار الشاعر الصحراء موضوعًا للغزل بكل ما فيها من رحابة وسماء ونور وحياة، وإلى جانب الغزل يطرح الشاعر خواطره وتأملاته وتطلعاته للمستقبل.

■■■

ديوان القطامى
تحقيق ودراسة
محمود الربيعى
القاهرة: هيئة الكتاب ٢٠٠٢

دراسة تحليلية فى قصائد هذا الشاعر الأموى الذى تعكس أشعاره حال المجتمع الأموى فى مرحلة تاريخية بعينها، وإلى جانب دراسة القصائد، يعرض المحقق لسيرة القطامى ونسبه وقبيلته وحياته.

طــب

Complications: A Surgeon's Notes on an Imperfect Science
(تعقيدات: ملاحظات جراح عن علم بعيد عن الكمال)
Atul Gawande
Holt/Metropoliton, 2002, 272PP., $24.00

تحول المؤلف من جراح محترف درس الطب فى هارفارد إلى كاتب محترف أيضًا فى مجلة النيويوركر الأمريكية. وفى هذا الكتاب يصف مهنة الجراحة واللحظات الدرامية التى تمتلئ بها حياة الجراح. فالجراح حسب وصف المؤلف يتعامل مع معرفة طبية متغيرة باستمرار، بالإضافة إلى معلومات غير مؤكدة وبشر يمكن أن يخطئوا، وفى نفس الوقت بشر بين الحياة والموت. كذلك على الطبيب فى مواقف كثيرة أن يوازن بين المعرفة والحدس لكى يتخذ قرارات تبدو مستحيلة.

يناقش المؤلف أيضًا التكنولوجيا الحديثة ومتى تكون مفيدة أو معوقة، كما يناقش أنواعا معينة من الأمراض والحالات التى شهدها بنفسه والطرق الجراحية المبتكرة التى نفذت لعلاجها.

■■■

Understanding Depression: What we Know and What you Can do About it
(فهم الاكتئاب: ماذا نعرفه وماذا يمكنك أن تقوم به إزاءه)
Raymond De Paulo Jr., Leslie Alan Tlorvitz
Wiley/Dana Press, 2002, 304PP., $ 24.95

يعمل دوباولو أستاذًا للعلاج النفسى ومديرًا لمستشفى الاضطرابات العقلية بكلية الطب فى جامعة جونز هوبكنز الأمريكية.

فى هذا الكتاب يتوجه دوباولو للقارئ العادى شارحًا له كل ما يتعلق بمرض الاكتئاب، ما هو وكيف نشعر به، ومن الأكثر عرضة له، وأساليب العلاج، ودور الأسرة والأصدقاء تجاه المريض، وأثر المريض فى المحيطين به.

■■■

Living Proof: A Medical Mutiny
(دليل حى: تمرد طبى)
Michael Gearin-Tosh
Scribner, 2002, 327PP., £12.99

يعمل مايكل جيرن توش أستاذًا للإنجليزية فى جامعة أوكسفورد، وقد أصيب بمرض السرطان فى النخاع العظمى قبل عشر سنوات. وبعد أن استشار عددا كبيرا من كبار الأخصائيين فى بريطانيا والولايات المتحدة، قرر عدم الأخذ

بنصائحهم. وقرر أن يجرب علاجات بديلة بتناول العصائر، والفيتامينات والقهوة وتمارين تنفس صينية.

"فكر"

ثقافة العنف فى العراق
سلام عبود
كولونيا: منشورات الجمل ٢٠٠٢

رؤية للمأساة السياسية العنيفة فى العراق والممارسات الخارجية تجاه النظام والشعب هناك والتى تتصاعد يومًا بعد آخر وتفرض عليه حصارًا من التجويع والموت.

المؤلف يعرض كذلك لعدد من النصوص الأدبية التى كتبت فى فترة الحرب العراقية الإيرانية سواء فى المنفى أو فى العراق نفسه، وسيطرة تلك الأجواء على النصوص.

صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق
سمير سرحان
القاهرة: أخبار اليوم ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التحليلية والنقدية عن مشكلات وهموم مصرية وعربية أثرت فيما وصل إليه حال الأمة العربية، عن الإدمان وتأثيره على شباب الأمة ومستقبلها، عن قضية فلسطين وتطوراتها، عن تدهور الأخلاق والفضيلة لأسباب مختلفة، ثم فى قضايا النقد والإبداع وهى تخصص المؤلف الأصيل.

الحضارة الغربية.. الفكرة والتاريخ
توماس س. باترسون
ترجمة: شوقى جلال
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢

يكشف المؤلف عن عديد من الأفكار المغلوطة لدى الحضارة الغربية وعنها، والطابع الصراعى لهذه الحضارة وتأثير هذه الأفكار الصراعية على مستقبل العالم والمفكرين الغربيين البارزين الذين قاوموا هذه الأفكار وفضحوا زيفها وعنصريتها.

"فكر دينى"

الأولياء الثلاثة
صلاح عزام
القاهرة: كتاب الشعب ٢٠٠٢

يتناول المؤلف جوانب لم تدرس تاريخيًا فى حياة ثلاثة من المتصوفة هم رابعة العدوية ومالك بن دينار وذو النون المصرى، ويعرض لنماذج من أشعارهم وأفكارهم التى تأثر بها المتصوفة بعد ذلك.

أماكن مشهورة فى حياة الرسول
حنفى المحلاوى
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

زاوية جديدة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتناول التأثير المكانى فى الدعوة الإسلامية وأهم الأماكن التى شهدت الدعوة فى بداياتها الأولى وحتى قيام الدولة الإسلامية الأولى وإرساء دعائمها فى العهد النبوى.

طبيعة العلم.. رؤية إسلامية تطبيقية فى تعليم العلوم
إسلام رفاعى عبدالحليم
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

شجع الإسلام العلم وحث على المعرفة من المهد إلى اللحد، لكن كثيرين يتصورون أن ذلك ينطبق على العلوم النظرية، خصوصًا ذات الصلة باللغة وعلوم الكلام والحديث. المؤلف يقدم نماذج تطبيقية لعلماء مسلمين أسهموا فى تقدم العلوم الطبيعية، كما كانت لهم إسهاماتهم فى علوم اللغة والحديث.

"فلسفة"

الفلسفة على شجرة المستقبل
مجاهد عبدالمنعم مجاهد
القاهرة: دار الثقافة ٢٠٠٢

فى خمسة فصول يتناول المؤلف معنى الفلسفة ومفهومها قديمًا وحديثًا، ويعرض للعلاقة بين الفلسفة والفكر القومى العربى، ودور الفلسفة فى استكشاف المستقبل وفهم الحاضر.

كتاب تذكارى
تقديم فؤاد زكريا
الإسكندرية: دار الوفاء ٢٠٠٢

تكريمًا للدور الذى لعبه ومازال يلعبه أستاذ الفلسفة عاطف العراقى كأكاديمى وباحث ومساهم راق فى القضايا العامة منحازًا للعقل على الدوام. يأتى هذا الكتاب التذكارى الذى يساهم فيه نخبة من تلاميذه وزملائه، فيتعرضون لأهم الموضوعات التى انشغل بها - خصوصًا الفلسفة الرشدية - ويعد العراقى أكثر المتحمسين لها. كما يتضمن الكتاب عددًا من الحوارات والمقابلات التى أجريت معه فى الصحف المصرية والعربية.

"فنون"

موسوعة الفن المصرى القديم
ميرفت عبدالناصر
القاهرة: دار الكتاب المصرى اللبنانى ٢٠٠٢

شغل الفن المصرى القديم ولايزال حيزًا مهمًا فى الدراسة الفنية فى العالم كله، هذه الموسوعة تكشف عن جوانب جديدة فى الحضارة المصرية القديمة من خلال دراسة لفنون النحت والتصوير والطب والخزف.

The Great Movies
(الأفلام السينمائية العظيمة)
Roger Ebert
Broadway, 2002, 544PP., $27.50

ينتقى الناقد السينمائى الأمريكى روجر إيبرت أعظم مائة فيلم سينمائى، محللاً أسباب عظمة كل فيلم، والأسباب التى تجعل المشاهدين العاديين يتجاوبون مع هذه الأفلام باعتبارها فعلاً أفلامًا عظيمة. المقالات القصيرة التى يحتويها الكتاب ظهرت فى عاموده الأسبوعى الذى يظهر فى عدة صحف فى وقت واحد تحت نفس العنوان.

You Only As Good As Your Next One: 100 Great Films, 100 Good Films, and 100 for wich I Should be Shot
(١٠٠ فيلم عظيم، و١٠٠ فيلم جيد، و١٠٠ فيلم ينبغى ضربى بالنار بسببها)
Mike Medavoy With Josh Young
Pocket, 2002, 416PP., $27.00

يعد ميدافوى أحد أقطاب الاستوديوهات الكبيرة فى هوليوود، وهو يكتب فى هذا الكتاب بمعاونة الصحفى جوش يونج لتوثيق عشرات السنين قضاها فى مجال إنتاج وتسويق الأفلام. فهو يكتب عن الحملات الإعلانية، والأفلام التى تكلفت إنتاجًا ضخمًا، ومعارك شبابيك التذاكر، وسياسات عقد الاتفاقات والصفقات.

وهو يروى كل هذا ضمن مذكراته الشخصية حيث تنقل من ساع فى استوديوهات يونيفرسال إلى توزيع الأدوار على الممثلين، ثم أصبح من أهم الوكلاء السينمائيين، من ضمن عملائه فرانسيس فورد كوبولا وستيفن سبيلبرج وجين فوندا. بعد ذلك انتقل ميدافوى إلى مجال الإنتاج بانضمامه إلى يونايتد أرتيستس فى ١٩٧٤ لينتج أفلام روكى ونيويورك نيويورك وغيرها. ثم أنشأ شركة أوديون فى عام ١٩٧٨ وعمل مع وودى آلين وأنتج فيها أفلاما ناجحة.. الرقص مع الذئاب وصمت الحملان. وفى عام ١٩٩٠ تولى منصب رئيس مجلس إدارة تريستار.

Light At the Edge of the World: A Journey through the Realm of Vanishing Cultures
(رحلة فى عالم الثقافات المندثرة)
Wade Davis
National Geographic, 2002, 180PP., $35.00

المؤلف باحث أنثروبولوجى سافر على مدى ٢٥ عامًا إلى بلاد ومناطق بعيدة فى العالم. وخلال هذه الرحلات قام بالتقاط العديد من الصور، وهى التى يضمها هذا الألبوم المصور لمناظر أفراد من الأنديز والأمازون وهايتى وكينيا والتيبت وغيرها من البلاد. الكتاب تنشره الناشيونال جيوغرافيك التى كانت قد نشرت فى عدد سابق من مجلتها الشهرية مقالاً مصورًا يحتوى على جزء من نفس الموضوع.

"مذكرات وسير"

الحمد لله هذه حياتى
عبدالحليم محمود
القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٢

سيرة حياة العالم الصوفى الكبير شيخ الأزهر السابق الدكتور عبدالحليم محمود، تتضمن رؤيته للحياة ورأيه فى التصوف وسياحته فى الفكر الصوفى، ودراسته فى الأزهر والشيوخ الذين نقل عنهم وتأثر بهم وتأثيرهم على حياته.

الوصية
دايز ماريا ريلكه
ترجمة: شربل داغر
ألمانيا: منشورات الجمل ٢٠٠٢

مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ريلكه والشاعرة الروسية ماريا استمرت أربعة أشهر حتى وفاة ريلكه، وهى تعكس رؤاهما وأفكارهما وفيها كثير عن طفولة ريلكه وصباه وطموحاته.

أيمن الظواهرى كما عرفته
منتصر الزيات
القاهرة: دار مصر المحروسة ٢٠٠١

ملأ الظواهرى الدنيا وشغل الناس كما فعل أسامة بن لادن خصوصًا فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، حيث بدا أن أيمن الظواهرى هو الساعد الأيمن لبن لادن، والمؤلف باقترابه من الجماعات الإسلامية بوصفه المسئول عن ملفاتهم القانونية يحكى عن الظواهرى الذى عرفه عن قرب. كما ينتقد مواقف حركة طالبان وتحليلاً لتطورات الوضع فى أفغانستان وما آلت إليه الأمور هناك.

رمضان الشلاشى
فايز الشلاشى
القاهرة: دار المستقبل العربى ٢٠٠٢

عن شخصية المناضل رمضان الشلاشى ودوره فى المعارك ضد الاستعمار الإنجليزى فى سوريا والعراق. المؤلف يعرض لسيرة هذا المجاهد الكبير وكفاحه الوطنى، وكيف تم تجاهل سيرته فى الأدبيات التى تؤرخ للنضال ضد الاستعمار فى هذه المرحلة.

محمد بوضياف.. اغتيال حلم
محمد عباس
الجزائر: دار هومة، ٢٠٠١

وثيقة شاملة عن الرئيس الجزائرى الراحل الذى اغتيل فى مشهد مأساوى بينما كان يوجه خطابًا إلى شعبه. وبوضياف هو أحد قادة جبهة التحرير الوطنى الجزائرى الكبار، والكتاب يقدم فى ثمانية فصول مسيرة بوضياف وموقعه من رفاقه من قادة جبهة التحرير والأزمة التى سبقت توليه الحكم، وتفاصيل عملية اغتياله، ويتضمن الكتاب شهادات لمجايليه ورفاق نضاله الوطنى فضلاً عن وثائق ورسائل تخص بوضياف نفسه.

The Letters of Arturo Toscanini
(رسائل أرتورو توسكانينى)
edited by: Harvey Sachs
Knopf, 2002, 528PP., $ 35.00

كتب هارفى ساكس قصة حياة

قــــراءات جـــــديـدة

الموسيقى الإيطالى الكبير توسكانينى منذ عشرين عامًا. وفى ذلك الوقت كتب قائلاً إن رسائل توسكانينى قليلة نسبيًا وليس بها قدر كبير من المعلومات. ولكن بعد سنين من الجمع والبحث والتنقيب وجد ساكس مئات من رسائل توسكانينى تروى الكثير عن حياة هذا الفنان المنطوى.

مســـــرح

الملحمية فى مسرح يسرى الجندى
نجوى عانوب
القاهرة: مؤسسة الطوبجى ٢٠٠٢

يتميز مسرح يسرى الجندى بمميزات وخصوصيات فريدة، المؤلفة تناقش فى ثلاثة فصول خصوصيات وأدوات هذا المسرحى المهم ورؤيته للمشكلات السياسية والاجتماعية والعسكرية التى تواجه مجتمعه، وتأثير السير الشعبية فى تناوله لهذه المشكلات.

■■■

رؤية وبيان حالة للمسرح العربى
محمد الفيل
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢

مر المسرح العربى خلال الثلاثين عاماً الأخيرة بانعطافات مهمة أثرت على مسيرته وأوصلته إلى حالة غير مسبوقة من الركود.

المؤلف يدرس هذه المرحلة وأسباب الركود ويقارن بينها وبين ما يشهده المسرح فى الغرب، كما يتعرض للاتجاهات المسرحية الحديثة فى العالم وتأثيرها على المسرح العربى وهل ساعدت فى إعادة تشكيله على النحو الذى نراه.

منوعـــــات

أسماء البنين والبنات
أحمد محمود فرج
القاهرة: مكتبة رجب ٢٠٠٢

من بين حقوق الأبناء على الآباء كما شددت عليها تعاليم الإسلام اختيار أسمائهم، فيجب على الأبوين أن يختاروا لأبنائهم أسماء حسنة لا تبعث على الخجل ولا تجعل رفقاءهم يعيرونهم بها. المؤلف يشرح أهمية التسمية وأشهر الأسماء العربية ومعانيها وكيفية اختيار الاسم المناسب للأولاد.

■■■

دليلك إلى تطوير شخصيتك
يوسف الأقصرى
بيروت: دار اللطائف ٢٠٠٢

نصائح التنمية الشخصية وتطوير عناصرها الإيجابية وكيفية مواجهة الإنسان للمشكلات التى تصادفه وتؤثر فى شخصيته وصولاً إلى شخصية سوية نفسيًا ومنسجمة مع المجتمع.

■■■

الإسكندرية روعة وعطاء الزمان والمكان والإنسان
عبدالفتاح غنيمة - حسين الشيخ - حازم أبوشليب
الإسكندرية: الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة ٢٠٠٢

تتميز الإسكندرية بأنها مدينة ذات طابع خاص، وقد اتصفت دومًا وحتى وقت قريب بأنها مدينة كوزموبو ليتانية جمعت أجناس وشعوب وثقافات مختلفة مما أكسبها طابعها المميز ومكنها من أن تلعب دورًا بالغ الأهمية فى التاريخ الثقافى لمصر والعالم، المؤلفون يلقون أضواء على هذا الدور.

■■■

تأملات خابية
زينب الكردى
القاهرة: دار الأمين ٢٠٠٢

مقالات ساخرة تتناول الوضع العربى الراهن على الصعيدين السياسى والاجتماعى والمشكلات التى تعترض حياة المواطن العربى وما يؤثر على مسيرة التطور العربية.

نقـــد

توترات الإبداع الشعرى
حبيب مؤنس
الجزائر: دار الغرب ٢٠٠٢

دراسة نظرية عن تلقى النص الشعرى، تطرح قضايا عدة أهمها الاستحضار المكانى فى القصيدة وحدود الوعى واللاوعى فى بنية النص، ويطبق المؤلف فروضاته على الشاعر نزار قبانى.

■■■

نقد المسكوت عنه فى خطاب المرأة والجسد والثقافة
أمينة غصن
دمشق: دار المدى ٢٠٠١

بحث عن مكانة المرأة فى المجتمع العربى والأحكام التى تتضمنها النصوص الدينية والاجتهادات الفقهية فى شأن المرأة، وكذلك عن خطاب الجسد فى الأدب والسينما ونقد هذا الخطاب.

■■■

History of the Surrealist Movement
(تاريخ الحركة السريالية)
Gerard Durozoi
Translated by: Alison Anderson
University of Chicago, 2002, 816PP., $95.00

عمل ضخم صدر أول مرة فى فرنسا عام ١٩٩٧ للناقد الفنى الفرنسى والفيلسوف المخضرم جيرار ديورزوا، يتناول فى مجلد واحد تاريخ الحركة السريالية فى الفن والأدب فى القرن العشرين. وقد بدأت هذه الحركة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتهت تقريبًا عام ١٩٦٦ مع وفاة أندريه بريتون الذى يعتبر «الأب الروحى للسريالية». الكتاب يضم ٢٣٠ صورة ملونة.

■■■



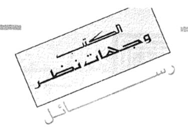
دلائل الإعجاز

القول فى الفصل والوصل

اعلم أن العلمَ بما ينبغى أن يُصنَع فى الجمل من عَطْف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجىء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يَتَأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص، وإلا قوم طُبِعُوا على البلاغة، وأوتوا فنًا من المعرفة فى ذَوْق الكلام هُمْ بها أفراد. وقد بلَغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حدًا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئل عنها فقال: «معرفة الفَصْل من الوصل»، ذاك لغموضه ودقَّة مسلكه، وأنه لا يَكْمُل لإحراز الفضيلة فيه أحَدٌ، إلا كَمَل لسائر معانى البلاغة.

واعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف فى المُفْرد، ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها. ومعلوم أن فائدة العطف فى المفرد أن يُشرِكَ الثانى فى إعراب الأول، وأنه إذا أشركه فى إعرابه فقد أشركه فى حكم ذلك الإعراب، نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثلُه، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو فيه أو لهُ، شريك له فى ذلك. وإذا كان هذا أصله فى المُفْرَد، فإن الجمل المعطوف بعضُها على بعض على ضربين: أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضعٌ من الإعراب، وإذا كانت كذلك كان حُكْمُها حُكْمَ المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكُون واقعة موقعَ المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقعَ المفرد، كان عطفُ الثانية عليها جاريًا مَجْرى عطف المفرد على المفرد، وكان وجهُ الحاجة إلى «الواو» ظاهرًا، والإشراكُ بها فى الحكم موجودًا.





الخطاب الدينى المعاصر.. بين التجديد والتغيير

نشرت مجلة «وجهات نظر» فى عددها الأخير مقالاً للدكتور أحمد كمال أبو المجد عن «الخطاب الدينى المعاصر»، وأرجو من خلال المجلة أن أوجه إليه هذه الانطباعات التى خرجت بها بعد قراءة المقال.

ليس لدىّ شك يا سيدى فى بواعثك على كتابة هذا المقال الآن، فلك مطلق الحرية أن تكتب وقتما تشاء عما تشاء، كما أننى لست من المؤمنين بنظرية المؤامرة على أى حال. نعم لم تتوقف أنت والعشرات منذ أكثر من عشرين عاماً عن نقد بعض صور الخطاب الدينى السائد، ولا عن الكتابة فى موضوعات الحوار الدينى وآدابه، ولكن يظل السؤال يلح: ماذا حققت أنت وصحبك طيلة هذه السنوات؟ المزيد من المؤتمرات فى الداخل والخارج باعتباركم تمثلون «الإسلام المعتدل». ماذا فعلت هذه المقالات لدرء خطر «مجاذيب الإسلام»، ولن أسميهم الإسلاميين، وماذا فعلت أنت وغيرك لنصر أبوزيد ونجيب محفوظ وفرج فودة وآخرين؟ وأرجو أن تصدقنى حين أقول أننى لا أقصد أن أقسو عليك أو أن أحملك ما لا طاقة لأفراد به. (وعلى أى حال أنت لست خطيبًا، ويعلم الجميع حال القراءة فى مصر والوطن العربى، ومن يقرأ على سبيل المثال مثل هذه المطبوعة القيمة «الجادة»). لقد حاول آخرون من قبل، ولو مجرد محاولة. حاول الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده، وأنت تعرف ما كان من شأن تلميذه رشيد رضا وشلتوت، وكثير ممن لا تحضرنى أسماؤهم.

الكثيرون يا سيدى يحاولون ويحاولون، جزاهم الله كل الخير، ولكن ما مدى نجاح هذه المحاولات؟ أترك لك الإجابة. ورأيى يا سيدى أنها لن تنجح، وأنا لست سعيدًا بهذا النفى، أية محاولة ما لم نعل فى مجتمعنا من قيمة حرية الرأى وحقوق الآخرين، مع توفر المظلة القانونية - وأنت فى الأصل أستاذ قانون - التى تحمى من يتبنى هذه القيمة، وإلا سيكون مصيره السجن أو القتل.

الخطاب الدينى الذى تتحدث عنه هو خطاب الدعاة والوعاظ ومن على شاكلتهم حين يقدم إلى جمهور الناس على أنه الفهم الصحيح للإسلام. نعم أنت محق، هذا الخطاب يحتاج تصحيحًا، لكن لا أنت ولا غيرك سيستطيع تصحيحه مادام الكل ينهل من نفس المنابع العتيقة. تأتى لى بحديث فأرد عليك بأن هذا ليس ما أجمع عليه الفقهاء، وربما آتى بعكسه، وتأتى لى بتفسير آية فأرد عليك بأن هذا ليس ما أجمع عليه المفسرون، ولن ينصلح الحال أبدًا. نحن يا سيدى لسنا فى حاجة لمجرد اجتهاد آخر يضاف إلى اجتهادات القرون السابقة، نحن فى حاجة لثورة تعلى من شأن القيم الأساسية التى يجب أن يتبنى عليها المجتمع الحديث.

حرية الرأى فى مصر يا سيدى مقيدة، ولا أقول منتفية، وهذه القيمة هى السبيل الوحيد الذى سيمكنك وغيرك من تصحيح، والأفضل تغيير، الخطاب الدينى. نحن نحتاج لزرع هذه القيمة فى ثقافتنا، فكم قتلنا من خلفائنا، راشدين وغير راشدين، ومن أئمتنا وفقهائنا وعلمائنا. إن هرم القيم عندنا يا سيدى هرم مقلوب للأسف. نعيش فى الدنيا وعيوننا باستمرار على الجنة والنار، وهو أمر محمود فى حد ذاته، ولكننا فى مسعانا هذا ننظر لحقوق الآخرين بطرف عين، ولا أريد أن أقول لا نراهم على الإطلاق. إنه الاعتقاد الخاطئ فى رأيى، أنه مادمنا نؤدى حق الله فقد ضمنا العفو والرحمة والشفاعة، ومن ثم الجنة. وعلى ذلك اخترنا الطريق الأسهل والأوضح، فى الظاهر، من أداء للفروض والسنن والاهتمام بالأمور الشكلية فقط، من جلباب ولحية وحجاب، (حتى صباح الخير لا يقولها البعض لأنها ليست تحية الإسلام!!!) دون اهتمام بما تبثه العبادات من قيم إنسانية.

لقد أصبح كل ما يميز دين الإسلام من بساطة ورحمة بكل أسف مجرد وسيلة لتحقيق «أكبر قدر من الحسنات»، ليس للحسنات فى حد ذاتها ولكن للتغطية على سيئاتنا وقيمنا الفاسدة. اقرأ كذا قبل النوم وكذا بعد النوم، وقبل أن تدخل الحمَّام وبعد أن تخرج منه، وقبل الأكل وبعد الأكل، وقبل السفر وبعد الوصول، وقبل أن تجامع زوجك وبعد.. إلى آخر ذلك. لو قرأت الصمدية ثلاث مرات كأنك قرأت القرآن كله، والحسنة بعشرة أمثالها، ويستمر «العد»، دون مجرد التفكير فيما نقرأ، ولا أحد يريد إعمال العقل رغم «أفلا تعقلون»، لأنه «وإن جادلوك..».

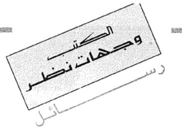
الصلاة هى الوسيلة التى تعلمنا الخشوع واستحضار معية الرب، وتنهانا عن الفحشاء والمنكر. الصلاة الآن لا تؤدى إلا لأنه بدون أدائها لا تدخل الجنة، وتعذب فى القبر، ولأن بين الصلاة والصلاة كفارة، ولأنه من لم يصل الفجر لا يبارك الله فى رزقه، وهكذا. الأذان يصم الآذان من مكبرات الصوت بأصوات فى منتهى القبح، يفعلونها طمعًا فى حسنات من يرفع الأذان، ودون تفكير فى اختلاف الزمن بين من كانوا ينامون بعد غروب الشمس بقليل وبين من كتب عليهم الشقاء حتى ساعات متأخرة من الليل. نعم، فلتذهب حقوق الآخرين إلى الجحيم من مرضى وأطفال وأمهات وأقباط، أو حتى، وبعيدًا عن منطق التكفير، من لا يصلى أصلاً. تذهب إلى مؤسسات ومصالح حكومية فى أوقات الصلاة، فتجد الجميع ركعًا سجودًا، دون أى اعتبار للوقت أو لمصالح الآخرين. ناهيك عن صلاة الجمعة وما تفعله بشوارع القاهرة الضيقة فى الأصل. هل من أحد يعلمنا إعلاء قيمة الوقت وعدم الاعتداء على حرية الآخرين. وأرجو يا سيدى ألا تجادلنى بمنطق العامة وتقول لى إن الصلاة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، وأن إشارة المرور تستغرق قدر وقت صلاة الجمعة، وأنا هنا لا أصادر على رأيك، فقط أقول إن ما ستجادلنى به هو أيضًا جزء من مشكلة انهيار القيم الأساسية فى المجتمع. الصلاة، حتى مع الوضوء، لا تستغرق فعلاً أكثر من خمس دقائق إذا صليتها بمفردك ووضعت القيم الأخرى فى اعتبارك، لأن الحاصل هو أن الجميع يتوضأ أو ينتظر انتهاء الآخرين من الوضوء، ثم يقيم أحدهم الصلاة ويستغرق فيها فى خشوع «كاذب»، ثم يصلى معظمهم بعدها السنن، وهكذا. وأرجو يا سيدى أن تحاول أن تعرض عليهم أن تضاف نصف ساعة إلى يوم عملهم حتى يصلّون «على حسابهم» وليس على حساب محل عملهم، لترى ماذا سيكونون بك فاعلين.

الصوم سمو بالنفس عن الدنايا. الناس الآن لا تصوم إلا لأن إفطار يوم لا يعوضه صوم الدهر، وإلى آخر ما تعلمته أنت أكثر منى. بالله عليك يا سيدى هل ما تراه أمامك من أمر الصائمين يرضى الله؟ إنه شهر لا ترتفع فيه القيم بل تزداد انهيارًا. من يذهب إلى عمله وهو نائم، ومن لا يذهب على الإطلاق، ومن يذهب ولا يستطيع العمل بكفاءة كنتيجة طبيعية للصوم، من يستيقظ قبل الإفطار بسويعات، من يقضى الساعات يصلى التراويح، وهو سارح فى ملكوت الله، ليكتب له أنه ختم القرآن، ومن يقرأ القرآن ليختمه أيضًا فى هذا الشهر، لا بهدف الفهم والاعتبار ولكن لمجرد «حصد الحسنات». أما الحج فقد أصبح مظهرًا اجتماعيًا، سواء من حيث اللقب أو عدد المرات أو كم الهدايا أو حتى مؤخرًا نوع الرحلة.

المشكلة يا سيدى، فى رأيى، ليست فى الفريضة، بل فى الصدق، لأننا فى نهاية الأمر لا نخدع إلا أنفسنا إذا تصورنا أننا سندخل الجنة ونحصد الحسنات بمجرد أداء الفرائض. وإذا قلت لى أنه لا يعلم الغيب إلا الله وربما يكون هؤلاء على حق ويتقبل الله منهم، لقلت لك بنفس المنطق، إذن دعنى وشأنى فربما كانت الجنة من نصيبى أنا. وكل ما أرجوه منك ألا تعتدى على حريتى وحقوقى. إذا لم تذهب معهم للصلاة استوقفوك متسائلين لماذا لا تصلى. وإذا أفطرت فى العلن، التف الجميع من حولك ناصحين محذرين. كم، أو من منا يعطى المرأة حقوقها، أو لغير المسلمين، سواء كتابيين أو غيرهم، حقوقهم؟ وأرجوك، ومرة أخرى ليست مصادرة على رأيك، لا تعطنى درسًا فيما قدمه الإسلام للمرأة أو لغير المسلمين، من قرون، من حقوق، مستشهدًا بالآيات والأحاديث التى نحفظها جميعًا عن ظهر قلب.

إذا لم يحدث تغير فى المفاهيم فسيظل الخطاب الدينى على ما هو عليه. ومادام الكتّاب «المعتدلون» يلجأون فى أحاديثهم وكتاباتهم إلى مراجع تفسر القرآن والحديث تعود لقرون مضت فلا أمل ولا رجاء، وسيظلون «يؤذنون فى مالطة» (حتى دون مكبر الصوت). نحن فى زمن يحتاج لتفسير ثورى يحررنا من أصفاد التفاسير العتيقة وهو ما لن يتحقق دون تمكن قيمة حرية الرأى فى مجتمعنا ودون مواجهة قاسية مع النفس ومع ما نتبناه من قيم. فبدون هذه الحرية سيكون مصير من يجتهد السجن أو القتل. أما لو وفر القانون حرية الرأى للأفراد، مهما كان فى ذلك من شطط أحيانًا قد يقترب فى رأى آخرين من الكفر، أو حتى هو الكفر، فسوف تولد أفكار جديدة وتطفو على السطح مرة أخرى قيم كانت قد اختنقت محرومة من هواء الحرية، وقد نرى حينئذ من سيتبع من. (والمضحك يا سيدى أن نسمع عمن ادعى الألوهية، وكأننا فى حاجة للمزيد، أما القرقرة فتأتى من أنه وجد من يصدقه، رغم كل هذا المد الدينى الذى يحاصرنا). الدين يا سيدى ليس هدفا فى ذاته، فى رأيى، بل وسيلة لتحقيق سعادة البشر فى الدنيا أيضًا كما فى الآخرة. ولنترك لصاحب الأمر الحكم على مقاصدنا وأفعالنا، بدلاً من أن نمثل بجثث بعضنا البعض كما يحدث فى الجزائر، ويشتد فى شهر رمضان وهو ما لا يصدقه عقل، فتزيغ من العجب والشفقة أعين من نعتبرهم فى الغرب كفارًا.

محمد حلمى محمود
مدير بشركة استشارات
٣٠ ش دسوق - العجوزة



هـيـكـل.. وجـهـات نظر

بحجم زلزال سبتمبر وتوابعه بحجم تعدد «وجهات نظر» حوله أسبابًا ونتائج، وبقدر ما أعلن حول الحدث تظل الجوانب الخفية تحتل حتمًا صفحات آلاف التقارير السرية التى لم يأت بعد، وربما لا يأتى أبدًا موعد الإعلان عنها.

وبقدر الإجابات التى تم ترويجها إعلاميًا وسياسيًا على نطاق واسع، بقدر الأسئلة التى لازالت تحتفظ بعلامات استفهامها.

مقال الأستاذ هيكل فى عدد فبراير ٢٠٠٢ من «وجهات نظر» أثار جدلاً واسعًا امتد للعديد من الصحف العربية. كما كان موضوعًا لعدد من الرسائل التى تلقتها المجلة والتى تنشر هنا سطورًا منها.

المحرر



أئمة الجهاد الإمبريالى

فى عدد فبراير من وجهات نظر، والذى قبله، أماط لنا الأستاذ هيكل اللثام عن حقيقة سيناريوهات الجهاد الأفغانى وواضعى رواياته، مخرجى مشاهده وممولى عملياته بحكم ما لديه من رصيد معرفى ثمين وحنكة سياسية راسخة وشبكة اتصالات دولية نافذة إلى أعماق الحقائق وكاشفة للأستار المسدلة عليها مبينًا أن الجهاد الأفغانى برمته، لم يكن سوى عملية مخابراتية بحتة، تآزرت على تنفيذها عدة أجهزة متكاتفة نعرض فيما يلى بيانها:

أولاً: القطب الأوحد والأب الروحى الأكبر للعمليات برمتها: المخابرات المركزية الأمريكية التى قامت برسم الخطة الرئيسية العامة وتحديد ملامحها وخطوات تنفيذها وفقًا للتصورات التى وضعها خبراء الأمن القومى لديها بناء على اقتراح مستشارى رئيسهم، استدراجًا للسوفييت إلى مستنقع أفغانستان، واستنزافًا لبقية الباقية من قوته، ودعمًا للمخططات الرامية إلى الإجهاز عليه، وإزاحته بعيدًا عن الجمهوريات المتحلقة حول بترول بحر قزوين، فضلاً عن إرساء قواعد لها حول باطن الصين المارد المتثائب، وذلك كله انتقامًا من الصين وفيتنام اللذين استدرجاها من قبل إلى مستنقع الأخيرة.

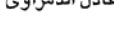
ثانيًا: إخوان الصفا وخلان الوفا من أعضاء نادى سفارى المخابرات العربية «مصر، السعودية، إيران، الشام، المغرب» والذين وافقوا على الاشتراك فى الحرب ضد السوفييت بتقديم مصر للرجال والبغال المستوردة من قبرص فضلاً عن الأسلحة السوفيتية المسلمة لها لمحاربة إسرائيل، وتولى عمليات نقلها إلى ساحة المعارك. وقيام السعودية بتمويل ونقل المحاربين القادمين من مصر وباقى الدول العربية إلى معسكرات تدريبهم بواسطة خبراء مسرحين من الجيش المصرى خصيصًا للقيام بهذه المهمة، للجهاد فى أفغانستان ثم العودة للجهاد فى مصر، بعد انتهاء الحرب فيها.

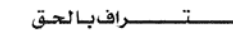
ثالثًا: المراجع الفقهية أصحاب الحوزة الفعلية: للمال والعتاد من قادة أجهزة مخابرات باكستان العامة والعسكرية، والذين حولوا أراضيها خطوطا خلفية للحرب الأفغانية، وساحة لاستقبال وتأهيل ونقل المحاربين وعتادهم إلى أفغانستان بدءًا من محاربة السوفييت وانتهاءً بالقضاء على صنائعهم طالبان إذا كان قد تم أصلاً محاربتهم هناك أو القضاء على القاعدة وقادتها المزعوم طلبهم أحياء أو أمواتا.

رابعًا: العالم العلامة والحبر الفهامة: المخابرات الإسرائيلية بأجهزتها المختلفة ومراكز دراساتها العلمية والأكاديمية العاكفة على استقصاء جذور العقيدة الإسلامية وأئمة فقهائها واجتهاداتهم وتأويلاتهم بواسطة خبرائهم فى هذه المسائل ومستشرقين ناعقين بخراب هذه العقيدة منذ هبوط رسالتها على النبى، وسعى يهود المدينة بقيادة كعب أحبارهم إلى دحضها ونسفها وإلصاق أبشع التهم بنبيها، ودس إسرائيلياتهم فى أحاديثه.

وهكذا يتضح أن حقيقة الجهاد الأفغانى لا تعدو أن يكون مؤامرة تحالفت أربعة أجهزة مخابرات عالمية ألا وهى المركزية الأمريكية والسفارى العربية والموساد الإسرائيلية على تصميم وتنفيذ عملياتها إراقة لأموالنا ودمائنا فى أفغانستان لحساب المصالح الإمبريالية المشرئبة بأعناقها للسيطرة على مخزون وقود بحر قزوين الإستراتيجى ثم استخدام المجاهدين العرب الأفغان فى القضاء على نظم بلادهم من تكريس أموالهم وأرواحهم للقضاء على إسرائيل ونصرة شعبها وحماية قدسها.

عادل الدمراوى





اعتراف بالحق

مقال الأستاذ هيكل فى عدد فبراير غاية فى الروعة والاتساق والانضباط.

الأستاذ ـ بالطبع ـ لا ينتظر منى مثل هذه الشهادة ولكنه الاعتراف بالحق.. ولعل مقالة فبراير من أجمل وأدق ما كُتب حتى الآن عن أفغانستان.

وصفى حنا واصف

دفاتر أسئلة

فى مقال دفاتر أزمة للأستاذ محمد حسنين هيكل عدد يناير ٢٠٠٢ سأل محرر مجلة «لانوفيل أوبسر فاتور» الفرنسية زبجنيو برجنسكى هل تعلمون بذلك أنكم أعطيتم السلاح للإرهابيين الذين أصبحوا أعداء لكم؟ أى أنكم خلقتكم صورة الإسلام الإرهابى، فرد عليه برجنسكى والذى لا أخفى إعجابى به وبعقليته السياسية والاستراتيجية الخطيرة جدًا قائلاً متسائلاً: أيهما أفضل للعرب: انهيار الاتحاد السوفيتى أو ممارسة الإرهاب بواسطة الجماعات الإسلامية مستطردًا أيهما أخطر على الغرب طالبان أم موسكو؟

وعند سؤاله مرة أخرى لكن الإرهاب الإسلامى يمكن أن يتحول إلى موجة عالمية؟ بالله عليك «عزيزى محرر بريد القراء» انظر إلى هذا الرد الذى لا أريد أن أقول إنه يعتبر مدرسة فى علم الاستراتيجيات السياسية كمدح أو أقول أنه رد شاف للسؤال الأول عن أيهما أخطر على الغرب الإرهاب أم الشيوعية وهذا الرد وإن كان ناعمًا كالحرير وإنما أيضًا قاطع كالسيف انظر معى لكلمات برجنسكى: «هذا كلام فارغ يخلط بين الإسلام وبين ظواهر العولمة فلننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج هناك دين له احترامه وله أتباع «١,٥ مليار» ثم يقارن شخصيات المسلمين كأحد أعمق الأطباء النفسيين متسائلاً: ما الذى يجمع مسلما أصوليا سعوديا أو مسلما عسكريا باكستانيا أو مسلما معتدلاً مغربيا أو مسلما متعلما مصريا» «لاحظ الصفات جيدًا فهى ذات دلالة خطيرة» ثم يستطرد بأخطر شىء فى كلامه ولا أدرى إن كان صحيحًا أو خاطئًا.. لا شىء يجمع هؤلاء إطلاقًا «المسلمين» لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين فى العالم وهو لا شىء»».

بالله عليك ما أحوجنا إلى عقول مثل هذا البرجنسكى فى دهاليز صناعة سياستنا الخارجية مع اختلاف الغايات والوسائل بدلاً من المحسوبيات والوسائط فى اختيار ممثلى بلادنا وصناع قراراتنا.

أحمد أبو زيد
المنيا



«وجهات نظر» وسنوات من العطاء

على مدى ثلاثة أعوام هى عمر مجلة «وجهات نظر» قدّمت خلالها عطاء متميزا وفكرا جديدا ورؤية عميقة، وساهمت فى إثراء الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى، وقدّمت للقارئ جديداً كانت الساحة الثقافية فى حاجة إليه.

وكواحد من قراء المجلة أعتبرها واحة ثقافية تطل علينا مع بداية كل شهر بأحداث ومقالات وتحليلات وموضوعات ثقافية وفكرية وسياسية، وعروض عربية وأجنبية لأهم الإصدارات فى عالم المطبوعات وقضايا الساعة التى تهم القراء؛ وهذا هو العطاء الثقافى للمجلة والرسالة الحقيقية التى تقوم بها والإضافة التى أضافتها إلى الحياة الثقافية والجديد الذى قدمته للقراء باعتبارها نافذة ثقافية ورافداً معرفيًا وجسراً للتواصل بين العالم العربى وقرائها فى كل مكان؛ مما يؤكد أنها تحترم عقلية القارئ.

وبما أن المجلة قدّمت لنا فى افتتاحية عددها قبل الماضى حصاد أعوام ثلاثة فأشير هنا فى عجالة سريعة إلى أن نجاح المجلة واكتسابها قراءً جدداً يرجع لأسباب عدة منها: التزامها بما رسمته لنفسها من البداية وتميزها بإخراجها الفنى الأنيق والمادة التحريرية وتنويع أبوابها وتجديدها وطرقها لموضوعات الساعة والمناسبات التاريخية، ولأنها أفردت مساحات لوجهات النظر المتعددة ـ حتى وإن اختلفت معها ـ وهذا يساهم فى إثراء الحياة الثقافية بشكل من الأشكال، فسماع الآخر شىء مهم والأهم أن نسمح بنشر وجهة النظر المخالفة مادامت فى حدود أدب الحوار والنقد البناء الذى يعود على الفرد والمجتمع بالخير.

وعموماً فإن مجلة «وجهات نظر» تساهم مع غيرها من المجلات الثقافية المصرية والعربية المتخصصة فى إثراء حياتنا الثقافية، ومازالت الساحة الثقافية فى حاجة إلى مزيد من النوافذ المعرفية الجديدة والإصدارات الأدبية المتجددة وتفعيل دور المجلات الثقافية الموجودة ودعمها لتخرّج لنا طاقات إبداعية واعدة فى الأدب والفكر والفنون وشتى مناحى الثقافة، وهذا يستلزم جهداً كبيراً من كل المجلات الثقافية وفى مقدمتها «وجهات نظر».

والحق يقال إن «وجهات نظر» مجلة ثرية تشبع نهم المثقف العربى وتنمى أفقه الفكرى باعتبارها نافذة ثقافية فى مصر والعالم العربى، فتحية لأولئك الفرسان القائمين على إصدارها كمجلس إدارة وهيئة تحرير وعلى رأسهم الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذى نجح فى استكتاب عدد كبير من الكتّاب رغم أننا نأمل أن تقدم المجلة كتّابا وأدباء وشعراء جددا من الشبان الأكفاء، وتحية للكاتب الكبير أستاذ الأجيال وعميد الصحفيين والكتّاب المعاصرين محمد حسنين هيكل الذى يمتعنا كل شهر بتحليلات مهمة فى موضوعات متنوعة وقضايا ساخنة.. وأمنياتى للمجلة بالازدهار الدائم والنجاح المستمر والعطاء المتواصل.

بدوى طه
القاهرة

نــون

نظـــــرية الشـــــر
فى الســـياسة الأمريكيـة

لم يحدث من قبل أن استخدم الغرب فى صراعاته السياسية فى العصر الحديث وربما منذ الحروب الصليبية لغة أخلاقية ذات محتوى دينى، تسعى إلى وضع الآخر موضع الدفاع عن نفسه، أو بعبارة أخرى موضع الاتهام الذى يبرر شن الحرب ضده، بحيث تصبح الحرب فى هذه الحالة ضرورة أخلاقية تصل إلى حد القداسة الدينية للرد على العنف والكراهية، وليست ضرورة سياسية للدفاع عن المصالح، أو درءًا للتهديد بأخطار قائمة أو محتملة، أو صدًا العدوان مباشر أو غير مباشر يستهدف التوسع والاستيلاء على حقوق الغير.

ولكن هذا ما حدث بالفعل أخيرًا حين أعلن الرئيس بوش وجماعته من اليمين الأمريكى من أمثال رامسفيلد وأشكروفت الحرب ضد «محور الشر»، الذى يتسم أصحابه بالإرهاب، ومعاداة الحرية والأخلاق والقيم التى يتمسك بها المجتمع الأمريكى. واعتبرت واشنطن نفسها بقيادة بوش ممثلة لمبدأ الخير فى العالم، فى مواجهة قوى شريرة يقودها رجال أشرار من أمثال بن لادن وصدام حسين.. يمتلكون أسلحة كيماوية وبيولوجية وتدميرية يهددون بها المبادئ الخيرة التى قامت عليها الولايات المتحدة. ومن هذا المنطلق شنت أمريكا حملتها العسكرية لمحاربة الأشرار الجدد فيما أطلقت عليه «عملية الحرية الدائمة». ولم يخطئ بوش حين استخدم تعبير «الحرب الصليبية». الذى تراجع عنه بعد ذلك. ولكنه كان يقصده فى دخيلة نفسه، مستندًا إلى خطاب شعبى دينى اعتمده المؤسسون الأوائل للأمة الأمريكية.

وعلى الرغم من أن الدستور الأمريكى يفصل فصلاً كاملاً بين الكنيسة والدولة، إلا أن كثيرًا من مفردات اليمين الأمريكى، الذى يتشكل من طائفة المسيحيين الصهاينة الذين يؤمنون بأن الظهور الثانى للمسيح لن يتأتى إلا بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة وبناء هيكل سليمان والقضاء على أعداء المسيح، تظهر بوضوح فى الخطاب الرسمى الأمريكى. وهو ما أشار إليه الرئيس بوش فى الصين حين أكد على أهمية الدين فى الولايات المتحدة الأمريكية ولدى المواطن الأمريكى. وطبقًا لدراسات حديثة فإن الانتشار الواسع لأتباع هذه الطائفة وتعدد كنائسها ومؤسساتها الإعلامية والتليفزيونية على اتساع الولايات المتحدة يؤثر تأثيرًا قويًا على صنع القرار وعلى أصوات الناخبين بشكل خاص. ومن ثم لم يكن غريبًا أن يتسرب تعبير «محور الشر» إلى أفكار الرئيس بوش، سواء كان هو صاحبه أو تراثًا ريجانيًا قديمًا أطلقه ريجان فى وصف «امبراطورية الشر» على الاتحاد السوفيتى لكى يدمغ به أعداء أمريكا، فى مقابل معسكر الخير الذى يملك أكبر ترسانة عسكرية من أكثر الأسلحة تطورًا وتقدمًا والذى باستطاعته أن ينزل الهزيمة الساحقة بخصومه الأشرار.



من هنا يبدو جنوح الفكر السياسى الأمريكى إلى إصدار أحكام أخلاقية ذات طابع دينى، نكوصًا غير مسبوق عن منطق الصراعات والحروب التى شهدها القرن العشرون... حين كانت الحروب والصراعات دفاعًا عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية والمساواة والتقدم والعدالة، وغيرها من القيم التى تمثل نسقًا سياسيًا متكاملاً فى الحضارة الغربية المسيحية دون أن تتخذ طابعًا دينيًا، وتبدو إشارات الجنوح فى تعميمها «لثقافة الشر» جلية واضحة وضوح الشمس حين تظهر فى واحدة من أهم المجلات الأمريكية المعبرة عن صوت الاتجاه السياسى المحافظ الذى يعضد الرئيس بوش، كتابات تدعو إلى ضرب«مكة» بقنبلة نووية بهدف إرسال «إشارة للمسلمين».

وقد جاءت هذه الكتابات لأحد محررى مجلة «ناشيونال ريفيو» الواسعة الانتشار ويدعو ريتش لورى ردًا على رسائل تلقاها من بعض القراء حول ماذا يكون رد الفعل المناسب فى حالة تعرض أمريكا لهجوم نووى. وقال الكاتب فى رده: «إن بغداد وطهران هما الأقرب لتلقى الضربة النووية الأولى. ولو كان لدينا قنابل نظيفة تضمن حصر الدمار فى نقطة الهجوم لوضعنا غزة ورام الله على القائمة أيضًا، ويجب فى هذه الحالة أن نحذر القاهرة ودمشق والجزائر وطرابلس والرياض من خطر الإبادة الفورية إذا أبدوا أى اعتراض..».

على أن أخطر ما فى خطاب من هذا النوع الذى يروج لثقافة الشر، هو ما ينطوى عليه من تبريرات دينية وأخلاقية، وتلاعب بمشاعر الخوف والذعر لدى ملايين الأمريكيين البسطاء الذين يتلقون ثقافتهم من قنوات التليفزيون ووسائل الإعلام المسيَّرة، التى تضع كل مواطن أمريكى تحت وطأة التهديد بخطر محدق كالذى تعرض له فى سبتمبر، سوف ينزل عليه بغتة من جانب جماعات همجية مسلمة تضمر الحقد والشر للمجتمع الأمريكى.. يستخدمها بوش وجماعته كغطاء لتمكين إسرائيل من فرض سيطرتها على الفلسطينيين بأكثر الوسائل خسة وفظاعة، والاستعداد لضرب أعداء أمريكا فى العراق وإيران وكوريا الشمالية.. مع تهيئة الشعب الأمريكى نفسيًا لقبول تكاليف الحرب واحتمال وقوع خسائر بين جنوده. فلا تكاد تهدأ النفوس قليلاً ويعود المجتمع الأمريكى إلى حياته الطبيعية، حتى تتوالى النذر والإيحاءات من البنتاجون وأجهزة المخابرات ووسائل الإعلام بأن خطرًا وشيكا سوف يقع لا محالة.. إن لم يكن داخل أمريكا فخارجها. المهم أن تظل الأعصاب مشدودة، والأصابع على الزناد، والاستعداد للقتال فى سبيل محاربة الشر وأعوانه ورموزه قائمًا لا يفتر ولا يتراجع.. أى أن يتحول الخوف والغضب إلى بخار مكتوم لا بد من تنفيسه فى حرب تقودها أمريكا زعيمة العالم ضد قوى الشر التى وجدت بؤرة ارتكازها الأولى فى أفغانستان، ولكنها لم تلبث أن تفشت وانتشرت فى دول أخرى من العالم على حد قولهم، وامتدت إلى أهداف لا يعرف أحد مداها ولا يجرؤ على السؤال عنها.



ببساطة شديدة تحول هذا الخطاب الإعلامى الثقافى «عن محور الشر» إلى استراتيجية أمنية عالمية تعبئ القوى لمحاربة الشر، كان من الضرورى أن تجد لها إدارة الرئيس بوش سندًا قويًا لدى جماعة من المثقفين والمفكرين الأمريكيين الذين سعوا إلى وضع نظرية لثقافة الشر.. ٦٠ منهم بادروا إلى إصدار إعلان بعنوان «لأى هدف نحارب؟» نشرته معظم صحف العالم. لكى ترد به على تبرير بن لادن لضربات سبتمبر باعتبارها موجهة «لرأس الكفر فى العالم»، وتؤسس للإطار الفكرى والنظرى الذى يجعل من الحرب التى تخوضها أمريكا «حربًا عادلة» ضد العنف والكراهية والظلم، تأمر بها الأديان كافة؛ مسيحية ويهودية وإسلامية، ضد رأس الشر فى العالم، مقصودًا بذلك تلك «الشبكة الإسلامية الدولية التى تعرف باسم القاعدة».

استخدم الموقعون على هذه العريضة لغة أخلاقية ذات مسحة دينية، لتعريف «الحرب العادلة» من وجهة النظر الأمريكية، واستبعدت من معادلاتها وتعريفاتها نضال الشعوب التى ليس لها دولة أو جيش أو نظام سياسى مكتمل، أو بعبارة أخرى حروب التحرير بمعناها القديم والحديث. واعتبرت أن القتل باسم الله مناقض لمفهوم الإيمان بالله، حيث لا يصح أن يستغل المعبود فى خدمة أهداف دنيا، وهى رسالة موجهة بالدرجة الأولى إلى المسلمين سواء أولئك الذين شنوا هجماتهم على نيويورك وواشنطن، أو من يتعاطفون معهم، أو أولئك الذين يقاومون الهيمنة الأمريكية.

أما القيم التى تحكم المجتمع الأمريكى، فهى وإن شابتها بعض الثغرات والنواقص، إلا أن «القيم الأمريكية» فى أوقات الحروب والأزمات لا تخص أمريكا وحدها بل تخص البشرية جمعاء.. وهى الأساس الوحيد الممكن لمجتمع عالمى يقوم على السلام والعدل!

بهذه المبادئ وضع أصحاب العريضة الأساس النظرى والعملى والذى استخدمه بوش لتحديد «محور الشر»، وضمنه تلك الدول والقوى والجماعات التى لا تحترم القيم الأمريكية ولا تؤمن بها. والتى لا ترى فيها غير مجرد أسلوب للدفاع عن المصالح الأمريكية. وفيما يبدو فإن كثيرًا من الدول والحكومات الأوروبية وغير الأوروبية، بل ومن بينها حكومات ودول عربية، قد انساقت للمفهوم الأمريكى «لثقافة الشر» وانضمت إلى التحالف العالمى الذى تكتل لمحاربة محور الشر وأتباعه.

هل معنى ذلك أن أمريكا هى التى تمسك بزمام المبادرة فى صياغة خطاب أخلاقى عالمى، نتيجة إمساكها بزمام القوة والتفوق الاقتصادى والعسكرى والسياسى؛ هل بوسع أمريكا أن تملى على شعوب العالم تعريفها هى لمفهوم الشر ومفهوم الخير، وتحدد من هى الدول الصالحة والأخرى الطالحة، وأن تعيد صياغة الخطاب الأخلاقى صياغة جديدة تتفق ومصالحها فتبارك أنصارها وأصدقاءها وتلعن خصومها ومعارضيها؟

لقرون طويلة ظل الدين هو المنبع الأول للضمير الأخلاقى الذى يحدد القيم الإنسانية التى تميز بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والطيب والقبيح.. فهل بات ضروريًا ونحن فى مجتمع العولمة الذى سقطت فيه الحدود والسدود، ونحن فى مطلع القرن الواحد والعشرين، أن يترك لدولة واحدة أو لمجموعة من الدول صياغة الخطاب الأخلاقى الذى تصنف الشعوب على أساسه ـ طبقًا لمعايير سياسية شبه أخلاقية وشبه دينية ـ كأعضاء فى معسكر الشر أو معسكر الخير؟!

سلامة أحمد سلامة

Mobile Banking

البنك العربي

ARAB BANK

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



فى إطار سعيه الدائم لتقديم أفضل الخدمات المصرفية، يسر البنك العربى أن يقدم لعملائه خدمة البنك المحمول التى تنفرد باحتوائها على قائمة تشغيل مباشرة تتيح للمستخدم، من خلال الضغط على أزرار التليفون المحمول، إمكانية إجراء مجموعة هائلة من العمليات البنكية المتكاملة فى أى وقت ومن أى مكان

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك.
- طلب كشف حساب.
- الابلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية.
- الإبلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى.
- إجراء التحويلات بين حساباتك.
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب.
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك.
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة.

تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر

vodafone

Checkmate Adv.

لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول ڤودافون

